سلسلة مؤلفات
فضيلة الشيخ صالح الفوزان
(١٣)

إفادة المستفيد في شرح تجريد التوحيد المفيد

للإمام العلامة
تقي الدين أحمد بن علي المقريزي
(٧٦٦ - ٨٤٥ هـ)



الشرح
لفضيلة الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
حفظه الله

اعتنى به وأعده للنشر
فهد بن إبراهيم الفهيم

دار ابن الجوزي

إِفَادَةُ الْمُسْتَفِيدِ

فِي شَرْحِ

تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ الْمُفِيدِ

ح) دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٩ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الفوزان ، صالح بن فوزان بن عبد الله
إفادة المستفيد في شرح تجريد التوحيد المفيد . / صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان . - الدمام ، ١٤٣٩ هـ
٢٤٦ ص ؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك : ٤-٨٧-٨٢٢٢-٦٠٣-٩٧٨
١ - العقيدة الإسلامية ٢ - التوحيد أ . العنوان
ديوي ٢٤٠ ٤٥٦٦ / ١٤٣٩

رقم الإيداع : ٤٥٦٦ / ١٤٣٩
ردمك : ٤-٨٧-٨٢٢٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
(١٤٣٩هـ)



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت : ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣ ، ص ب ، واصل: ٢٩٥٧ الرمز البريدي: ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي : ٨٤٠٦ - فاكس : ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس : ٢١٠٧٢٢٨ جوال : ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت : ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت : ٦٨١٤٥١٩ - ٠٥٩٢٠٤١١٣٧١ بيروت : هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس : ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول : ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨ تلفاكس : ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

الموقع الإلكتروني : aljawzi.Net البريد الإلكتروني : aljawzi@hotmail.com

Twitter : @aljawzi | instagram : @aljawzi | Whatsapp : ٠٠٩٦٦٥٠٣٨٩٧٦٧١

Facebook : دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع

إفادة المستفيد
في شرح
تجريد التوحيد المفيد

للإمام العلامة

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

(٧٦٦ - ٨٥٤ هـ)

الشرح

لفضيلة الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

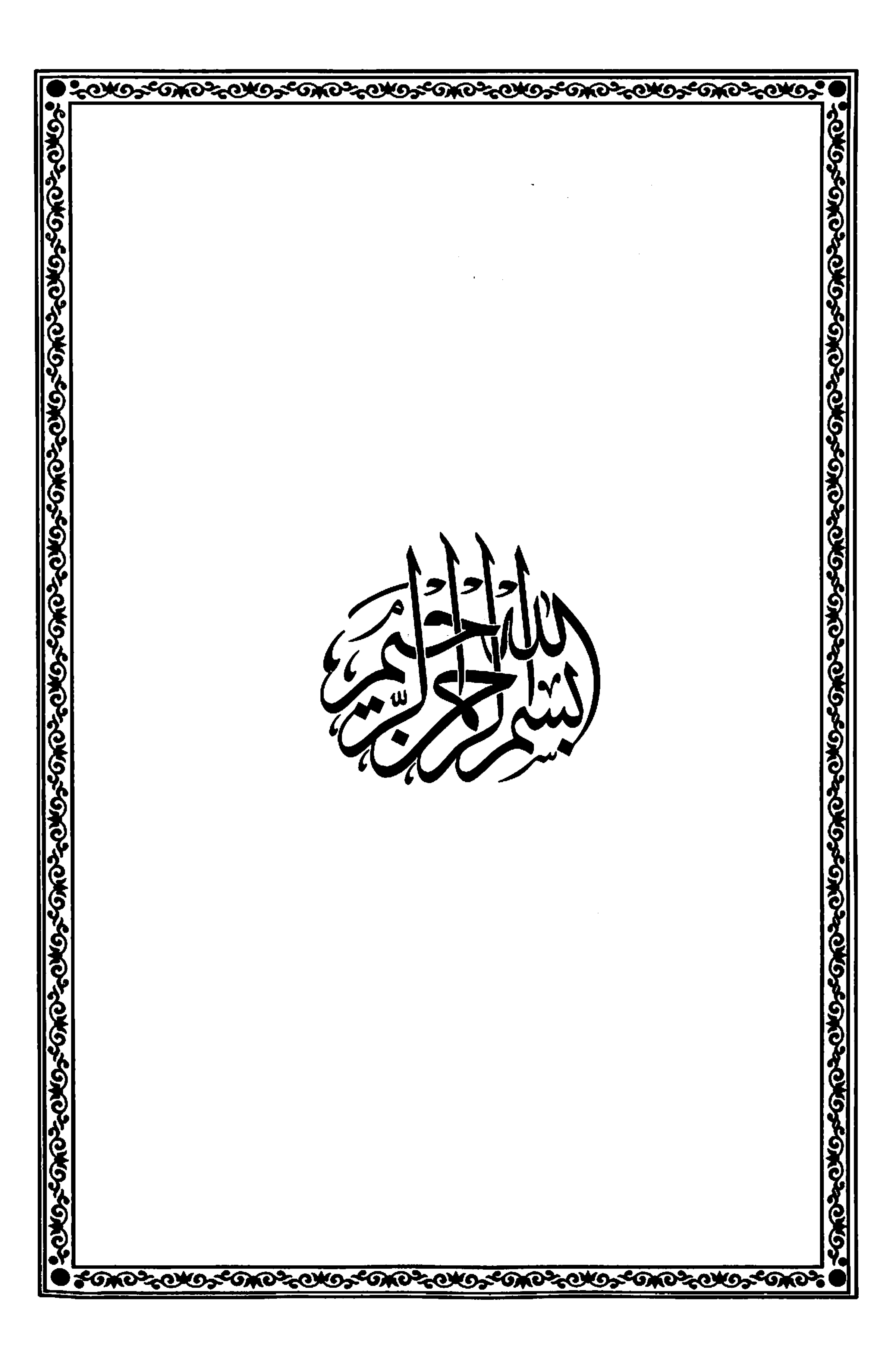
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

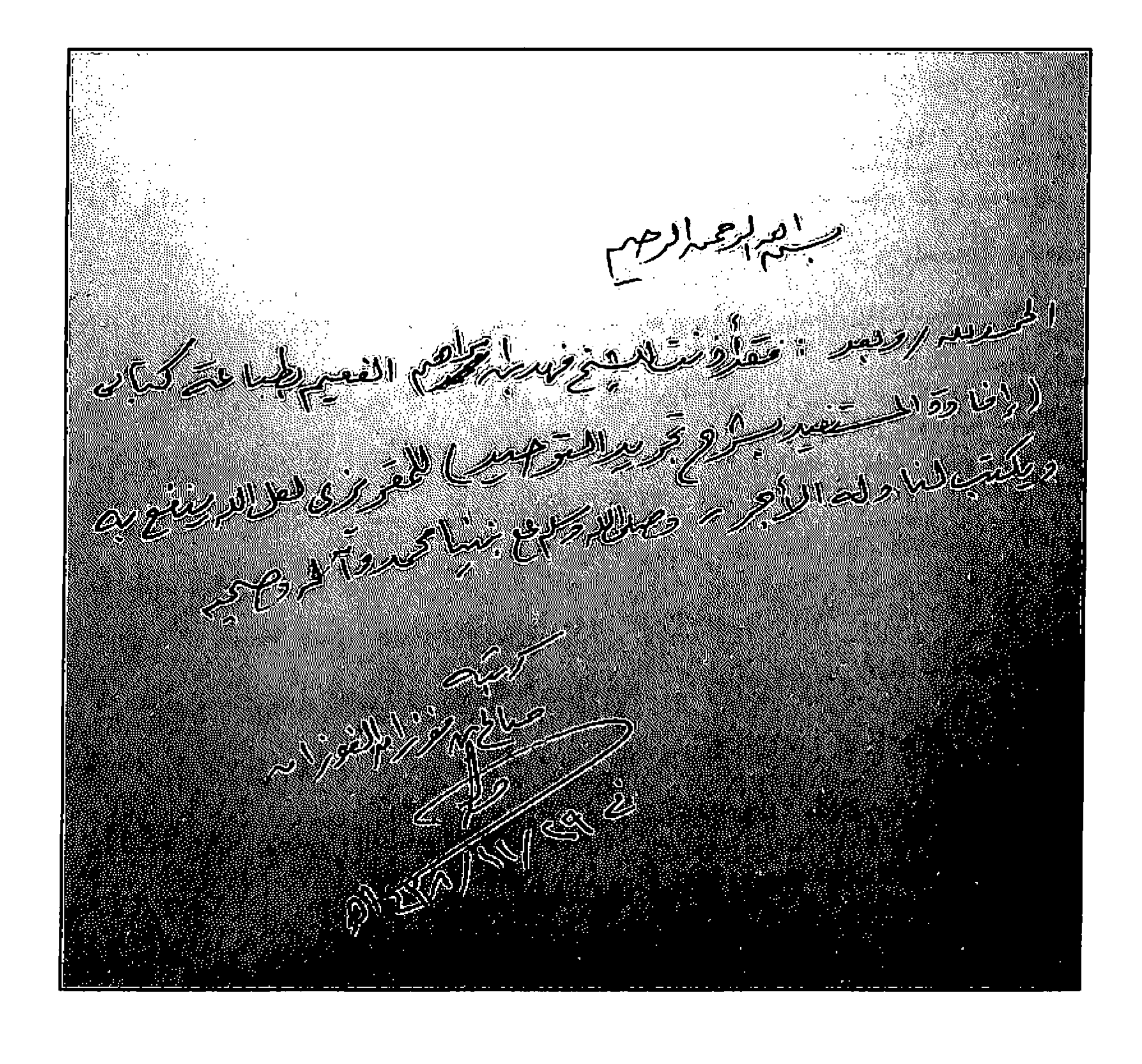
حفظه الله

إعتنى به وأعده للنشر

فهد بن إبراهيم الفهيم

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وبعد: فقد أذنت للشيخ عبد الله بن محمد بن إبراهيم الفهيم بطباعة كتابي (إفادة المستفيد بشرح تجريد التوحيد) للمقريزي لعل الله ينفع به ويكتب لنا وله الأجر. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

في ٢٩/١١/١٤٢٨هـ



مقدمة الشارح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى اللهُ وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن التوحيد وهو: إفراد الله ﷻ بالعبادة وترك عبادة ما سواه هو أول الإسلام وأول الدين، وأول ما يَدخل الإنسان في الإسلام أن يشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثم بعد ذلك يقوم بأوامر الدين وأنواعها؛ ولهذا كانت الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من أولهم إلى آخرهم أول ما يبدؤون به دعوة الناس إلى التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، وترك عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وكل نبي يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، كما ذكر الله ذلك عن نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وشعيب، كل نبي أول ما يبدأ: بدعوة التوحيد، فلا يبدأ بشيء قبلها.

ولما بعث الله رسوله محمدًا ﷺ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة بعد البعثة يدعو إلى التوحيد وينهى عن الشرك، قبل أن تُفرض الصلاة والزكاة والصيام والحج، وبقية شرائع الإسلام، كل هذه المدة في مكة يدعو إلى التوحيد، بينما فُرضت الصلاة قبل الهجرة بيسير ليلة المعراج، فُرضت عليه في مكة في آخر إقامته فيها.

والرسول ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن أعطاه الخطة التي يسير عليها في

دعوته، وقال له: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ...»(١) إلى آخر الحديث، فلمْ يأمره أن يدعوهم إلى الصلاة أولًا، أو إلى الزكاة، أو إلى الصيام؛ بل أمره أن يدعوهم أولًا إلى التوحيد، فإذا أقروا بالتوحيد أمرهم بالصلاة وبقية العبادات؛ لأن الصلاة وسائر العبادات لا تصح إذا لم يكن هناك عقيدة صحيحة تُبنى عليها العبادات، فهي الأساس؛ ولذلك سار الدعاة المصلحون من هذه الأمة على هذا المنهج النبوي، فكان أول ما يبدؤون بدعوة التوحيد، فإذا استجاب لهم الناس وأخلصوا العبادة لله وتركوا الشرك أمروهم ببقية الأوامر والعبادات؛ لأنها لا بد أن تنبني على أساس صحيح، هذا هو المنهج في الدعوة، وأما المناهج الدعوية التي يسمونها والتي تهمل التوحيد وتهمشه، ويقولون: الناس مسلمون ولا حاجة إلى أنهم يدعون إلى العقيدة!

نقول: لا يكونون مسلمين إلا إذا صححوا العقيدة، أما مجرد أنهم ينتسبون إلى الإسلام أو يصلون أو يصومون.. إلى آخره من العبادات وهم لم يصححوا العقيدة، ويعبدون القبور والأضرحة وغير ذلك؛ فهؤلاء ليسوا مسلمين، هذا من ناحية، وما أكثر هذا في الأمة اليوم.

الناحية الثانية: ولو كانوا مسلمين أيضًا فهم بحاجة إلى أن يتعلموا التوحيد ويعرفوا ضده، حتى لا يخلّوا بذلك؛ فالمسلم بحاجة إلى تعلم العقيدة وبيانها له حتى لا يقع في الشرك وهو لا يدري؛ فالمسلم أيضًا بحاجة إلى أن يتعلم هذه العقيدة، ويعرف ما يضادها ويفسدها، فلا غنى عن التوحيد، ولا بد من تعلمه وتعليمه ونشره بين الناس، وأن يكون هو أساس الدعوة إلى الله ﷻ.

أما إذا تركنا الناس على عقائدهم وخرافاتهم وشركياتهم، ونقول: مع ذلك هم مسلمون، فهذا من الغش للناس، ولا تجوز المداراة في هذا، ولا يجوز المداهنة في هذا وإرضاء الناس.

أما أن يقول: لست قادرًا على إيذاء الناس أو التعرض لعقائدهم

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨).

فيؤذونني، ويضربونني.. إلى آخره؛ فكيف يكون هذا داعية، الداعية لا بد أن يتعرض للمضايقات والمعارضات، ولكن عليه أن يصبر على هذا، وما أصابه فهو في سبيل الله ﷻ، وقرأنا في التاريخ عن كثير من الدعاة إلى الله؛ بدءًا بالرسول ﷺ أنهم أوذوا وهددوا وضايقهم الناس ولكنهم صبروا، وفي النهاية صارت العاقبة لهم، ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وهذا ينبغي أن يُعرف ويُعلم؛ لأن الآن هناك من يزهد في التوحيد وعقيدة التوحيد، ويقول: أنتم تتهمون الناس! أنتم تكفرون الناس! أيهما الذي ينفع الناس؛ من يبين لهم عقيدتهم وينصح لهم، أو الذي يجاملهم ويغشهم، ويداهنهم؟ فهذا الذي في الحقيقة يغش الناس، كيف يكون داعية وهو هكذا.

فيجب التنبه لهذا الأمر وهذه الدسيسة التي دسها علينا الأعداء، يريدون تذويب العقيدة، ويكفي أن الإنسان يقول: أنا مسلم. الإسلام أساسه العقيدة، ما يكون مسلمًا إلا إذا كان على عقيدة صحيحة، من صحت عقيدته فهو مسلم، وإن صدر منه بعض الذنوب وبعض الخطايا فهو مسلم، ولكن إذا لم يكن عنده عقيدة فهذا ولو صلى الليل والنهار، وصام الدهر وتصدق بالأموال وفعل ما فعل لا ينفعه ذلك، فليس بمسلم حتى يحقق ويصحح العقيدة أولًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، الشرك لا يغفره الله لمن مات عليه، بينما لو مات الإنسان على التوحيد، ولكن عنده خطايا وعنده ذنوب وكبائر، فهو مظنة المغفرة، وأيضًا لو عُذِّب فإن مآله إلى الجنة، ولا يخلد في النار، بينما المشرك مخلد في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المائدة: ٧٢]؛ فالأبلغ من هذا أن من مات على الشرك الأكبر فإنه مخلد في النار، وأما من مات على التوحيد والسلامة من الشرك فإنه من أهل الجنة، سواء عفا الله عنه وغفر له، وأدخله الجنة من غير عذاب، أو أن الله عذبه في النار على قدر ذنوبه؛ ثم يخرجه من النار ويدخله الجنة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾

[الأنعام: ٨٢]، الظلم هنا المراد به الشرك، هؤلاء لهم الأمن، أما من عنده شرك فليس له أمن، لا في الدنيا ولا في الآخرة، حتى يخلص العبادة لله ﷻ.

ونحن الآن بين أيدينا كتاب من الكتب المؤلفة في التوحيد، وهو كتاب «تجريد التوحيد المفيد»(١) للإمام تقي الدين أحمد بن علي المقريزي الشافعي المصري(٢)، هذا الإمام تبحر في العلوم والفنون، وخرجت له مؤلفات كثيرة معروفة، ومنها هذه العقيدة: «تجريد التوحيد المفيد»، وسمي بالمقريزي نسبة إلى الحارة التي ولد فيها في مصر، يُقال لها: حارة المقارزة أو حي المقارزة، فنسب إليها، وقد تأثر بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله - في هذا الشأن، شأن العقيدة، واقتبس من كتبهما في هذه العقيدة، وإن لم يصرح بذلك لمانع في وقته؛ فإنه ظاهر عليه أنه انتفع

---

(١) انظر: مقدمة تجريد التوحيد، بتحقيق: د. علي بن محمد العمران؛ ففيها تعليقات نفيسة وتعريف بكتب المؤلف وسيرته.

(٢) هو: أَحْمد بن علي بن عبد الْقَادِر بن مُحَمَّد بن إبراهيم أَبُو الْعَبَّاس الحسيني العبيدي، البعلي الأَصْل القاهري الحنفي الشافعي، وَيعرف بِابْن المقريزي، وهي نِسْبَة لحارة فِي بعلبك تعرف بحارة المقارزة، ولد قرابة ٧٦٦هـ بِالْقَاهِرَةِ ونشأ بهَا نشأة حَسَنَة، فحفظ الْقُرْآن وَسمع من جمَاعَة من الشُّيُوخ، وَحج فَسمع بِمَكَّة من علمائها وَسمع في الشَّام من جمَاعَة، واشتغل كثيرًا وَطَاف على الشُّيُوخ ولقي الْكِبَار وجالس الْأَئِمَّة، أحب الحَدِيث فواظب عَلَيْهِ، وَنظر في عدَّة فنون وشارك فِي الْفَضَائِل، وَقَالَ النظم والنثر، وناب في الحكم وَكتب التوقيع وَولي الْحِسْبَة بِالْقَاهِرَةِ غير مرّة، والخطابة بِجَامِع عَمْرو والإمامة بِجَامِع الْحَاكِم وَقِرَاءَة الحَدِيث بالمؤيدة، دخل دمشق مرَارًا وَتَوَلَّى بهَا التدريس، ثمَّ أعرض عَن جَمِيع ذَلِك وَأقَام بِبَلَدِهِ عاكفًا على الِاشْتِغَال بالتاريخ حَتَّى اشْتهر بِهِ ذكره وَبعد فِيهِ صيته وَصَارَت لَهُ فِيهِ جملَة تصانيف كالخطط والْآثَار للقاهرة، وكان إمامًا بارعًا مفننًا متقنًا ضابطًا دينًا خيرًا، محبًا لأهل السُّنَّة يميل إلى الحديث والعمل به، توفي ٨٤٥هـ، قال عنه الإمام الشوكاني: كان متبحرًا في التاريخ على اختلاف أنواعه، ومؤلفاته تشهد له بذلك، وإن جحده السخاوي فذلك دأبه في غالب أعيان معاصريه. انظر: (البدر الطالع ١/ ٧٩ - ٨٠) والضوء اللامع (٢/ ٢١) وإنباء الغمر (٩/ ١٧٠).

بمؤلفات ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واقتبس منها، هذا هو الإمام تقي الدين أحمد بن علي المقريزي. كان في أول حياته على مذهب الحنفية، ثم إنه انتقل إلى مذهب الشافعي، وصار شافعيًّا، وله كتب كثيرة من أشهرها: «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، و«حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور».
فله كتب كثيرة، مُكثر من التأليف، مما يدل على مكانته في العلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



بسم الله الرحمن الرحيم

* **الحمد لله ربّ العالمين،** ....

قوله: (**بسم الله الرحمن الرحيم**) بدأ المؤلف رَحِمَهُ اللهُ كتابه بالبسملة؛ لأن (**بسم الله الرحمن الرحيم**) كلمة عظيمة تتضمن الاستعانة بالله عَزَّ وَجَلَّ، والتبرك باسمه جَلَّ جَلَالُهُ، وبها تُفتتح الأمور، وفي الحديث: «**كُل كَلامٍ لا يُبْدَأُ فِي أَوَّلِهِ بِذِكْرِ الله، فَهُوَ أَبْتَرُ**»[1]، ولذلك كان كتبها الرسول ﷺ في رسائله، وكتبها سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كتب إلى بلقيس ملكة سبأ، فلما قرأت الكتاب قالت لقومها: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣١]، كما ذكر الله ذلك في سورة (النمل)، فهذه الكلمة يُبدأ بها في الكتب والرسائل، وقد افتتح الله بها سور القرآن الكريم، كل سورة ما عدا (براءة) تُفتتح ببسم الله الرحمن الرحيم؛ فيقتدى بالكتاب العزيز في كتابتها أولًا.

ثم قال بعدها: (**الحمد لله**) الثناء على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فهناك بعض الروايات: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالحَمْدِ أَقْطَعُ**»[2]؛ فالبداءة تكون حقيقية وتكون إضافية، فبدأ أولًا **بقوله:** (**بسم الله**) هذه حقيقية، ثم ثنّى بالحمد وهذه بداءة إضافية، ثم صلى على النبي ثم دخل في الموضوع.

قوله: (**الحمد لله ربّ العالمين**)، فجميع الحمد والثناء لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لأنه هو المنعم بكل النعم، فيحمد سبحانه على نعمه وفضله، ويحمد لذاته جَلَّ جَلَالُهُ، ويحمد لأسمائه وصفاته؛ فيثنى عليه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فهو المستحق بالحمد، فبدأ الله

---

(١) أخرجه النسائي (١٠٣٣١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٩٤)، وابن حبان (٢)، والنسائي (٥٥٥٩).

والعاقبة للمتقين، ....

الخلق بالحمد لله، وختمهم بالحمد لله، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]؛ أي: يشركون به، ثم ختم الخلق بالحمد لله رب العالمين في آخر سورة (الزمر) لما دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال ﷻ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر: ٧٥]؛ ففي سور من القرآن كثيرة تبدأ بالحمد لله رب العالمين، منها: قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ [سبأ: ١]، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾ [الكهف: ١]، وابتدأ فاتحة الكتاب ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٢، ٣] إلى آخر السورة.

قوله: (ربّ العالمين)، الرب هو المالك كما يأتي من كلام المؤلف رحمه الله؛ فالرب هو المالك الخالق المدبر، والعالمين: جمع عالم، فالمخلوقات كلها عوالم: عالم الجن، عالم الإنس، عالم الملائكة، عالم الحيوانات، عالم الطيور، وعوالم لا يعلمها إلا الله ظاهرة وخفية، كلها الله ربها ﷻ، وكل ما سوى الله فهو عالم، كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، والعوالم مختلفة؛ ولذلك جمعهم وقال: **(العالمين)** يُفرد ويقال: العالم.

قوله: (والعاقبة للمتقين)، كما قال موسى عليه السلام لقومه لما آذاهم فرعون وضايقهم وتجبر عليهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فتحقق هذا: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ

وصلى الله على نبيّنا محمد خاتم النبيين، ....

فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧]؛ فأورثهم الله أرض مصر ـ أرضهم ـ وأهلك فرعون، وتحقق بذلك ما قاله موسى ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

قوله: (وصلى الله على نبيّنا محمد)، الله ﷻ أمرنا بالصلاة على محمد بعدما صلى عليه هو وملائكته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦]، والصلاة من الله: ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى، والصلاة من الملائكة: الاستغفار، والصلاة من الآدميين: الدعاء كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ أي: ادع لهم إذا دفعوا لك زكاة أموالهم فادع لهم، والصلاة على النبي ﷺ واجبة؛ لأن الله أمر بها، وتارة تكون مستحبة في مواضع، وللإمام ابن القيم كتاب حافل مستقل اسمه (جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام)، فيه مباحث عظيمة في هذا الموضوع؛ فالحاصل: أن الصلاة والسلام على نبينا ﷺ من حقوقه علينا أن نصلي ونسلم عليه كلما ذُكر، وأحيانًا تجب الصلاة كما هي ركن من أركان الصلاة في التشهد الأخير.

قوله: (خاتم النبيين)، خاتم؛ أي: آخر؛ فلا نبي بعده؛ فمن الإيمان بالرسول ﷺ أن تؤمن وتعتقد أنه آخر الرسل، فلا نبي بعده إلى أن تقوم الساعة، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال الرسول ﷺ: **«أَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»**[1] **«وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»**[2] فمن ادعى النبوة بعده فهو كذاب، ومن صدق المتنبئين بعد الرسول ﷺ فهو كافر؛ لأنه مكذب لقول الله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ﴾، ومكذب لقول النبي ﷺ: **«أَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»**.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٥).

وعلى آله وصحبه ....

ولذلك حكم المسلمون وأئمة الإسلام على المتنبئين بالكفر، إلا من تاب منهم، وآخرهم في وقتنا القادياني الباكستاني الذي ادعى النبوة، واسمه أحمد القادياني، وقد تبعه فئام كثيرة من الناس ولهم دعوة الآن وتدعمهم الدول الكافرة، ويسمون بـ (الأحمدية)، وقد كفّرهم علماء المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ومنعوا من الدخول إلى المسجد الحرام في الحج؛ لأنهم كفار؛ لأنه ليس بعد النبي ﷺ نبي، وليس بعد شريعة الإسلام شريعة، وأما نزول المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ في آخر الزمان فهو ينزل ويكون تابعًا للرسول محمد ﷺ حاكمًا بشريعة الإسلام، لا يأتي بشرع جديد، وإنما يأتي بشريعة الرسول ﷺ، ويكون تابعًا للرسول ﷺ.

قوله: (وعلى آله وصحبه)، بعدما صلى على النبي عليه الصلاة والسلام، صلى على آله، وإذا ذكر الآل والأصحاب، فالآل: هم القرابة، والأصحاب هم الذين صحبوا النبي ﷺ من غير القرابة، فكل من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك فهو صحابي، ومن آمن به ولم يلقه فهو تابعي مثل النجاشي رحمه الله، آمن بالرسول ﷺ، ولكنه لم ير الرسول ﷺ ومات وهو لم ير الرسول فهو من التابعين، فكل من آمن بالرسول ﷺ ولم يره فهو تابعي، سواء في وقت الرسول ﷺ أو بعده، أما من لقيه وهو غير مؤمن به فليس صحابيًا، مثل سائر المشركين الذين لقوا النبي ﷺ ورأوه وجلسوا معه ومشوا معه، ولم تحقق لهم لقياهم بالنبي ﷺ الصحبة، فهم كفار، فما داموا لقوه وهم كفار فليسوا صحابة، وقوله: (ومات على ذلك) يخرج بذلك من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ولكنه ارتد، فمن لقي النبي ﷺ مؤمنًا به، ولكنه ارتد فهذا تبطل صحبته وتبطل جميع أعماله والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ فالصحابي: من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك.

أجمعين، أما بعد:

*** فهذا كتاب جمّ الفوائد، بديع الفرائد، ينتفع به من أراد الله والدّار الآخرة، ....**

قوله: (أجمعين) فلا نقتصر على الآل، فإذا ذكر الآل فقط يدخل فيهم الصحابة؛ لأنه يكون (الآل) بمعنى الأتباع، من القرابة وغيرهم، أما إذا ذُكر الآل والأصحاب صار الآل لهم معنى، والأصحاب لهم معنى، ونحن لا نغلو في القرابة والآل ونجفو في حق الصحابة كفعل الشيعة؛ بل إننا نؤمن بفضل الجميع، ونعترف بفضل الجميع من قرابة الرسول ومن غيرهم، من جميع المؤمنين، لا نفرق بينهم في ذلك، وإنما هذا فعل الشيعة الذين هم أعداء للإسلام والمسلمين.

قوله: (فهذا كتاب) هذا إشارة لهذه الرسالة، **(جمّ الفوائد)**؛ يعني: كثير الفوائد، وهو كذلك؛ لأنه في أهم شيء، وهو العقيدة، **(ينتفع به)**؛ أي: بهذا الكتاب، **(من أراد الله والدّار الاخرة)**؛ لأنه يتضمن الاعتقاد السليم، والمنهج القويم، المأخوذ من الكتاب والسُّنَّة، وهو ينتفع به المؤمن الذي يسلم به قصده ونيته لله ﷻ.

أما من يريد الهوى، ولا يريد الآخرة، وإنما يريد رغبة نفسه وهواه ويريد رأيه ويركب رأسه من الفرق الضالة التي لا تريد العقيدة السليمة فإنه لا ينتفع بهذا الكتاب؛ بل يحرمه الله من الانتفاع بهذا الكتاب وغيره؛ بل لا ينتفع من القرآن والسُّنَّة، فهذا الكتاب على منهج القرآن مأخوذ من السُّنَّة، فالذي لا يعتقد ما فيه فإنه يكون خاسرًا لا لأنه كتاب فلان، أو كلام فلان؛ بل لأنه من الكتاب والسُّنَّة، وعلى عقيدة السلف الصالح ومنهج السلف الصالح، **(من أراد الله والدّار الآخرة)** أما أهل الأهواء والفرق الضالة وأهل المذاهب المنحرفة فهم لا ينتفعون بهذا الكتاب ولا بغيره؛ فليسوا عبرة إذا رفضوه، وكثير من أهل الشر اليوم ينتقدون كتب التوحيد وكتب العقيدة، ويصفونها

سمّيته: «تجريد التّوحيد المفيد»، والله أسأل العون على العمل به بمنّه وكرمه.

بالتشدد، ويصفونها بالرجعية، إلى آخره، ولكن هذا لا يضر أهل الحق أبدًا، ولا يرخص هذه العقيدة عند أهل الحق؛ بل يزيدها ثباتًا.

قوله: (سمّيته: تجريد التّوحيد المفيد) التجريد: يعني: تخليص؛ يعني: تخليص التوحيد من الشوائب والشركيات والبدع. **(والله أسأل العون على العمل به بمنّه)** يسأل الله أن يوفقه على العمل بما قال وكتب، وهكذا يكون العالم الرباني، إنه لا يؤلف ويتكلم وهو على خلاف ما يقول، ولا يعمل بما يقول، فلا بد أن يكون هو أول من يعمل بما يكتب من الحق، وبما يقول، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقال ﷻ لبني إسرائيل: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة: ٤٤]؛ فمن كتب كتابًا أو تكلم بكلام من الحق يجب عليه أن يكون أول الممتثلين له، وإلا يكون ممن يقولون ما لا يفعلون؛ فيكون ممقوتًا ومبغضًا عند الله ﷻ.



* اعلم أن الله ـ سبحانه ـ هو ربّ كل شيءٍ ومالكه وإلهه؛ ....

دخل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الموضوع، وما سبق فهو مقدمة.

فقوله: (اعلم)، هذه كلمة عظيمة؛ أي: انتبه وتعلم ما سيأتي، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال: ٤٠]، **(اعلم)** كلمة عظيمة تنبه على ما سيأتي، بأن تتعلمه وتفهمه.

قوله: (أن الله ـ سبحانه ـ هو ربّ كل شيءٍ ومالكه وإلهه)، التوحيد على سبيل الإجمال قسمان:

الأول: توحيد الربوبية، وهو توحيد الله ﷻ بأفعاله؛ كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وتدبير الكون، وإنزال المطر، وكل ما يختص الله ﷻ به من الأفعال فإفراده به هو توحيد الربوبية.

ويدخل في توحيد الربوبية: الأسماء والصفات، وتوحيد الربوبية يسمى التوحيد العلمي الاعتقادي.

الثاني: توحيد الألوهية، وهو إفراد الله ﷻ بأفعال العباد التي يتقربون بها إليه مما شرعه لهم، ويخلصونها له ﷻ، ولا يشركون معه شيئًا، وتوحيد الألوهية يسمى التوحيد العملي؛ لأنه عمل من جهة العباد.

(أن الله ـ سبحانه ـ هو ربّ كل شيءٍ ومالكه وإلهه) هذا توحيد الربوية، ولا بد من الاثنين، لا بد من توحيد الربوبية والألوهية؛ فمن أقر بتوحيد الربوبية يلزمه أن يقر بتوحيد الألوهية، ومن أتى بتوحيد الألوهية فإنه متضمن لتوحيد الربوبية، هذه العلاقة بين النوعين، أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، لا يفترقان أبدًا.

والرب: يراد به المربي؛ لأن الله هو المربي لعباده بنعمه وإحسانه، وهو المربي لهم أيضًا بشرائعه وأوامره ونواهيه، فالرب بمعنى المربي، والرب أيضًا

فالرّب: مصدر ربَّ يَرُبُّ ربًّا فهو رابٌّ؛ فمعنى قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾: رابُّ العالمين؛ فإن الربّ ﷻ هو الخالق الموجد لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المتكفّل بصلاحهم من خلقٍ ورزقٍ وإصلاح دين ودنيا.

بمعنى المالك، فالملك العام لله ﷻ، لا يشاركه فيه أحد، والملك الخاص يكون للمخلوق، مثل رب الدار، رب البستان، رب الدابة؛ فيأتي مقيدًا، لا تقول للإنسان: هذا رب بإطلاق؛ بل تقول: هذا رب الدار، رب السيارة؛ أي: صاحبها ومالكها، أما إذا أطلق الرب فالمراد به الله ﷻ، فهو رب العالمين، ومن معاني الرب السيد، وهو: المالك للرقيق، فهو رب لهم، بمعنى أنه سيدهم، ومنه قول يوسف ﷺ للفتى الذي خرج من السجن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]؛ أي: عند سيدك، وهو الملك، كما ذكر الله ﷻ في هذا السياق.

قوله: (فمعنى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾: رابُّ العالمين)؛ يعني: مربيهم بالنعم، مغذيهم بالأرزاق، التربية الجسمية والجسدية، ومربيهم التربية المعنوية، وهي تربيتهم على الدين وعلى الأخلاق، هي كل خُلق جميل وحسن؛ فالله رباهم على ذلك، التربية المعنوية، هي تربية القلوب، والأولى تربية الأبدان، فهو المربي لأبدانهم، والمربي لقلوبهم.

قوله: (القائم بتربيتهم وإصلاحهم)، فهو المصلح ﷻ، والمرشد، والمعلم، وهو الخالق الرازق، وله كل معاني الربوبية ﷻ، ربوبية الملكية، وربوبية التربية البدنية، والتربية القلبية.

قوله: (المتكفّل بصلاحهم من خلقٍ ورزقٍ وإصلاح دين ودنيا)، فكل أفعال الله ﷻ من توحيد الربوبية، لا يشاركه فيها غيره، وهذا لا يكاد ينكره أحد من الخلق، كلهم يعترفون بربوبية الله ﷻ، وأنه هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لهذا الكون، ولكن إذا قيل لهم: اعبدوا الله ولا

....

تشركوا به شيئًا، استنكروا؛ لأنهم يريدون أن يعبدوا الأصنام والأحجار والأشجار والأهواء وغير ذلك مع الله، لا يريدون إفراد الله بالعبادة، ولهذا قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]، ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦﴾ [الصافات: ٣٦] لما قال لهم: **(قولوا لا إله إلا الله)**، فهم لم يختلفوا مع الرسل إلا في هذا، لم يختلفوا معه في توحيد الربوبية، وإنما اختلفوا معه في توحيد الألوهية؛ فالرسل يريدونهم أن يفردوا الله بالعبادة، وهم لا يريدون هذا، يريدون أن يشركوا مع الله أصنامهم ومعبوداتهم الكثيرة التي لا تحصى، كلٌ يريد أن ينتصر لما يعبده، ولا يترك عبادته، فصعب هذا عليهم، ولذلك بذلوا أنفسهم وأموالهم في الدفاع عن عبادة الأصنام، وقاتلوا الرسل والمسلمين عند هذا.



* والإلٰهيَّة: كون العباد يتّخذونه سبحانه محبوبًا مألوهًا، ويفردونه بالحب ....

قوله: (والإلٰهيَّة)، الألوهية من الوله، وهو المحبة، الله إلٰه بمعنى محبوب، من الوله بمعنى المحبة، أو من التأله بمعنى التعبد؛ فالله الإلٰه بمعنى المعبود، وإلٰه بمعنى محبوب، كلاهما؛ فالله إلٰه بمعنى محبوب وإلٰه بمعنى معبود.

قوله: (كون العباد يتّخذونه سبحانه محبوبًا)، محبة الله هي أعظم أنواع العبادة؛ فللعبادة أنواع كثيرة أعظمها المحبة.

قوله: (ويفردونه بالحب)، فلا يحبون معه غيره، حب العبادة؛ لأن المحبة تنقسم إلى: محبة العبادة، وهي التي يكون معها الذل والخضوع والاستسلام للمحبوب، وهذه لا تكون إلا لله ﷻ، فمن أدخل معه غيره فيها فهو مشرك، كما قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فالمشركون يحبون الله، ولكن يحبون غيره معه من أصنامهم وآلهتهم، أما المسلمون فإنهم يحبون الله وحده، ولا يحبون معه غيره محبة العبادة.

وأما المحبة الطبيعية وهي محبة القرابة والوالدين والأولاد، ومحبة الأكل والشرب، ومحبة الزوجة؛ فهذه محبة طبيعية لا يؤاخذ عليها الإنسان، إلا إذا قدَّمها على محبة الله ﷻ، ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ - أي: انتظروا - ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، وهذا تهديد لهم، فالمحبة الطبيعية لا يؤاخذ عليها، مثل محبة الزوجة، ومحبة الوالدين، ومنها محبة العطف، ومحبة الإشفاق، ومنها محبة شهوة كمحبة الزوجة ومحبة المال، وكل هذا لا يؤاخذ عليه الإنسان إلا إذا قدَّمه على محبة الله ورسوله.

والخوف والرجاء والإخبات، والتّوبة والنّذر ....

وقوله: (ويفردونه بالحب)، الذي هو حب العبادة، وهو الذي يكون معه ذل وخضوع وانقياد، وإلا فالإنسان يحب زوجته ولكن لا يخضع لها، ولا ينقاد لها؛ لأنها محبة شهوانية طبيعية ولا تضر إلا إذا قدمها على محبة الله ورسوله.

قوله: (والخوف)؛ أي: يفردونه أيضًا بالخوف، والخوف أيضًا ينقسم إلى قسمين: خوف عبادة، وخوف طبيعي، خوف العبادة: هو الذي يكون معه ذل وانقياد للمخوف، هذا خوف عبادة، أما الخوف الطبيعي: فهو الذي لا يكون معه ذل ولا خضوع؛ فأنت تخاف من السبع، ومن العدو، ومن الحَرِّ ومن البرد ومن المرض، فهذا خوف ليس معه عبادة ولا انكسار ولا ذل، وهذا لا يؤاخذ عليه الإنسان إلا إذا قدمه على الخوف من الله، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ فإذا قدم الخوف الطبيعي على خوف العبادة؛ فحينئذٍ توعده الله ﷻ، أما إذا لم يقدمه فهذا لا يؤاخذ عليه الإنسان؛ فأنت تخاف من الجبار ومن الملك ومن العدو ومن فلان وفلان، ولكن لا تخضع له وتنقاد له، وإنما تخافه خوفًا طبيعيًّا فقط.

قوله: (والرجاء) وهذا من أنواع العبادة القلبية؛ لأن العبادة نوعان: عبادة بدنية: كالصلاة والصيام والحج والجهاد. وعبادة قلبية: كالخوف والرجاء والمحبة والخشية والخشوع والرغبة والرهبة، هذه عبادات قلبية.

قوله: (والإخبات)، وهو الخضوع **(والتّوبة)**؛ أي: التوبة إلى الله من الذنوب والمعاصي؛ فالتوبة من أنواع العبادة، والله هو التّواب، والعبد تائب؛ أي: راجع إلى الله ﷻ.

قوله: (والنّذر) وهو من العبادة المالية، وقد يكون من العبادة البدنية؛ كأن تنذر الصلاة أو الصيام، فهذه عبادة بدنية، أما إذا نذرت الصدقة فهذه عبادة مالية، والنذر عبادة يجب أن يفرد الله ﷻ بها، ولا ينذر للمخلوق لا

والطّاعة، والطّلب والتّوكل ونحو هذه الاشياء.

الحي ولا الميت؛ لأن النذر عبادة فلا ينذر لغير الله ﷻ.

قوله: (والطّاعة) الطاعة تكون عبادة وتكون أيضًا مباحة، فطاعة المخلوق في الأمور المباحة مباحة، أما طاعة المخلوق في معصية الخالق فهذا شرك، قال ﷺ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ**»(١)، فلا يُطاع المخلوق في معصية الله ﷻ، إذا أمرك بمعصية لا تطعه، فإن أطعته فيكون شركًا، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]، فهذا شرك في الطاعة.

قوله: (والطّلب) الطلب فيما لا يقدر عليه إلا الله، لا تطلبه إلا من الله؛ كشفاء المرض، وجلب الرزق، وإنزال المطر وغير ذلك، أما الطلب الذي يقدر عليه المخلوق فتطلبه منه؛ كأن تطلب منه أن يعطيك، أن يقرضك، فلا بأس أن تطلب منه فيما يقدر عليه، مع أن الأفضل أن لا تسأل الناس، وإنما تسأل الله.

قوله: (والتّوكل) هو التفويض والاعتماد في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، فلا يجوز أن تتوكل على غيره، والتوكل من أعظم أنواع العبادة، وهو الاعتماد على الله وتفويض الأمور إليه سبحانه دون غيره، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

قوله: (ونحو هذه الأشياء) من أنواع العبادات؛ فالتوحيد هو إفراد الله ﷻ بجميع أنواع العبادة؛ فالعبادة حق لله بجميع أنواعها، فلا تشرك معه غيره فيها.



---

(١) مسند الإمام أحمد (١٠٩٥).

* **فإن التوحيد حقيقة: أن ترى الأمور كلها من الله تعالى ....**

قوله (فإن التوحيد حقيقة: أن ترى الأمور كلها من الله تعالى)، وهذا توحيد الربوبية، أن ترى كل ما يجري من الله سبحانه وبقضائه وقدره؛ فكل ما في السمٰوات والأرض من المخلوقات، من صنع الله ﷻ وإيجاده وتدبيره، ولم يشاركه في ذلك أحد.

ولهذا تحدى الله المشركين الذين يعبدون آلهة غير الله، أن يثبتوا أن هذه الآلهة خلقت شيئًا، أو ملكت شيئًا في السماء والأرض؛ فالله ﷻ يقول: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠]، تحداهم، وهم ما أجابوا وقالوا: خلقوا كذا وكذا، مثلًا خلقوا السمٰوات أو بعضها أو النجوم أو كذا، ما أجابوا، فدلّ على أن كل هذه المخلوقات من الله ﷻ، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من البحار والجبال والمحيطات والأشجار والأحجار، هذه الآلهة أين خلْقها؟ ما أجابوا عن شيء من ذلك ولا ادعوا أن الصنم الفلاني أو أن الولي الفلاني أو حتى الملائكة أو حتى الأنبياء والأولياء أنهم خلقوا شيئًا من هذه المخلوقات؛ فالله ﷻ أقام البرهان على وحدانيته في هذا.

وأما الأسباب إن أريد بها الأسباب التي يتخذها المشركون ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]؛ أي: وسائط وأسباب تشفع لنا عند الله؛ فهذا باطل، أبطله الله ﷻ، أما الأسباب التي جعلها الله ﷻ أسبابًا كالحركة لطلب الرزق، وطلب العلم، وجميع الأسباب التي يعملها الناس؛ يريدون من ورائها حصول مطالبهم المباحة، فهذه حقيقة وأسباب موجودة، ولكن لا يعتمد عليها في تحصيل النتائج؛ بل تتوكل على الله، فأنت تعمل الأسباب وتتوكل على الله ﷻ في حصول النتائج.

أما الوسائط التي تشارك الله، أو تشفع عنده، أو تتوسط عنده لحصول المطلوب، فهذه لا حقيقة لها، وليست موجودة، فإن الله ليس بينه وبين خلقه وسائط يتوسطون عنده في أمور عباده، أما الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ

رؤية تقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط، فلا ترى الخير والشر إلا منه تعالى، وهذا المقام يثمر التّوكل، وترك شكاية الخلق، وترك لومهم، والرضا عن الله، والتسليم لحكمه.

فهم وسائط في تبليغ الوحي؛ فالواسطة بين الله وبين خلقه إن أريد بها الرسل الذين يبلغون رسالات الله، فهذه موجودة، ومن أنكرها كفر، وأما الوسائط التي تُحصل المطالب من الله لمن يوسطهم ويستشفع بهم ويتوسل بهم فهذه باطلة، ومن أثبتها فهو كافر؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: هناك واسطة بين الله وبين خلقه من أنكرها كفر، وهناك واسطة بين الله وبين خلقه من أثبتها كفر. وله رسالة في هذا وهي (الواسطة بين الحق والخلق) على هذا التفصيل[1].

قوله: (رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط)؛ أي: الأسباب والوسائط التي يتخذها المشركون أنها تؤثر عند الله بحصول مطالب عباده، فهذه من أثبتها كفر؛ لأن الله ليس بينه وبين عباده وسائط من هذا النوع.

قوله: (فلا ترى الخير والشر إلا منه تعالى)، هذا يُبين مرادهم بالوسائط، وأنهم يقولون: إنها وسائط تسبب لنا الخير وتدفع عنا الشر. هذه هي الوسائط التي تنكر.

قوله: (وهذا المقام يثمر التّوكل، وترك شكاية الخلق، وترك لومهم، والرضا عن الله، والتسليم لحكمه)؛ أي: من شعر بهذا وأن الخير والشر والنفع والضر من الله لا دخل لأحد فيه؛ فهذا هو التوكل على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، واعتقاد أن كل الأمور بيده لا يشاركه في ذلك أحد؛ ولهذا جاء في الحديث: **«إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ،**

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٦).

*** وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الربوبية منه تعالى، والعبادة والتألّه من عباده له سبحانه، كما أن الرحمة هي الوسيلة[1] بينهم وبينه سبحانه.**

وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ»[2] فهذا من ضعف اليقين؛ فالمخلوق إذا أعطاك شيئًا فهو من الله، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فيجب أن تعتقد هذا، وأن جميع الأمور كلها من الله، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وإذا فاتك شيء فإنك لا تلوم الناس، واعلم أن الله لم يقدره لك، فلا تلم فلانًا وعلانًا؛ فتقول هو الذي منع عني وحسدني، فليس فلان منع شيئًا؛ لأنه لا يقدر أن يمنع شيئًا قد قدره الله، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: ٢]، ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨]، وفي الحديث: «**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**»[3]، هذا هو التوحيد.

من ضعف اليقين بالله أن تحمد الخلق بما أعطاك الله، وأن تذمهم فيما لم يعطك الله، فهذا من ضعف اليقين بالله ﷻ.

قوله: (وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الربوبية منه تعالى، والعبادة والتألّه من عباده له سبحانه)، هذا معنى قول العلماء: توحيد الربوبية توحيد الله بأفعاله سبحانه؛ كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير الخلق، وتوحيد الألوهية: هو توحيد الله بأفعال العباد التي يتقربون بها إليه من الدعاء، والاستغاثة، والخوف، والرجاء، والصلاة، والزكاة، وغير ذلك من الأعمال.

قوله: (كما أن الرحمة هي الوسيلة بينهم وبينه سبحانه)، الرحمة من الله صفة من صفاته ﷻ، فمن صفاته الرحمة وأثبتها لنفسه، والرحمة أنواع:

---

(١) في بعض النسخ: الوصلة.
(٢) شعب الإيمان (٢٠٣)، وحلية الأولياء (٥/ ١٠٦).
(٣) أخرجه البخاري (٨٤٤).

....

الأول: نوع عام لجميع المخلوقات الآدميين والبهائم وجميع المخلوقات، حتى الكفار تنالهم هذه الرحمة العامة.

الثاني: رحمة خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وهناك أنواع كثيرة للرحمة تصل إلى مائة رحمة، منها رحمة يتراحم بها العباد بعضهم مع بعض؛ حتى إن الدابة ترفع حافرها عن ولدها رحمة به[١]، فهذا من رحمة الله ﷻ؛ فالبهيمة تحنو على ولدها وتدافع عنه، وتغذيه، رحمة من رحمة الله ﷻ، جعلها الله في هذه البهائم، أو هذه الطيور، أو هذه المخلوقات.



---

(١) انظر: صحيح البخاري (٦٠٠٠).

❊ واعلم أن أنفس الأعمال وأجلّها قدرًا: توحيد الله تعالى، غير أن التّوحيد له قشران:

قوله: (واعلم أن أنفس الأعمال وأجلّها قدرًا: توحيد الله تعالى)؛ فالتوحيد هو أول الواجبات، وهو أعظم الأعمال، وهو الأساس الذي تُبنى عليه بقية الأعمال؛ فأعظم ما أمر الله به التوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشرك؛ فالتوحيد هو أعظم الواجبات، وأول الواجبات، وأول ما يُطلب من الإنسان، فأول ما يُطلب من الإنسان شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا نطق بهما فإنه مطالب ببقية الأعمال، من صلاة وزكاة وغيرها، ومن لم ينطق بالشهادتين فإنه لا يُطالب، حتى لو صلى وصام وتصدق فإنه لا يُقبل منه ذلك ولا ينفعه ذلك؛ حتى ينطق بكلمة التوحيد.

قوله: (غير أن التّوحيد له قشران)، ذكر المؤلف هنا أن التوحيد على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الدرجة العامة، وهو النطق بلا إلٰه إلا الله؛ فإذا نطق بها العبد صار موحدًا، ودخل في الإسلام، ثم إن حققها بالأعمال الصالحة صار موحدًا ظاهرًا وباطنًا، فإذا قالها معتقدًا لها بقلبه وصدّقها بالأعمال والطاعات، فهو موحد ظاهرًا وباطنًا، وإن قالها بلسانه ولم يعتقدها بقلبه فهو منافق، فالمنافقون يقولون: لا إلٰه إلا الله، ويتظاهرون بالإسلام، فهم مسلمون في الظاهر، ولكنهم كفار في الباطن؛ لأنهم لا يعتقدون معناها، ولا يعملون بمقتضاها، وإنما يقولونها من أجل أن يستتروا بها، ومن أجل أن تسلم دماؤهم وأموالهم، ولهذا قال ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»**[1] إن كانوا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥).

*** الأول: أن تقول بلسانك: لا إلٰه إلا الله، ويُسمّى هذا القول توحيدًا، وهو مناقض التثليث الذي يعتقده النصارى، وهذا التّوحيد يصدر أيضًا من المنافق الذي يخالف سرّه جهره.**

صادقين معتقدين لها في قلوبهم؛ فهم موحدون ظاهرًا وباطنًا، وإن كانوا يقولونها بألسنتهم ولا يعتقدونها بقلوبهم؛ فهم منافقون؛ موحدون ظاهرًا دون الباطن، ونحن ليس لنا إلا الظاهر، نحن لا نحكم إلا على الظاهر، ولا نحكم على ما في القلوب؛ لأنه لا يعلمه إلا الله ﷻ.

قوله: (قشران)، تثنية قشر، وهو ما يكون على الفواكه ونحوها من الغلاف الظاهر.

قوله: (وهو مناقض التثليث الذي يعتقده النصارى)؛ لأن من النصارى من لا يقولون: (لا إلٰه إلا الله)، وإنما يقولون: إن الله ثالث ثلاثة. فلا يقولون: إن الإلٰه واحد، وإنما يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، هم يقولون: الإلٰه ثلاثة: الله والمسيح وروح القدس. فهذا اعتقاد النصارى المنحرفين، أما النصارى الذين هم على دين عيسى عليه السلام حقيقة؛ فإنهم يتبرؤون من هذا، وإنما حدث ذلك في النصارى من بعد عيسى عليه السلام، في قرون متأخرة، لما جاء يهودي يُقال له: (بولس)؛ فتظاهر بالنصرانية ومحبة المسيح بزعمه ليفسد دين المسيح، فأدخل عليهم التثليث، هذه العقيدة الباطلة، كما أدخل عليهم تغييرات في دينهم، فما عليه غالب النصارى اليوم هو هذا الدين الباطل؛ الذي ليس هو دين المسيح عليه السلام، ولذلك لا يجوز أن يُقال: المسيحيون؛ بل يُقال: النصارى، كما هو في القرآن، ومنهم من هو محق ومنهم من هو مُبطل، فـ(لا إلٰه إلا الله) تبطل عقيدة النصارى؛ لأنهم يقولون: الآلهة ثلاثة، فهذه الكلمة تبطل أن يكون هناك إلٰه غير الله ﷻ.

❊ والقشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة ولا إنكار لمفهوم هذا القول؛ بل يشتمل القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به، وهذا هو توحيد عامة النّاس.

❊ ولُبَاب التّوحيد: أن يرى الأمور كلها لله تعالى، ثم يقطع الالتفات عن الوسائط، وأن يعبده سبحانه عبادة يُفرد بها، ولا يُعبد غيره.

قوله: (والقشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة ولا إنكار لمفهوم هذا القول؛ بل يشتمل القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به، وهذا هو توحيد عامة النّاس) هذا فيه نظر؛ لأن عامة المسلمين ليس توحيدهم قشرًا، وإنما توحيدهم توحيد صحيح، ولكنه توحيد مجمل، وهم مسلمون حقيقة، مؤمنون، ولكن لكونهم عوامًا ولم يتعلموا يكون توحيدهم مجملًا.

والثالث: توحيد أهل العلم وأهل البصيرة فهو توحيد مفصَّل؛ فالتوحيد درجات:

الأولى: توحيد المنافقين، وهو باللسان فقط.

الثانية: توحيد عوام الناس، وهذا باللسان والقلب، ولكنه مجمل.

الثالثة: توحيد مفصل، وهذا توحيد الخواص من أهل العلم.

قوله: (ولُبَاب التّوحيد) هذا القسم الثالث مقابل القشر؛ فاللباب مقابل القشر، وهذا التقسيم فيه نظر، وبعض المعلقين يقول: هذا الكلام وهذا التقسيم نقله المؤلف من «إحياء علوم الدين» للغزالي[1]، والغزالي عنده وعنده.

قوله: (ولُبَاب التّوحيد)، هو توحيد العلماء وأهل العلم والبصيرة، وهو التوحيد المفصل.

قوله: (ثم يقطع الالتفات عن الوسائط)؛ أي: الوسائط الباطلة.

قوله: (وأن يعبده سبحانه عبادة يُفرد بها، ولا يُعبد غيره)، هذا توحيد الألوهية، أن يعبدوه عبادة يفرد الله بها، ولا يعبد معه غيره، هذا هو التوحيد الحقيقي.

---

(١) (١/ ٣٣).

* ويخرجُ عن هذا التّوحيد: اتباع الهوى، فكلّ من اتّبع هواه فقد اتّخذ هواه معبوده، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وإذا تأملت عرفت أن عابد الصنم لم يعبده؛ إنما عبد هواه، وهو ميل نفسه إلى دين آبائه، فيتبع ذلك الميل، ....

قوله: (فكلّ من اتّبع هواه فقد اتّخذ هواه معبوده)، فكل من اتبع هواه فيما يخالف أمر الله ﷻ فقد عبد هواه، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]، وفي الحديث الذي ذكره النووي في الأربعين: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[1]؛ فالذي يأخذ من الشرع ما يوافق هواه ورغبته، ويترك ما يخالف هواه ورغبته؛ قد اتخذ إلهه هواه والعياذ بالله، وهذا يحدث خصوصًا في هذا الزمان، فهم يأخذون ما يوافق أهواءهم ويرضيهم، وما يخالف أهواءهم ورغباتهم ينقضونه ويتركونه.

قوله: (وإذا تأملت عرفت أن عابد الصنم لم يعبده إنما عبد هواه، وهو ميل نفسه إلى دين آبائه)؛ فعباد الأصنام يعلمون أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت ولا تدبر من الأمر شيئًا، وإنما يقولون: هذه وسائط بيننا وبين الله لقضاء حوائجنا، وإلا فنحن نعلم أنهم لا يخلقون ولا يرزقون ولا يدبرون. وهذه الأصنام لا يعبدونها لذاتها، وإنما يعبدونها على أنها ترمز لمن يعبدونهم من الملائكة، أو من الأنبياء أو من الرسل، فيجعلون أصنامًا تمثل هذه المعبودات وترمز إليها، كما فعل قوم نوح، فصوروا صورًا ترمز إلى الصالحين وعبدوهم من دون الله ﷻ بحجة أنهم يشفعون لهم عند الله،

---

(١) السُّنَّة لابن أبي عاصم (١٥).

وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يُعبّر عنها باتباع بالهوى.

والدافع إلى هذا هو الهوى، الدافع لأن يعبد الصنم هو هواه، اتبع هواه، يقال له: لا تعبد إلا الله. ولكن هواه لا يطيع ويريد أن يعبد مع الله غيره، فيتبع هواه، والمشركون اتبعوا أهواءهم، ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]، فكل المشركين اتبعوا أهواءهم، ما اتبعوا كتابًا أو سنة أو دليلًا، وإنما يتبعون ما تهواه أنفسهم، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، فكل المشركين يتبعون أهواءهم؛ لأنهم ليس لهم دليل ولا برهان على ما عبدوا من دون الله، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، البراهين والأدلة على التوحيد، وأما الشرك فليس عليه برهان، ولا دليل؛ بل هو اتباع للهوى وتقليد للآباء والأجداد فقط، فليس لديهم أي دليل؛ بل إنهم يعتمدون على حكايات، أو يعتمدون على منامات ومرائي، أو يعتمدون على ترّهات ما أنزل الله بها من سلطان، وفي النهاية يقولون: هذا ما عليه آباؤنا، إذا أُغرقوا في طلب الدليل والبرهان ولا يجدون شيئًا؛ يقولون: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤]، هذا آخر ما يقولون، فهل هذه حجج؟!.

فالذين يعبدون غير الله إما أن يعتمدوا على كذب وحكايات مكذوبة ملفقة، وإما أن يعتمدوا على مرائي، رؤي فلان وعلان في المنام وأنه فعل كذا وكذا، مرائي شيطانية، وإما أنهم يعتمدون على أحاديث مكذوبة، ويحتجون بها، ويرفضون الأحاديث الصحيحة في البخاري ومسلم وعند الأئمة، يرفضونها، ويبحثون عن الأحاديث المكذوبة ويحتجون بها، ولذلك تجد كتبهم مشحونة بمثل هذا، وفي النهاية وفي آخر المطاف ـ كما يقولون ـ يقولون: هذا ما وجدنا عليه آباءنا.

قوله: (وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى)؛ فكل من يحتج بالمألوفات وما وجد عليه آباءه فهو احتجاج بالهوى، وكل المشركين اتبعوا أهواءهم؛ لأنهم لم يعتمدوا على دليل ولا برهان؛ لا عقلي ولا سمعي ولا شرعي.

*** ويُخرج عن هذا التوحيد: السخط عن الخلق، والالتفات إليهم؛ فإن من يرى الكل من الله كيف يسخط على غيره أو يأمل سواه؟ وهذا التوحيد مقام الصديقين. ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون؛ ....**

قوله: (فإن من يرى الكل من الله كيف يسخط على غيره أو يأمل سواه)، هذا ـ كما سبق ـ أنك لا تسخط على الخلق بما لم يعطك الله، ولا تمدحهم في ما أعطاك الله، هذا هو التوحيد.

قوله: (وهذا التوحيد مقام الصديقين) توحيد الخاصة كما يقول الشيخ، وهو توحيد تفصيلي؛ لأن العلماء يدركون ما لا يدركه العوام.

قوله: (ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون)، عرفنا أن التوحيد قسمان:

توحيد الربوبية، وهذا فطري في النفوس لم ينكره أحد؛ لأنه فطري حتى المشركين الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ يعترفون بتوحيد الربوبية، ويقولون: هذه الأصنام التي نعبدها شفعاء لنا عند الله، لا أنها تعطينا من دون الله، أو أنها ترزق أو تخلق، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، يعترفون بهذا، فلماذا لا تعبدون الله وحده؟؛ هذا تناقض، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، يعترفون بهذا، ولكنهم أبوا أن يفردوا الله بالعبادة؛ بل عبدوا معه غيره، وهذا محط الخلاف بينهم وبين الأنبياء.

فتوحيد الربوبية لم يخالفوا فيه، ولكنه لا يكفي ولا يُدخل في الإسلام حتى يُضاف إليه توحيد الألوهية، والخصام بين الرسل وبين الأمم ليس في توحيد الربوبية؛ فالمشركون يعترفون به، وإنما الخصام هو في توحيد

....

الألوهية، الرسل يطلبون منهم أن يفردوا الله بالعبادة ويتركوا عبادة ما سواه، وهم يأبون ذلك، قد يقول قائل: إن فرعون أنكر توحيد الربوبية، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]. والجواب عن ذلك أن فرعون يتظاهر بإنكاره، وإلا فهو مقر به في الباطن، مقر به ومعترف به في الباطن؛ لأن العقول والفطر تهدي إليه، فهو إنما تظاهر بذلك من أجل بقاء ملكه أو أبهته أو مطامعه؛ ولهذا قال له موسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]، فهو تظاهر بإنكار الربوبية، ولكنه في الباطن معترف بها؛ ولهذا يقول جل وعلا: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، هذا الذي حملهم: وهو الظلم والعلو، ويقول جل وعلا: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]، يعتقدون في قلوبهم أنه رسول الله، ولكنهم ينكرون هذا في الظاهر، يجحدونه لأغراض لهم: حمية على دينهم ودين آبائهم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، وهذا واضح في القرآن تمام الوضوح، أن توحيد الربوبية لم ينكره أحد؛ بل أقر به المشركون، كما ذكر الله عنهم في القرآن، وإنما الإنكار والخصومة في توحيد الألوهية؛ فالرسل تطلب منهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وهم يقولون: نعبد الله ونعبد معه غيره، ولا نترك آلهتنا، ويتواصون بهذا، ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤]، لا تطيعوا نوحًا عليه السلام في عبادة الله وحده وتتركوا آلهتكم، فالخصومة بين الرسل وبين أممهم في توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية هو الذي خلق الله الخلق من أجله؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، هذا توحيد الألوهية.

بل أقرّوا بأنه سبحانه وحده خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلٰهيَّة والمحبّة، كما قد حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ....

ومع هذا فإن عقائد المتكلمين والمناطقة الآن منصبة على توحيد الربوبية، والرد على الزنادقة والملاحدة، وتوحيد الربوبية لم ينكره أحد، ولا يكفي؛ فعقائدهم مبنية على هذا، ومن يقرأ في كتبهم وعقائدهم تجدهم يركزون على توحيد الربوبية، والرد على الملاحدة، وهذا لا يكفي، حتى لو حققه ما كفى ولا أدخله في الإسلام، حتى يأتي بتوحيد الألوهية، وهذه العقائد لا تخرج عن دين المشركين، فالمشركون يقرّون بتوحيد الربوبية؛ فأتعبوا انفسهم فيما لا طائل تحته.

قال: **(بل أقرّوا بأنه سبحانه وحده خالقهم، وخالق السمٰوات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله)**، هذا مذكور في القرآن في سورة (يونس) وغيرها من السور، أن المشركين يقرون بتوحيد الربوبية.

قوله: (وإنما أنكروا توحيد الإلٰهيَّة)، فقد عاندوا وأصروا على آلهتهم، وشركهم، ولذلك حلّت دماؤهم وأموالهم، ووجب جهادهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، الموحدون أحبوا الله وحده فقط، ولم يحبوا معه غيره محبة عبادة وذل وخضوع، والمشركون يحبون الله ويحبون معه غيره، ولذلك قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ أي: المؤمنون أشد حبًّا لله من حب المشركين لله؛ لأن المشركين يحبون الله ويحبون معه غيره، فلم يخلصوا له في المحبة، أما أهل التوحيد والمسلمون فقد أفردوا الله بالمحبة، التي هي محبة العبادة، ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾؛ فالمشركون يحبون مع الله أصنامهم؛ لأنهم ما عبدوها إلا لأنهم يحبونها محبة العبادة ويقاتلون دونها أيضًا؛ فهم يحبونها.

فلما سووا غيره به في هذا التّوحيد كانوا مشركين، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]؛ **أي: يسوون به غيره. وقال الله تعالى:** ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١٥٠﴾ [الأنعام: ١٥٠].

قوله: (فلما سووا غيره به في هذا التّوحيد كانوا مشركين)؛ أي: لما سووا غير الله بالله في هذا التوحيد، توحيد المحبة والعبادة، صاروا مشركين، ولم يكونوا مشركين في توحيد الربوبية، هم مقرون بتوحيد الربوبية، وإنما شركهم في توحيد الألوهية.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]؛ فالله ﷻ هو الذي خلق السمٰوات الأرض وجعل الظلمات والنور، هذا توحيد الربوبية وهم يعترفون بهذا، ولكنهم يعدلون بالله غيره في الألوهية، ويعبدون معه غيره.

قوله تعالى: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١٥٠﴾ [الأنعام: ١٥٠]، يعدلون الله بغيره؛ بمعنى أنهم يسوون بين الله وبين غيره في العبادة؛ ولذلك يذبحون لمعبوداتهم وينذرون لها، ويركعون ويسجدون لها، ويتقربون إليها بأنواع العبادة، سواء كانت هذه المعبودات أصنامًا أو كانت أشجارًا، أو أحجارًا، أو أضرحة، أو قبورًا، فكلها سواء.



*** وقد علّم الله ﷻ عباده كيفية مُباينة الشّرك في توحيد الإلٰهيَّة، وأنه حقيق تعالى بإفراده وليًّا وحكمًا وربًّا، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فلا وليّ ولا حكم ولا ربّ إلا الله، الذي من عدل به غيره ....**

قوله: (كيفية مباينة الشّرك في توحيد الإلٰهيَّة)، مباينة؛ يعني: مخالفة، وأن توحيد الألوهية مخالف للشرك، ومُباين له، لا يجتمعان أبدًا، لا يجتمع توحيد ألوهية وشرك، الربوبية نعم قد يحصل فيها نوع من الجمع بين توحيد الربوبية والشرك، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، أما توحيد الألوهية فلا يجتمعان، ضدان لا يجتمعان: التوحيد والشرك.

قوله: (وأنه تعالى حقيق بإفراده وليًّا وحكمًا وربًّا)، (حقيق)؛ يعني: مستحق بإفراده إلهًا وربًّا وحكمًا، إلهًا: يعني: معبودًا، وربًّا: يعني: خالقًا ورازقًا، وحكمًا: يحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه، بشرعه وأمره ﷻ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤]، هذا توحيد الألوهية.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، هذا في الحكم في الاختلاف، وحل النازعات، إنما يكون بالشرع لا بالقانون ولا بالعادات القبلية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، هذا توحيد الربوبية.

قوله: (الذي من عدل به غيره)؛ يعني: سوّى به غيره، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]، ويقول أهل النار يوم القيامة: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨]، يقولون لمن عبدوهم معهم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ يعني: في الدنيا، ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ هذا هو العدل؛ يعني: التسوية بين الخالق والمخلوق.

فقد أشرك في ألوهيّته ولو وحّد ربوبيّته؛ فتوحيد الربوبيّة هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها. وتوحيد الإلٰهيَّة مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين، ولهذا كانت كلمة الإسلام: لا إلٰه إلا الله، ....

قوله: **(فقد أشرك في ألوهيّته ولو وحّد ربوبيّته)**، فتوحيد الربوبية لا يكفي، وإلا يكون كفار قريش موحدين لو كان يكفي، ولكن الرسول ﷺ طالبهم بتوحيد الألوهية، واحتج عليهم بتوحيد الربوبية.

قوله: **(فتوحيد الربوبيّة هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها)**، لم ينكره أحد، الكفار والمشركون كلهم يعترفون به.

قوله: **(وتوحيد الإلٰهيَّة مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين)**، هذا هو الذي حصل فيه الاختلاف والافتراق، وهو توحيد الألوهية، فالرسل يأمرون بتوحيد الألوهية: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ﴾ [النساء: ٣٦]، والمشركون يقولون: لا؛ لا نترك آلهتنا؛ ولهذا أبوا أن يقولوا: لا إلٰه إلا الله؛ لأن معناها إبطال آلهتهم، فهم لا يريدون تركها، فأبوا أن يقولوها، ولكن القبوريين اليوم يقولون: لا إلٰه إلا الله، ويعبدون غير الله؛ لأنهم لا يميزون هذا من هذا، فصار المشركون الأولون أعرف منهم، وأحذق منهم؛ ولذلك امتنعوا من قول لا إلٰه إلا الله؛ لأن معناها أن يتركوا معبوداتهم، أما هؤلاء فهم يقولونها ويعبدون غير الله!، يعبدون الموتى والأضرحة والقبور، فهم لا يفهمون؛ ولهذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى: لا إلٰه إلا الله».

قوله: **(ولهذا كانت كلمة الإسلام: لا إلٰه إلا الله)**، هي الكلمة التي من قالها دخل في الإسلام؛ لأنه التزم بترك عبادة غير الله، وبإفراد الله بالعبادة، هذا مضمون هذه الكلمة؛ ولذلك تسمى **(لا إلٰه إلا الله)** كلمة التوحيد، والعروة الوثقى، وكلمة التقوى، قال تعالى: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ [الفتح: ٢٦]، ولا إلٰه إلا الله مفتاح الجنة، ومفتاح دار

ولو قال: لا ربّ إلا الله، لما أجزاه عند المحققين. فتوحيد الألوهيّة هو المطلوب من العباد، ولهذا كان أصله: الإلٰه، كما هو قول سيبويه، وهو الصحيح، وهو قول جمهور أصحابه إلا من شذّ منهم.

السلام، ولا إلٰه إلا الله من قالها عند موته دخل الجنة، قال ﷺ: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(١)، وقال أيضًا: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(٢).

قوله: (ولو قال: لا ربّ إلا الله. لما أجزاه عند المحققين)، لو قال قائل: لن أقول: لا إلٰه إلا الله، ولكني أقول: لا رب إلا الله؛ فيكفي هذا؛ نقول: ما خرجت عن دين المشركين؛ فالمشركون يقولون: لا رب إلا الله؛ لأن معنى **(لا إلٰه إلا الله)** لا معبود بحق إلا الله، وليس معناها: لا رب إلا الله.

قوله: (فتوحيد الألوهيّة هو المطلوب من العباد)، أما توحيد الربوبية فهو موجود في الفطر والعقول ولم ينكروه؛ لكنه لا يكفي للدخول في الإسلام.

قوله: (ولهذا كان أصله: الإلٰه)، والإلٰه معناه المعبود، المحبوب؛ فالله هو الإلٰه، وهو مشتق من آله يأله إلاهة وألوهة، فهو مشتق من الوله، بينما فريق من أهل اللغة يقول: إنه اسم جامد، ولكن الصحيح أنه مشتق من الألوهية، وهي المحبة والعبادة.

قوله: (كما هو قول سيبويه)، وهو إمام اللغة والنحو.

قوله: (وهو قول جمهور أصحابه)؛ أي: أصحاب سيبويه.



---

(١) أخرجه مسلم (٩١٦).
(٢) أخرجه أبو داود (٣١١٨).

❊ وبهذا الاعتبار الذي قرّرنا به الإلٰه وأنه المحبوب؛ لاجتماع صفات الكمال فيه، كان الله: هو الاسم الجامع لجميع المعاني للأسماء الحسنى والصفات العليا، وهو الذي ينكره المشركون.

لفظ الجلالة (الله) لا يُسمّى به غير الله ﷻ، وهو يتضمن كل أسماء الله وصفاته، فهو الله ﷻ بأسمائه وصفاته كلها، ولهذا في آخر سورة (الحشر): ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤]، والله مشتق من الألوهية، وهي المحبة؛ فالله هو المألوه المحبوب الذي تألهه القلوب محبة وإجلالًا، كما قرر ذلك أهل العلم؛ فالألوهية والتأله لله ﷻ، والتأله يكون من المخلوق، الذي يتأله الله؛ أي: يعبده ويحبه، وهذا هو توحيد الألوهية.

قوله: (وهو الذي ينكره المشركون)؛ فالذي ينكره المشركون هو توحيد الألوهية كما سيأتي، وأما توحيد الربوبية فإنهم يعترفون به، ولكنه لا يكفي، ولا يكون به العبد مسلمًا حتى يأتي بتوحيد الألوهية، وذلك بأن يفرد الله ﷻ بالعبادة دون ما سواه؛ فالمشركون ما أنكروا توحيد الربوبية؛ بل أقروا به، كما ذكر الله ذلك عنهم في آيات كثيرة، وأنهم لو سُئلوا من الذي خلقهم، ومن الذي يرزقهم، ومن الذي له ملك السمٰوات والأرض؟ سيقولون: الله، يعترفون بهذا، ولكنهم أنكروا توحيد الألوهية؛ أي: أن تحصر العبادة في الله، فهم يريدون أن يعبدوا ما شاءوا من الأصنام والأحجار والأشجار والأموات والمخلوقين، فهم إنما أنكروا توحيد الألوهية، ولهذا بعث الله الرسل كلهم يدعون إلى توحيد الألوهية، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فكل نبي يقول لقومه:

....

﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، لم يقولوا لهم: أقروا بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر، لم يقولوا لهم هذا؛ بل قالوا: اعبدوا الله، فهم جاءوا بالدعوة إلى إفراد الله ﷻ بالعبادة، وهم لا يريدون ذلك، لا يريدون أن تكون العبادة محصورة في الله؛ بل يعبدون الله ويعبدون معه غيره؛ ولهذا ذكر الله عنهم: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ۝٣٦﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، فهم لا يريدون أن تكون العبادة محصورة في الله؛ بل تكون مشتركة بينه وبين غيره. وقوم نوح لما قال لهم نوح: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ۝٢٣﴾ [نوح: ٢٣].

فالخلاف بين الرسل وبين أممهم إنما هو في توحيد الألوهية، فهذا هو الذي أنكروه، وهذا هو الذي طُلب منهم، فلم يستجيبوا، وهذه حقيقة ظاهرة في القرآن الكريم، فالتوحيد المطلوب هو توحيد الألوهية، وليس هو توحيد الربوبية فقط؛ لأن هذا موجود في الناس، وإذا كان هذا هو المطلوب فلا حاجة إلى بعثة الرسل، لأنه موجود في الناس، ولا ينكرونه؛ وهناك من يركز قديمًا وحديثًا على توحيد الربوبية، ويقيموا الأدلة على توحيد الربوبية، كما هو موجود في عقائد المتكلمين، فهي تركز على توحيد الربوبية وإقامة البراهين على توحيد الربوبية، وهذا تحصيل حاصل لا طائل تحته، ولم ينكره أحد، وإنما الكلام في توحيد الألوهية؛ ولذلك علماء أهل السُّنَّة والجماعة يركزون ويؤلفون في توحيد الألوهية لأنه هو المطلوب.



*** ويحتج الربّ ﷻ عليهم بتوحيدهم ربوبيّته على توحيد ألوهيّته، كما قال الله تعالى:** ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٠]**، وكلما ذكر تعالى من آياته جملة من الجمل قال عقيبها:** ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾**؟.**

*** فأبان ﷻ بذلك أن المشركين إنما كانوا يتوقفون في إثبات توحيد الإلٰهيَّة لا الربوبيّة، ....**

قوله: (ويحتج الربّ ﷻ عليهم بتوحيدهم ربوبيّته على توحيد ألوهيّته)، الله ﷻ يذكر توحيد الربوبية الذي يقرون به، ليحتج به عليهم في إثبات توحيد الألوهية فيقول: ما دام أنه ربكم فلماذا تعبدون غيره، وتؤلهون غيره؟ فهذا من باب الاحتجاج عليهم، الاحتجاج على ما أنكروه بما أقروا به، وهو من باب الإلزام لهم، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، **(أَنْدَادًا)**؛ أي: شركاء تعبدونهم من دون الله؛ أي: شركاء في توحيد الألوهية، وأنتم تعلمون أنه لا يستحق العبادة إلا من هذه أفعاله، ومخلوقاته، فهذا من باب الإلزام لهم والاحتجاج عليهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٠]، يذكر ـ سبحانه ـ توحيد الربوبية: في الخلق، والرزق، وإنزال المطر،

على أن منهم من أشرك في الربوبيّة ....

وإنبات النبات، ثم يقول: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ينكر عليهم أنهم جعلوا مع الله آلهة أخرى في العبادة فيقول: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٣]؛ فالأمر واضح في هذا لا ينكره إلا مكابر.

والذين يقولون: إن المطلوب هو توحيد الربوبية هؤلاء ما جاءوا بشيء، هذا شيء موجود مُعترف به كل الخلق، وهو تعب بلا فائدة؛ لأنه موجود ومتقرر في العقول والفطر، إنما مدار الأخذ والرد هو توحيد الألوهية، وهذا هو الذي شُرع الجهاد من أجله، أن من جحده وعاند فإنه يُقاتَل، وكانت الأمم السابقة الماضية الغابرة من استمر على الشرك في توحيد الألوهية وأبى أن يستجيب للرسل يأخذهم الله جميعًا، عقوبة لهم، كما فعل بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وكما فعل بالأمم السابقة، يأخذهم الله جميعًا بعقوبة واحدة، وينجي المؤمنين الذين استجابوا وأفردوا الله ﷻ بالعبادة، ثم إن الله ﷻ بعد ذلك رفع العقوبة العامة المستأصلة وأحل محلها الجهاد في سبيل الله وقتال المشركين، منذ عهد موسى ﵇، فالجهاد موجود في عهد موسى، وفي عهد من جاء بعده من أنبياء بني إسرائيل، فقد قالوا لنبي لهم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] إلى قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وهو ملك الكفرة.

فالجهاد موجود في الأمم السابقة منذ عهد موسى ﵇ إلى يوم القيامة، وهو جهاد على توحيد الألوهية، لا على توحيد الربوبية.

قوله: (على أن منهم من أشرك في الربوبيّة)، وهم قليلون، وإنما أشركوا به في الظاهر دون الباطن، فهم معترفون في قرارة أنفسهم بأن الله هو الرب وحده، الخالق، الرازق، المحيي، المميت، يعترفون بهذا في قرارة أنفسهم، وإن تظاهروا في إنكاره: إما عنادًا وإما تكبرًا وإما طمعًا في الرياسة والملك، فإنهم معترفون به في فطرهم، وعقولهم.

كما يأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالى. وبالجملة فهو ﷻ يحتج على منكري الإلٰهيَّة بإثباتهم الربوبيّة.

قوله: **(وبالجملة فهو تعالى يحتج على منكري الإلٰهيَّة بإثباتهم الربوبيّة)**، يحتج عليهم بإنكارهم توحيد الإلٰهية بإقرارهم بتوحيد الربوبية، فما دام أنكم تعترفون أنه هو الرب وحده، الخالق، الرازق، المدبر، فلماذا لا تفردونه في العبادة، وتشركون به من لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر شيئًا من أمور الكون.



*** والْمَلِكُ: هو الآمر الناهي الذي لا يخلق خلقًا بمقتضى ربوبيّته ويتركهم سدى معطلين ....**

الله ﷻ من أسمائه الرب، فهو الذي يربي عباده بنعمه، ويغذيهم بنعمه، هذا هو الرب، ومن أسمائه (الملك)، و(الملك): هو الذي يأمر وينهى، ويُشرّع لعباده، والأوامر والنواهي ترجع إلى اسمه (الملك).

قوله: **(الذي لا يخلق خلقًا بمقتضى ربوبيّته ويتركهم سدى معطلين ...)**، فمن مصلحتهم أن يأمرهم بما ينفعهم، وينهاهم عما يضرهم، ولا يتركهم سدى لا يؤمرون ولا ينهون، هذا يتنافى مع حكمته سبحانه، ومع رحمته بعباده، أنه لا يتركهم دون أن يشرع لهم ما ينفعهم، وينهاهم عما يضرهم، ويجعل لهم جزاء يوم القيامة، يجازي به المؤمنين بالجنة، ويعاقب الكفار بالنار، لا يليق به سبحانه أن يُضيع خلقه، وأن يسوي بين المؤمن والكافر، وبين المطيع والعاصي، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

خلق الله السمٰوات والأرض بالحق، ما خلق الله السمٰوات عبثًا، وإنما خلقها بالحق، دالّة على وجوب عبادته ﷻ، وهذا موجود في القرآن أن الله لا يليق بعدله وحكمته أن يسوي بين الكفار والمؤمنين أبدًا، ولا بين الفجار والأبرار، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٧، ٢٨]، هذا لا يليق بعدل الله وحكمته ﷻ، ففرّق سبحانه بين المؤمن والكافر، والمؤمن والمنافق، والمطيع والعاصي، ومن لا يفرق بينهم فليس له عقل، ولا دين، يقولون: الإنسانية، كلهم بنو آدم، وكلهم سواء!. كلهم سواء في الخلقة، أما في الدين فلا، فليس كلهم سواء، فمنهم مؤمن ومنهم كافر، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ فالله فرق بينهم، ولا يُقال: كلهم من بني آدم،

لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؛ فإن الملك هو الآمر الناهي، المعطي المانع، الضار النافع، المثيب المعاقب. ولذلك جاءت الاستعاذة في سورة الناس وسورة الفلق بالأسماء الحسنى الثلاثة: ....

وكلهم أناس، والإنسانية، وما أشبه ذلك من الأقوال الباطلة التي ينادى بها اليوم، لا بد أن يفرّق بين المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، والمنافق والفاجر، وينزل الناس منازلهم؛ لا بد من الفرقان بين الحق والباطل.

قوله: **(لا يؤمرون ولا ينهون)**؛ لأنهم لا يعرفون مصالحهم، ولا يدركونها بالتفصيل، وإنما يدركونها جملة، ولا يدركونها بالتفصيل؛ فكان لا بد أن الله ﷻ يأمرهم بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وينهاهم عما فيه مضرتهم وفسادهم، وهذا من رحمته ﷻ بهم وحفظه لهم، وعنايته بهم.

قوله: **(ولا يثابون ولا يعاقبون)** فيقال كلهم سواء عند الله!، حاشا وكلا أن يسوّى بين المؤمن والكافر، وبين المطيع والعاصي، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾ [السجدة: ١٨ ـ ٢٠]؛ فالله فَرَقَ بينهم ﷻ، كما أنهم افترقوا في العمل فَرَقَ بينهم في الجزاء، وهذا عدله ﷻ.

قوله: **(ولذلك جاءت الاستعاذة في سورة الناس وسورة الفلق بالأسماء الحسنى الثلاثة: الرَّبُّ، والْمَلِكُ، والإلٰهُ)**، في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: ١]، وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١ ـ ٣]، **(رب الناس)** معناه الخالق الرازق المحيي المدبر، **(ملك الناس)** معناه الآمر الناهي المشرّع، **(إله الناس)** معناه الذي يستحق العبادة وحده ﷻ، فهذا فيه إثبات أنواع التوحيد الثلاثة في سورة **(الناس)**، كما أن سورة (الفاتحة) فيها أنواع التوحيد الثلاثة في أولها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٥]، ففيها أنواع التوحيد

(الرَّبُّ، والْمَلِكُ، والإلٰهُ)، فإنه لما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١] **كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم، فبقي أن يُقال: لَمّا خلقهم هل كلّفهم وأمرهم ونهاهم؟، قيل: نعم، فجاء:** ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [الناس: ٢]، **فأثبت الخلق والأمر:** ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، **فلما قيل ذلك، قيل: فإذا كان ربًّا موجدًا، وملكًا مكلفًا، فهل يُحَب ويرغب إليه، ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر، قيل:** ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾؛ **أي: مألوههم ومحبوبهم، الذي لا يتوجّه العبد المخلوق المكلّف العابد إلا له، فجاءت الإلٰهيَّة خاتمة وغاية، وما قبلها كالتوطئة لها.**

*** وهاتان السورتان أعظم عوذة في القرآن، ....**

الثلاثة، ولكن عُمي القلوب والملاحدة يقولون: لا، إنما التوحيد نوع واحد، توحيد الربوبية فقط، فليس هناك توحيد غير توحيد الربوبية.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ فالذي خلق هو الذي يأمر، وينهى.

قوله: (الرَّبُّ، والْمَلِكُ، والإلٰهُ)، فرق بين الأسماء الثلاثة، فكل اسم له معنى، وليست بمعنى واحد كما يقوله من لا علم عنده، أو من يعاند ويغالط، فكل اسم من هذه الأسماء له معنى مستقل، وإلا كانت مكررة.

قوله: (وما قبلها كالتوطئة لها) ما قبلها هو توحيد الربوبية في الرب والملك، هذا توحيد الربوبية، أما إلٰه الناس فهذا توحيد الألوهية، إلٰه الناس كلهم، كل الناس إلههم واحد: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣].

قوله: (وهاتان السورتان أعظم عوذة في القرآن)؛ أي: أعظم ما يتعوذ به العبد من المحاذير.

وجاءت الاستعاذة بهما وقت الحاجة إلى ذلك، وهو حين سُحر النبي ﷺ، وخيّل إليه أنه يفعل الشيء ﷺ وما فعله، وأقام على ذلك أربعين يومًا، كما في الصحيح[١]، ....

قوله: (وجاءت الاستعاذة بهما وقت الحاجة إلى ذلك، وهو حين سُحر النبي ﷺ)، ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ سُحر[٢]، من الذي سحره؟ سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، فأثَّر ذلك فيه ﷺ، كما تؤثر فيه الأمراض، والأنبياء يمرضون ويموتون، ومنهم من يُقتل، يصيبهم ما يصيب البشر، فإصابة السحر نوع من المرض الذي يُصاب به، لم يصب ـ عليه الصلاة والسلام ـ في رسالته، فهو معصوم في رسالته فيما يبلغ عن الله ﷻ، إنما أصيب في جسمه، وهو يصاب في جسمه بالأمراض والجراح وغير ذلك؛ لأنه بشر عليه الصلاة والسلام.

وهناك من المعتزلة وأشباههم من ينكر أن النبي ﷺ سُحر، ويقول: هذا حديث آحاد، على قاعدتهم: أن أحاديث الآحاد لا تفيد العلم، وإنما تفيد الظن. فهو لا يحتج به عندهم؛ لأنهم لا يحتجون بأحاديث الآحاد وإن صحت، لا يحتجون بها في العقيدة؛ لأنها عندهم تفيد الظن، أما عند أهل السُّنَّة والجماعة فإنها يُحتج بها في العقيدة وفي غيرها، وهي تفيد العلم، إذا صحت عن الرسول ﷺ ومن ذلك حديث أنه سُحر، فهذا حديث صحيح، ولا شبهة فيه في أنه أصيب في جسمه؛ لا فيما يبلغ عن الله ﷻ؛ لأنه معصوم، وإنما أصيب في جسمه وبدنه كما يُصاب بالمرض وغيره، فلا تنافي بين كونه معصومًا وبين كونه سُحر، وإلا كان على كلامهم لا يصيبه المرض، ولا يموت، وهذا باطل، ولكنهم يعتمدون على عقولهم فقط، ولا يعتمدون على كتاب الله وسُنَّة رسوله.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٨).

وكانت عقد السّحر إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله المعوّذتين إحدى عشرة آية، فانحلّت بكلّ آيةٍ عقدةٍ.

فجاءه جبريل لما سحر ورقاه بالمعوذتين، فشفاه الله، وأخبره عن موضع السحر، وأنه مخفي في مكان كذا وكذا، فبعث إليه عليًّا والزبير وعمارًا رضي الله عنهم فاستخرجوه من مكانه المخفي فيه وأتلفوه، وشفاه الله تعالى[(١)].

قوله: **(وكانت عقد السّحر إحدى عشرة عقدة)**؛ فالساحر يعقد العقد بالخيط ونحوه، وينفث فيها من ريقه الخبيث، ويستعين بالشياطين، ويتكون السحر؛ لهذا جاء في سورة (الفلق): ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾؛ أي: السواحر، ﴿فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤﴾؛ أي: العقد التي في الخيوط.



(١) انظر: تفسير سورة الفلق لابن كثير والقرطبي.

* وتعلقت الاستعاذة في أوائل القرآن باسم الإلٰه[١] الكامل، ذي الأسماء الحسنى والصفات العليا، المرغوب إليه في أن يعيذ عبده الذي يناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربّه. ثم استحب[٢] التعلق باسم الإلٰه في جميع المواطن التي يقال فيها: أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم؛ لأن اسم الله تعالى هو الغاية للأسماء؛ ولهذا كل اسم بعده لا يتعرف إلا به، فتقول: الله هو السّلام، المؤمن، المهيمن؛

قوله: (وتعلقت الاستعاذة في أوائل القرآن باسمه: «الإلٰه»)، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]، ولم يقل: استعذ بالرب؛ بل قال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾؛ لأن الاستعاذة عبادة، فهي من أنواع توحيد الألوهية، فإذا قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقد استعاذ بالله ﷻ.

قوله: (في أن يعيذ عبده الذي يناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربّه)، الاستعاذة بالله من الشيطان، وهو المارد من الجن، وكذلك المارد من الدواب يُقال لها: شيطانة، وكذا المارد من بني آدم أيضًا يُقال له: شيطان.

وفي حديث أبي ذر ﷺ قال: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فيه، فَجِئْتُ فَجَلَسْتُ إليه، فقال: «**يا أَبَا ذَرٍّ تَعَوَّذْ بِاللهِ من شَرِّ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ**»[٣]؛ فالإنس لهم شياطين وهم المردة من بني آدم، كما أن الجن لهم شياطين، وكما أن الدواب فيها شياطين، فكل مارد فإنه يُقال له شيطان، من بني آدم، أو من الجن، أو من الدواب، ولا يحميك منها إلا أن تستعيذ بالله من كل شيطان.

---

(١) جاء في نسخة (ت: العمران): في أوائل القرآن باسمه (الإلٰه) وهو المعبود وحده؛ لاجتماع صفات الكمال فيه، ومناجاة العبد لهذا الإلٰه الكامل ذي الأسماء الحسنى.

(٢) جاء في نسخة (ت: العمران): ثم انسحب التعلق.

(٣) أخرجه النسائي (٥٥٠٧).

فالجلالة تعرّف غيرها، وغيرها لا يعرّفها. والذين أشركوا به تعالى في الربوبيّة منهم من أثبت معه خالقًا آخر، وإن لم يقولوا: إنه إلٰه مكافئ له، وهم المشركون ومن ضاهاهم من القدريّة.

قوله: **(فالجلالة تعرّف غيرها، وغيرها لا يعرفها)**، فكل أسماء الله وصفاته ترجع إلى الله، وهو الاسم الأعظم، وهذا الاسم لا يُسمى به غير الله، ولا أحد تسمى به، حتى فرعون لم يقل: أنا الله؛ بل قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ولم يقل: أنا الله، ولا أحد في الخلق مؤمنهم وكافرهم يسمى الله، أبدًا.

قوله: **(والذين أشركوا به تعالى في الربوبيّة منهم من أثبت معه خالقًا آخر)**، هذا جواب كلامه السابق بأنه سيأتي حين قال: **(على أن منهم من أشرك في الربوبيّة كما يأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالى)**(١)؛ يعني: منهم من أشرك به في الخلق؛ كالمجوس الذين جعلوا خالقين: خالق للنور، وخالق للظلمة، أو خالق للشر، وخالق للخير، وهذا عند المجوس الثانوية.

قوله: **(وإن لم يقولوا: إنه إلٰه مكافئ له)**؛ لأن حتى المجوس ما يثبتون خالقين متساويين؛ بل يثبتون أحدهما أكمل من الآخر، خالق الخير عندهم أكمل من خالق الشر، خالق النور أكمل من خالق الظلمة، فـ**(مكافئ)**؛ يعني: مساوي.

قوله: **(وهم المشركون ومن ضاهاهم من القدريّة)**، القدرية المراد بهم المعتزلة، وهم الذين يقولون: إن الله لم يقدر أفعال العباد ولم يخلقها، وإنما العبد هو الذي يخلق فعل نفسه، فهم شر من المجوس؛ فالمجوس أثبتوا خالقين فقط، أما هؤلاء فقد أثبتوا خالقين متعددين، قالوا: كل إنسان يخلق فعل نفسه، فهذه مجوسية؛ ولذلك سماهم الرسول ﷺ في الحديث الوارد في

---

(١) انظر: (ص٤٣).

*** وربوبيّته سبحانه للعالم الكاملة المطلقة تبطل أقوالهم؛ لأنها تقتضي ربوبيّته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال. وحقيقة قول القدرية المجوسية: أنه تعالى ليس ربًّا لأفعال الحيوان ولا تتناوله ربوبيّته، إذ كيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه.**

قوله: «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ**»[1]؛ لأنهم يشبهون المجوس.

قوله: (وربوبيّته سبحانه للعالم الربوبيّة الكاملة المطلقة الشاملة تبطل أقوالهم)، ربوبيته سبحانه العامة المطلقة تبطل قول المجوس وقول المعتزلة وغيرهم من أن هناك خالقين مع الله ﷻ، فهو الخالق وحده، ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١].

قوله: (وحقيقة قول القدرية المجوسية: أنه تعالى ليس ربًّا لأفعال الحيوان) يقولون: ما خلق أفعال الحيوان؛ أي: الناس، ما خلقها ولا قدرها. تعالى الله عما يقولون، معنى هذا أن له شريكًا في الخلق؟!. فالقدرية على نوعين: القدرية الجبرية، والقدرية النفاة. وإذا أطلق القدرية انصرف إلى النفاة؛ أي: المعتزلة.

قوله: (ولا تتناولها ربوبيّته، إذ كيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه)، والله يقول: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٦٢]، لا يشاركه أحد في الخلق ولا في الإيجاد، فهو المنفرد بذلك، فهو خلق الخير وخلق الشر، وخلق المؤمن وخلق الكافر، وخلق الملائكة وخلق الشياطين، وخلق الجن وخلق الإنس، فالله خالق كل شيء ﷻ، ولا يخلق شيئًا إلا لحكمة، لا يخلق شيئًا عبثًا.



---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٣).

*** وشرك الأمم كله نوعان: شرك في الإلٰهيَّة، وشرك في الربوبيّة.**

*** فالشرك في الإلٰهيَّة والعبادة: هو الغالب على أهل الإشراك، وهو شرك عُبّاد الأصنام، وعُبّاد الملائكة، وعُبّاد الجن، وعُبّاد المشايخ والصالحين الأحياء والأموات، الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ويشفعوا لنا عنده، وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم: قرب وكرامة، ....**

(وشرك الأمم كله نوعان) الشرك ضد التوحيد، وهو نوعان:

شرك في الربوبية بأن يُجعل لله شريكٌ في أفعاله من الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وغير ذلك.

وشرك في الألوهية، وهو أن يُجعل لله شريك في العبادة، يذبح لغير الله، ينذر لغير الله، يُستغاث بالقبور والأموات، وهذا شرك في الألوهية.

قوله: (فالشرك في الإلٰهيَّة والعبادة: هو الغالب على أهل الإشراك)، كما سبق؛ فإن أغلب الخلق إنما أشركوا في الألوهية؛ ولذلك بعث الله الرسل وأنزل الكتب للأمر بتوحيد الألوهية والنهي عن الإشراك فيه؛ لأن توحيد الربوبية فُطرت القلوب على الإقرار به، حتى وإن تظاهر بجحوده بعض الأفراد؛ فإن الفِطر مُقرة به؛ فالفطر والعقول مقرة بتوحيد الربوبية.

قوله: (وهو شرك عبّاد الأصنام، وعبّاد الملائكة، وعبّاد الجن، وعبّاد المشايخ والصالحين الأحياء والأموات)، الشرك في الألوهية متعدد الأنواع، والمشركون متفرقون في عباداتهم؛ لأنهم لما ضيعوا التوحيد وقعوا في متاهات، كل يخترع له معبودًا يعبده ولا يرضى بمعبود الآخر، فمنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الرسل والأنبياء، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار والأصنام، حتى أن منهم من يعبد البقر كما في الهند، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الشيطان، ومنهم من يعبد الفروج، إلى غير ذلك والعياذ بالله، كما قال الله ﷻ:

....

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]؛ أي: بعيد، ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأن التوحيد: ارتفاع وعلو، والشرك: هبوط ونزول، ولهذا قال يوسف عليه السلام لأصحاب السجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠]، فهم ليس عندهم براهين وأدلة على الشرك إلا شبهات؛ فالبراهين والأدلة إنما هي على التوحيد؛ وذلك تحداهم الله وقال: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١]، فليس عندهم برهان إلا شبهات وحكايات وما أشبه ذلك، فالمشركون متفرقون في عباداتهم، بخلاف الموحدين، فإنهم يعبدون ربًا واحدًا وإلهًا واحدًا، لا يختلفون فيه.

ولا فرق بين من عبد الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين، ومن عبد القبور والأضرحة وتعلّق بالأموات؛ لا فرق بينهم، كل هذا شرك.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فهم أقروا أنهم يعبدونهم، ويذبحون لهم، وينذرون لهم، ويستغيثون بهم، ويفعلون لهم أنواع العبادات، وهم اعترفوا بذلك، ولكن لا لأنهم يخلقون ويرزقون ولكن لأجل أن يقربونا إلى الله زلفى، أي: يشفعون لنا عند الله، وفي الآية الأخرى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: ١٨]؛ أي: يتوسطون لنا عند الله، يتخذونهم وسائط بينهم وبين الله، وهل الله جل جلاله بحاجة إلى هذه الوسائط؟!، وأنه لا يجيب دعاءهم إلا بواسطة، من قال هذا؟! الله أمر بدعائه مباشرة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ [غافر: ٦٠]، ولم يقل: ادعوني بواسطة فلان أو علان، أو اتخذوا الوسائط إليّ، أما قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فالمراد

كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفى لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته.

بالوسيلة العبادة، سميت وسيلة؛ لأنها يُتقرب بها إلى الله، والوسيلة ما يُتقرب به إلى الشيء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] يعني: بطاعته وعبادة، هذه هي الوسيلة، وليست الوسيلة أن تتخذ بينك وبين الله واسطة، هذا أبطله الله ﷻ، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾؛ يعني: عيسى وأمه وعزيرًا؛ أي: الذين يدعوهم المشركون، ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]، هم أنفسهم يتقربون إلى الله بالوسيلة، وهي العبادة، ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فكيف يعبدون مع الله وهذه حالهم، أنهم هم يتقربون إلى الله، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾، فهذا يدل على أنهم عباد، وأنهم يعبدون الله، وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، فهم عباد، فكيف يتخذون آلهة ووسائط عند الله ﷻ.

قوله: (كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفى لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته)، فشبهوا الله ﷻ بالملوك الذين يتوصل إليهم بالوسائط والوزراء؛ لأن الملوك لا يعلمون أحوال الناس، فهم بحاجة إلى من يبلغهم، ولا يعرفون أيضًا حاجة الشخص، فهم يعرفون الملوك بحاجة الرعية وحالتهم؛ فالملوك بحاجة إلى الوسطاء والوزراء؛ لأنهم لا يعرفون أحوال الناس، ولا يعلمون الغيب، وأيضًا الملوك لا بد من أحد يؤثر عليهم؛ لأجل أن يجيبوا من طلب منهم حاجة، لا بد من أحد يؤثر عليهم، ويرقق قلوبهم ويُعطفهم على المحتاجين، أما الله ﷻ فإنه رحيم ودود قريب مجيب، وليس بحاجة إلى أن يؤثر عليه أحد، أو يستعطفه أحد، تعالى الله عن ذلك، فهو ليس بحاجة كالملوك الذين يحتاجون إلى الوزراء؛ فالملوك يضطرون إلى قبول شفاعة الشافعين لأنهم بحاجة إليهم يخدمونهم ويقومون بأوامرهم، فهم يطيعونهم ويقبلون شفاعتهم من أجل أن يقوموا بخدمتهم وإعانتهم على

*** والكتب الإلٰهيَّة كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب وتردّه، وتقبّح أهله، وتنص على أنهم أعداء الله، وجميع الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ متفقون على ذلك، من أولهم إلى آخرهم، وما أهلك الله تعالى مَنْ أهلك من الأمم إلا بسبب هذا الشرك، ومن أجله.**

ملكهم، أما الله فإنه غني وليس بحاجة إلى أحد، فهناك فروق بين الرب وبين الملوك؛ فإذا كانت الوسائط والشفعاء ينفعون عند الملوك فهم لا ينفعون عند الله ﷻ، ولا ينفعك إلا عملك، ولا يضرك إلا عملك، فعليك أن تعتني بعملك الذي يقربك إلى الله ﷻ.

قوله: (والكتب الإلٰهيَّة كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب وتردّه)، الكتب الإلٰهية المنزلة من عند الله كالتوراة، والإنجيل، وكل ما نزل على الرسل فإنه يبطل الشرك بالألوهية، ويأمر بعبادة الله وحده، كما ذكر الله ذلك عن الرسل، أن كل رسول يقول لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، فهم هذه مهماتهم، كلهم جاءوا بالأمر بعبادة الله، وترك عبادة ما سواه.

قوله: (وجميع الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ متفقون على ذلك، من أولهم إلى آخرهم)، فكلهم متفقون على الأمر بتوحيد الألوهية، والنهي عن الشرك فيه، ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، هذا ما دعت إليه الرسل كلهم.

قوله: (وما أهلك الله تعالى مَنْ أهلك من الأمم إلا بسبب هذا الشرك، ومن أجله)، لما أبوا أن يستجيبوا للرسل، وأصروا على الشرك أهلكهم الله عن آخرهم، كما حصل لقوم نوح، وقوم عاد، وثمود، وغيرهم من الأمم التي أبت أن تفرد الله بالعبادة، كما حصل لقريش لما عصوا واستمروا على

....

الشرك، الله ﷻ أهلكهم بواسطة الجهاد، وبسيوف الصحابة الذين أمرهم الله بجهادهم، فقتلوا على كفرهم وعلى شركهم وعنادهم، كما حصل في بدر وفي غيرها من انتصارات المسلمين، وكما حصل من الفتوحات في المشارق والمغارب، وإسقاط الدول الكافرة كفارس والروم، فالله عاقبهم وسلب ملكهم، وشتت دولتهم، وأورثها للموحدين، فهذا شيء واضح في القرآن، وفي التاريخ والسير.



*** وأصله: الشرك في محبّة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾** [البقرة: ١٦٥]؛ **فأخبر ﷻ أنه من أحبَّ مع الله شيئًا غيره كما يحبّه فقد اتّخذه ندًّا من دونه.** ....

قوله: (**وأصله: الشرك في محبّة الله**)، أعظم أنواع التوحيد المحبة؛ لأنه من توحيد العبادة، والعبادة أنواع: أعظمها المحبة، فالمحبة أعظم أنواع التوحيد، وكل العبادات فإنها مرتبطة بالمحبة، فالذين لا يحبون الله لا يعبدونه، والذين عبدوه ما عبدوه إلا لأنهم يحبونه:

فمنهم من أفرد الله بالمحبة، وهم أهل التوحيد، وأهل الإيمان.

ومنهم من أحب الله وأحب غيره؛ كالمشركين، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فالمشركون يحبون الله، ولكن محبتهم غير خالصة، فيها شرك، أما المؤمنون فيحبون الله ومحبتهم خالصة؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من محبة المشركين لله؛ لأن المؤمنين أخلصوا محبة الله، فلا يحبون معه غيره، بخلاف المشركين فإنهم أحبوا الله فعبدوه بأنواع من العبادة، وأحبوا غيره من الأصنام والأشجار فعبدوها بأنواع من العبادات، كل هذا راجع للمحبة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ الأنداد: الأصنام، وكل ما عُبد من دون الله فهو ند لله، بمعنى أنه مساوٍ لله؛ فالند هو المساوي والشريك، فهم سوّوهم بالله ﷻ، وجعلوهم أندادًا لله؛ أي: مساويين له، فعبدوهم مع الله سبحانه؛ ولهذا يقولون إذا دخلوا النار يوم القيامة لمعبوديهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ - ١٠٢]، يتمنون لو أنهم يرجعون إلى الدنيا فيخلصوا العبادة لله ﷻ، ولكن هيهات الرجوع إلى الدنيا.

وهذا على أصح القولين في الآية: أنهم يحبونهم كما يحبون الله، وهذا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]، **والمعنى على أصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة؛ فيسوون بينه وبين غيره في الحبّ والعبادة. وكذلك قول المشركين في النار لأصنامهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾** [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، ....

قوله: (**وهذا على أصح القولين في الآية**)، فهناك قول آخر في تفسير الآية وهي قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ أي: يحبون أصنامهم كما يحب الموحدون الله ﷻ، والذين آمنوا أشد حبًّا لله من محبة المشركين لأصنامهم، هذا قول في الآية، وذلك في قوله: (**أنهم يحبونهم كما يحبون الله**)، هذا المعنى الأول وهو أصح القولين.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]؛ أي: يسوون به غيره ممن لم يخلق شيئًا من السموات ولا من الأرض ولا خلق الظلمات، ولا خلق النور، وإنما الخالق هو الله ﷻ، الذي خلق الظلمات والنور، وفي هذا رد على المجوس الذين يعبدون النار، ويقولون: النور خالق للخير، والظلمة خالقة للشر، (**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**)، فهذا من خلق الله ﷻ، لا من خلق غيره.

قوله: (**وكذلك قول المشركين في النار لأصنامهم**)؛ لأن المشركين تُجمع معهم أصنامهم في النار، والعياذ بالله، وكذا يُجمع معهم من عبدوهم من الخلق وهو راض بذلك، يُجمع معهم يوم القيامة، فالعابدون والمعبدون كلهم يجتمعون في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ

ومعلوم قطعًا أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربّهم وخالقهم؛ فإنهم كانوا كما أخبر الله عنهم مقرّين بأن الله تعالى وحده هو ربّهم وخالقهم، وأن الأرض ومن فيها لله وحده، وأنه ربّ السمٰوات السّبع وربّ العرش العظيم، وأنه ﷻ هو الذي بيده ملكوت كل شيءٍ، وهو يجير ولا يجار عليه، وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى في المحبّة والعبادة، فمن أحبّ غير الله وخافه ورجاه، وذلّ له كما يحبّ الله تعالى ويخافه ويرجوه؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، ....

فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩]، فهم إذا اجتمعوا مع معبوديهم في النار لاموا أنفسهم فقالوا: ﴿تَٱللَّهِ﴾ هذا حلف، ﴿إِن كُنَّا﴾؛ يعني: في الدنيا، ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله: (ومعلوم قطعًا أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربّهم وخالقهم)، فهم لم يسووهم بالله في الربوبية، وإنما سووهم بالله في الألوهية والعبادة، فعبدوهم مع الله.

قوله: (فإنهم كانوا كما أخبر الله عنهم مقرّين بأن الله تعالى وحده هو ربّهم وخالقهم)، فهم معترفون بالله ربًّا كما جاء في القرآن.

قوله: (وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى في المحبّة العبادة)، فهم سوُّوهم بالله في المحبة والعبادة لا في الربوبية، ويقولون أيضًا: هم شفعاء، هم رجال صالحون ونحن عندنا ذنوب، فهم يشفعون لنا عند الله، وإلا فهم يعترفون بأنهم لا يخلقون ولا يرزقون ولا يدبرون شيئًا في الكون.

قوله: (فمن أحبّ غير الله وخافه ورجاه، وذلّ له كما يحبّ الله تعالى ويخافه ويرجوه؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله)، أما أن تحب المال وتحب الزوجة وتحب الأولاد وتحب الصديق فهذه محبة طبيعية، ليست محبة عبادة؛ فليس معها ذل وخضوع، هذه محبة طبيعية، ومحبة العبادة هي التي يكون معها ذل وخضوع وتعبُّد.

فكيف بمن كان غير الله تعالى آثر عنده وأحبّ إليه، وأخوف عنده، وهو في مرضاته أشد سعيًا منه في مرضاة الله؟.

قوله: (فكيف بمن كان غير الله آثر عنده وأحبّ إليه، وأخوف عنده، وهو في مرضاته أشد سعيًا منه في مرضاة الله؟)، فكيف بمن زاد في محبة الأصنام على محبته لله، إن كان عنده محبة لله؟ هذا أشد، فهم لم يعبدوا الأصنام عبثًا؛ بل عبدوا الأصنام لأنهم يحبونها، ولذلك يقاتلون دونها، ويبذلون أنفسهم وأموالهم دونها؛ لأنهم يحبونها، وتعلقت قلوبهم بها، كما قال ﷻ عن بني إسرائيل: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٣] فقد أحبوا العجل وعبدوه من دون الله، قالوا: ﴿هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: ٨٨]؛ أي: ولكن موسى نسي وذهب يبحث عن ربه!، هكذا قالوا والعياذ بالله.

قوله: (وأخوف عنده)، كذلك يخافون من الموتى أكثر مما يخافون من الله، وإذا قيل لأحدهم: احلف بالله، حلف وبادر، وإذا قيل له: احلف بالولي الفلاني؛ ارتعد وخاف وأبى أن يحلف، هذا شيء موجود عند القبوريين الآن، وإنهم يخافون الموتى أكثر مما يخافون الله ﷻ، ويتوقعون أنهم يضرونهم لو لم يتقربوا إليهم، يضرونهم ويصيبونهم بالموت والآفات، ويعتقدون أنهم لو لم يتقربوا إليهم لضروهم وأصابوهم بالموت والآفات، يعتقدون أن الموتى في القبور يضرون وينفعون، وأنك لو ما عبدتهم وتقربت إليهم يضرونك في مالك وفي نفسك، كما قال قوم هود لهود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥]، رجل واحد يتحدى أمة كاملة بهذا التحدي، هذا معجزة من معجزاته عليه الصلاة والسلام، هذا يبطل قولهم: ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود: ٥٣]، وما أعظم من هذه البينة، فقد تحداهم كلهم وأصنامهم أنهم يكيدونه؛ أي: يضرونه، ومع هذا ماذا صار بعد ذلك؟ أنجى الله نبيه هودًا ومن آمن معه، وأهلك الكفرة.

*** فإذا كان المسوّي بين الله وبين غيره في ذلك مشركًا، فما الظن بهذا؟، فعياذًا بالله من أن ينسلخ القلب من التّوحيد والإسلام كانسلاخ الحيّة من قشرها، وهو يظن أنه مسلم موحّد، فهذا أحد أنواع الشرك.**

قوله: **(فإذا كان المسوّي بين الله وبين غيره في ذلك مشركًا، فما الظن بهذا؟)**؛ أي: إذا كان المسوي بين الله وبين غيره في ذلك مشركًا فكيف بهذا الذي زاد معبودًا على الله ﷻ، فخافه أكثر من الله، ورجاه أكثر من الله، وما ظنكم به؟ وهذا واقع في عبّاد القبور اليوم، يخافون من الموتى، ويقولون: لا تقل شيئًا لئلا يصيبوك، ويصيبوا أولادك. وليست المسألة أنهم يعطونهم؛ بل إنهم يخافون منهم، حتى لا يصيبوك في أولادك وفي نفسك، زعموا، وقد يبتلى والعياذ بالله ويُصاب؛ فيظن أن هذا من الميت، مع أن هذا ابتلاء من الله وامتحان من الله ﷻ.

قوله: **(فعياذًا بالله من أن ينسلخ القلب من التّوحيد والإسلام كانسلاخ الحيّة من قشرها)**؛ يعني: ينسلخ الإنسان من التوحيد والإسلام ويخرج إلى الكفر والشرك بالتدرج شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى عنده شيء من التوحيد ولا من الإسلام، إذا ترك الحق فإنه يُبتلى بالباطل، ويزيد الباطل في نفسه حتى يخرج إلى كفر ما كفره غيره من العالم.

قوله: **(وهو يظن أنه مسلم موحّد)**، ما أكثرهم الآن، وهم يظنون أنهم مسلمون وأنهم موحدون، وهم يقولون: يا فلان، يا علي، يا عبد القادر!؛ فأين الإسلام وأين التوحيد وأنت تدعو غير الله، وتذبح لغير الله، وتنذر لغير الله، وتخاف من غير الله، وترجو غير الله، فأين الإسلام؟ فالإسلام حقيقة وليس دعوى، وهؤلاء ليسوا مسلمين، وإن ادعوا أنهم مسلمون، فلا يتسموا بالإسلام حتى يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له، ويكونوا حينئذٍ مسلمين حقًا.

قوله: **(فهذا أحد أنواع الشرك)**، هذا **النوع الأول**، شرك الألوهية، **النوع الثاني**: شرك الربوبية، وهو قليل.

﴿ والأدلة الدّالة على أنه ـ تعالى ـ يجب أن يكون وحده هو المألوه تبطل هذا الشرك، وتدحض حجج أهله، وهي أكثر من أن يحيط بها إلا الله سبحانه؛ بل كل ما خلقه الله تعالى فهو آية شاهدة بتوحيده، وكذلك كل ما أمر به، فخلقه وأمره، وما فطر عليه عباده وركبه فيهم من العقول؛ شاهد بأنه الله الذي لا إلٰه إلا هو، وأن كل معبود سواه باطل، وأنه هو الحق المبين، تقدس وتعالى.

وواعجبًا كيف يعصى الإلٰه أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكةٍ وتسكينةٍ أبدًا شاهد

الأدلة الدالة على وجوب إفراد الله بالعبادة تدحض هذا الشرك وتبطله، وهي أدلة من الكتاب والسُّنَّة، ومن الآيات الكونية والمخلوقات التي خلقها الله دالّة على انفراده سبحانه في الربوبية والألوهية؛ كلها تدحض هذا الشرك، الله ﷻ قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾ [الأحقاف: ٤] تحداهم ولم يجيبوا، ما قالوا أنهم خلقوا شيئًا من الأرض؛ أو خلقوا الجبل الفلاني أو الشجرة الفلانية، أو خلقوا الكوكب الفلاني، ما قالوا هذا، وما أجابوا على هذا السؤال أو على هذا التحدي، فهذا برهان قاطع على بطلان عبادة غير الله ﷻ.

والقرآن مملوء بالأدلة على بطلان الشرك في الألوهية، فقلَّ أن تأتي سورة ليس فيها بيان هذا الشرك؛ بل هناك سور خالصة في التوحيد والنهي عن الشرك؛ كالسور المكية.

قوله: (بل كل ما خلقه الله تعالى فهو آية شاهدة بتوحيده)، هناك أدلة من الوحي، أدلة قرآنية، وأدلة من الكتب المنزلة على الرسل من الوحي، وهناك أدلة كونية، وهي المخلوقات التي تدل على انفراد الله بالعبادة؛ لأنه هو

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحد

الذي خلقها ونظمها ودبرها وأمدها، وهذا يدل على أنه هو الذي يجب أن يفرد بالعبادة دون سواه، فالأدلة القرآنية والأدلة الكونية كلها تدل على وجوب إفراد الله بالعبادة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

قوله: (وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحد)، السمٰوات والأرض والجبال والبحار والأشجار والأنهار والدواب، كل ما خلق الله يشهد بأنه واحد، ويشهد بأنه هو المستحق للعبادة، **(وفي كل شيءٍ له آيةٌ)**؛ أي دلالة تدل على أنه واحد في ربوبيته وفي ألوهيته وفي أسمائه وصفاته لا شريك له، فهذه الأبيات فيها التوحيد، وقد قيل إنها لأبي نواس الشاعر المعروف من شعراء بني العباس، وقيل إنها لأبي العتاهية الشاعر المعروف، وقيل إنها لابن المعتز، وعلى كل حال سواء أكانت لهذا أو لهذا فهي واضحة الدلالة.

وهل أحد ينكر هذا، وهذا من الحكمة التي تكون في الشعر، كما قال الرسول ﷺ: «**إنَّ من الشِّعْرِ لَحِكْمَةً**»[1]، وهذا من الحكمة التي تأتي على لسان الشاعر.

انتهينا الآن من شرك الألوهية، وسيأتينا إن شاء الله شرك الربوبية، وهو في قوله:

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧٥٥).

*** والنوع الثاني من الشرك: الشرك بالله تعالى في الربوبيّة؛ كشرك من جعل معه خالقًا آخر؛ كالمجوس وغيرهم، الذين يقولون: بأن للعالم ربّين:**

*** أحدهما: خالق الخير، ويقولون له بلسان الفارسيّة: «يزدان».**

*** والآخر: خالق الشر، ويقولون له المجوس بلسانهم: «أهرمن».**

تقدم أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إن الشرك نوعان:

النوع الأول: شرك في الألوهية، وهو كثير، وذلك بأن يُجعل لله شريك في عبادته؛ بأي نوع من أنواع العبادة، العبادة كلها بجميع أنواعها حق لله ﷻ، ولا يجوز أن يشرك معه أحدًا لا من الملائكة ولا من الرسل، ولا من الأولياء والصالحين، ولا من الإنس ولا من الجن، ولا من الأحجار وغير ذلك، الله هو المستحق للعبادة، فهذا حقه على عباده، ومن أجلها خلقهم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأمر بها جميع الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة: ٢١]، وكذا أمر بها الجن والإنس، فمن صرف من أنواع العبادة من ذبح أو نذر أو استغاثة أو غير ذلك لغير الله فهذا شرك أكبر.

والنوع الثاني: شرك في الربوبية، وهو قليل في الناس.

قوله: (والنوع الثاني من الشرك: الشرك بالله تعالى في الربوبيّة)، ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثلاثة أنواع من الشرك في الربوبية:

النوع الأول: شرك المجوس الذين يجعلون خالقين: خالق للخير، وخالق للشر؛ ولذلك يسمون بالثانوية.

النوع الثاني: شرك الفلاسفة، الذين يجعلون المخلوقات من تدبير العقول العشرة والأفلاك وما أشبه ذلك.

والفلاسفة جمع فيلسوف، والفلسفة هي الحكمة بزعمهم، فالفيلسوف هو الحكيم عندهم، ومنبع الفلسفة وعلم الكلام والمنطق من اليونان، فهم عندهم الفلاسفة كأفلاطون وسقراط ومن جاء بعدهم من الفلاسفة.

*** وكالفلاسفة ومن تبعهم الذين يقولون: بأنه لم يصدر عنه إلا واحد بسيط، وأن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس، وأن مصدر هذا العالم عن العقل الفعّال، فهو ربّ كل ما تحته ومدبّره.**

النوع الثالث من الشرك في الربوبية: شرك القدرية، وهم المعتزلة الذين يقولون: إن كل إنسان يخلق فعل نفسه، وليس أفعال العباد خلقًا لله ﷻ، وإنما هي خلقهم هم. هذا قول المعتزلة، فهم أثبتوا خالقين متعددين مع الله، المجوس أثبتوا خالقين اثنين، والمعتزلة زادوا عليهم فأثبتوا خالقين متعددين مع الله؛ لأن كل إنسان يخلق فعل نفسه، وبصفة أنهم يجعلون مع الله شريكًا في الخلق سموا (**مجوس هذه الأمة**)، لشبههم بالمجوس، فهم يشبهون المجوس في هذا.

هذا ملخص أنواع الشرك في الربوبية التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى.

قوله: (وكالفلاسفة ومن تبعهم) وهم أهل النوع الثاني من الشرك في الربوبية، وهم الذين يقولون بالعقول العشرة والنفوس وهذه الأشياء هي التي تحدث الحوادث في الكون، فهم عطلوا الرب ﷻ وجعلوا هذه الأشياء هي التي تتصرف في الكون، وهذا شرك التعطيل.

قوله: (وإن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس)؛ أي: أن مصدر المخلوقات كلها عن العقول العشرة التي يسمونها، ولا ندري ما هي هذه العقول العشرة، وهذا كله من فلسفتهم الباطلة وافتراءاتهم. إذًا ليس هناك رب عندهم.

قوله: (وأن مصدر هذا العالم عن العقل الفعّال هو ربّ كل ما تحته ومدبّره) فهل بعد هذا الكفر كفر والعياذ بالله.



* وهذا أشرّ من شرك عبّاد الأصنام والمجوس والنّصارى، وهو أخبث شرك في العالم، إذ يتضمن من التعطيل وجحد الإلٰهيَّة والربوبيّة واستناد الخلق إلى غيره ـ سبحانه ـ ما لم يتضمنه شرك أمة من الأمم.

* وشرك القدريّة مختصر من هذا الباب، وباب يدخل منه إليه،

قوله: **(وهذا أشرّ من شرك عبّاد الأصنام والمجوس والنّصارى)**؛ أي: أن هذا أعظم أنواع الشرك؛ لأنه جحد الله ﷻ، وجعل هذا الكون مخلوقًا لغيره، وهذا شر من شرك النصارى؛ لأن النصارى يقولون: الله ثالث ثلاثة. فهم أثبتوا ثلاثة آلهة، وهؤلاء أثبتوا ما لا يُحصى من الآلهة لهذا الكون، وكذا شركهم شر من شرك المجوس؛ لأن المجوس أثبتوا خالقَين، وهؤلاء أثبتوا خالقِين متعددين مع الله ﷻ أو من دون الله، وكذا هو أشد من شرك عباد الأصنام؛ لأن عباد الأصنام يعترفون بأن الله هو الخالق، ولكن يجعلون هذه الأصنام شفعاء عندهم، فشرك الفلاسفة أشد من شرك عباد الأصنام.

قوله: **(وهو أخبث شرك في العالم)**، بلا شك؛ لأنه عكس الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

قوله: **(واستناد الخلق إلى غيره ﷻ)**؛ يعني: صدور الخلق عن غير الله، من هذه الأباطيل والترهات التي ينسبون إليها أنها تخلق في هذا الكون.

قوله: **(وشرك القدريّة مختصر من هذا الباب)**، هذا هو النوع الثالث، وهو شرك القدرية وهم المعتزلة، الذين يقولون: الله لم يقدر ولم يخلق أفعال العباد، وإنما هم الذين يخلقونها باستقلالهم، كل يخلق فعل نفسه باستقلاله، فلا تدخل أفعالهم في خلق الله، فهم إذًا أثبتوا شركاء مع الله في الخلق، **(مختصر من هذا)**؛ يعني: كل هذا مختصر من شرك الفلاسفة، وهو أقل منه ولكنه مثله.

قوله: **(وباب يدخل منه إليه)**؛ يعني: شرك القدرية باب يدخل منه إلى شرك الفلاسفة، حيث إنهم فتحوا الباب وقالوا: إن بعض المخلوقات وهي أفعال العباد ليست مخلوقة لله ﷻ.

ولهذا شبّههم الصّحابة ﷺ بالمجوس، كما ثبت عن ابن عمر وابن عبّاس ﷺ، وقد روى أهل السنن عنهم ذلك مرفوعًا: أنهم «مَجُوسُ هذه الْأُمَّةِ»[1].

*** وكثيرًا ما يجتمع الشركان في العبد وينفرد أحدهما عن الآخر.**

*** والقرآن الكريم؛ بل الكتب المنزلة من عند الله تعالى كلها مصرّحةً بالرد على أهل هذا الإشراك؛ كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنه ينفي شرك المحبّة والإلٰهيَّة، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنه**

قوله: **(ولهذا شبّههم الصّحابة ﷺ بالمجوس)**، فقد ظهر أول نفي القدر في آخر عهد الصحابة؛ فالقدرية ظهروا في آخر عهد الصحابة، فأنكروا عليهم وسموهم **«مَجُوسُ هذه الْأُمَّةِ»**.

قوله: **(وقد روى أهل السنن عنهم)**؛ أي: عن الصحابة، **(ذلك مرفوعًا)**، عن النبي ﷺ قال: **«الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هذه الْأُمَّةِ، إن مَرِضُوا فلا تَعُودُوهُمْ وَإِنْ مَاتُوا فلا تَشْهَدُوهُمْ»**[2].

قوله: **(وكثيرًا ما يجتمع الشركان في العبد وينفرد أحدهما عن الآخر)**، فقد يكون بالإنسان نوعان من هذه الأنواع؛ فيكون عنده شرك المجوس، وشرك القدرية.

قوله: **(والقرآن الكريم؛ بل الكتب المنزلة من عند الله تعالى)**؛ أي: قبل القرآن، **(كلها مصرّحةً بالرد على أهل هذا الإشراك)**، وهو الإشراك في الربوبية، فكل الكتب تثبت أن الخالق هو الله وحده، وهو المستحق للعبادة دون ما سواه.

قوله تعالى: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾** هذه الآية فيها نفي الشرك في الألوهية، ونفي الشرك في الربوبية، وذلك أن قوله: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٣).

ينفي شرك الخلق والربوبيّة، فتضمّنت هذه الآية تجريد التّوحيد لربّ العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه، لا في الأفعال ولا في الألفاظ ولا في الإرادات.

*** فالشرك به في الأفعال؛ كالسجود لغيره سبحانه، والطواف بغير بيته المحرّم، ....**

هذا حصر للعبادة في الله ﷻ؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، والمعمول هو ﴿إِيَّاكَ﴾، والعامل هو ﴿نَعْبُدُ﴾، فتقديم المعمول على العامل يفيد الحصر؛ أي: حصر العبودية في الله ﷻ وحده، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ الاستعانة من أفعال المخلوق، والذي يعين ويخلق ويرزق ويحيي ويميت ويدبر هو الرب ﷻ، فهذا فيه توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، فالله هو المعين، وهو الخالق، وهو الرازق، وهو المدبر.

قوله: (فتضمّنت هذه الآية تجريد التّوحيد لربّ العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه، لا في الأفعال ولا في الألفاظ ولا في الإرادات)، لا في الأفعال كالذبح، والنذر، والركوع، والسجود، وغير ذلك من العبادات الفعلية، كلها لله ﷻ، ولا في العبادات القولية كالدعاء، والذكر وغير ذلك، مما يجري على اللسان، وكذلك العبادات القلبية كالخوف، والرغبة، والرجاء، والرهبة، والمقاصد في العبادات والنيات، فكلها يجب أن تكون لله ﷻ؛ فالعبادات العملية التي على البدن، والعبادات القولية التي تكون باللسان والعبادات القلبية في النيات، العبادات في القلب كالمحبة، والخوف، والرجاء، والإنابة، والتوكل وغير ذلك، فالعبادات لا تخرج عن هذه الأنواع الثلاثة: إما بدنية، وإما لسانية، وإما قلبية.

قوله: (فالشرك به في الأفعال؛ كالسجود لغيره ﷻ)؛ أي: السجود بالبدن.

قوله: (والطواف بغير بيته المحرّم)، فالطواف عبادة ولا يشرع إلا

وحلق الرأس عبوديّةً وخضوعًا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه في الأرض، ....

بالكعبة المشرفة، ولا يجوز أن يُطاف بالقبور ولا بالمقامات، ولا بالأمكنة والآثار التي ينسبونها إلى الأنبياء والصالحين؛ لأن هذا شرع دين لم يأذن به الله، فلم يشرع الله الطواف إلا بالبيت العتيق، فإذا كان الطائف يتقرب بهذا الطواف إلى غير الله كأن يتقرب لصاحب القبر، فهذا شرك أكبر، وإن كان ينوي الطواف لله، ولكنه يؤديه بهذا المكان الذي لم يشرع الله الطواف به، فهذا بدعة؛ لأن الله لم يشرع الطواف إلا بالبيت العتيق، ولا يطاف بغيره من أي مكان.

قوله: (وحلق الرأس عبوديّةً وخضوعًا لغيره)، حلق الرأس يكون عبادة ويكون مباحًا:

إذا حلقته لأجل التخلص من الأذى ومن القمل ومن الأوساخ، وأن تسلم من كُلف تغذية الرأس، فهذا مباح.

وإذا حلقته أو قصرته من أجل النسك والتعبد؛ فهذا لا يكون إلا لله، فلا يحلق للقبر، ولا لغيره من المخلوقات، فيكون الحلق أو التقصير عبادة، إذا كان في الحج أو العمرة، فالحلق أو التقصير من مناسك الحج أو العمرة فقط؛ فهو عبادة لله ﷻ؛ لأن هناك من يحلقون رؤوسهم للأضرحة والأصنام.

قوله: (وتقبيل الأحجار)؛ أي: تقبيل الأحجار تبركًا بها، هذا نوع من العبادة؛ لأن البركة من الله وحده وهي فيما جعله الله مباركًا.

قوله: (غير الحجر الأسود الذي هو يمينه في الأرض)، الله لم يشرع لنا تقبيل حجر أو بناء أو غيره إلا الحجر الأسود؛ لأنه من شعائر الله، والنبي ﷺ استلمه وقبَّله عبادة لله، وليس عبادة للحجر، ولكن لأن الحجر مشعر من مشاعر العبادة، فنحن نقبِّله أو نستلمه أو نشير إليه تعبدًا لله ﷻ، وإلا فهو حجر لا ينفع ولا يضر؛ ولهذا قال عمر ؓ لما قبّل الحجر: «إني أَعْلَمُ أَنَّكَ

أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها.

حَجَرٌ لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ، وَلَوْلا أَنِّي رأيت النبي ﷺ يُقَبِّلُكَ ما قَبَّلْتُكَ»[١]؛ فالمسألة مسألة اتباع للرسول ﷺ، عبادة لله ﷻ، فأنت تقبله لا تتقرب إليه وإنما تتقرب إلى الله، وتعبد الله الذي أمرك بذلك، وأما تقبيل المقامات والأضرحة والقبور والشبابيك التي عليها فهذا من فعل المشركين، وهو تقرب إلى غير الله ﷻ، فالقبور لا تُقبّل لا جدرانها ولا شبابيكها، ولا قبر النبي ﷺ ولا قبر غيره، فما شُرع لنا إلا هذا الحجر (**الذي هو يمينه في الأرض**)، كما في الحديث: «**يَأْتِي الرُّكْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مِنْ أَبِي قُبَيْسٍ، لَهُ لِسَانٌ وَشَفَتَانِ، يَتَكَلَّمُ عَمنِ اسْتَلَمَهُ بِالنِّيَّةِ، وَهُوَ يَمِينُ اللهِ الَّتِي يُصَافِحُ بِهَا خَلْقَهُ**»[٢]؛ أي: هو بمنزلة يمينه ومصافحته، فمن قبّله وصافحه فكأنما صافح الله؛ لأنه شعيرة من شعائره، فهو «**يَمِينُ اللهِ**» بمعنى أنه من شعائره، وليس يمين الله بمعنى يد الرب ﷻ، فالله تعالى ليس منه شيء في الأرض، الله ﷻ في السماء، ولكن يمينه في الأرض بمعنى أنه مشعره في الأرض، ومحل عبادته.

قوله: (أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها)، لم يشرع الله لنا تقبيل القبور واستلام القبور والسجود لها؛ لأن هذا من دين المشركين.



---

(١) أخرجه البخاري (١٥٩٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٦٨١).

* **وقد لعن النبي ﷺ من اتّخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها، ....**

قوله: (وقد لعن النبي ﷺ من اتّخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد) في أحاديث كثيرة صحيحة، نهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، ونهى عن البناء على القبور، ونهى عن تجصيصها والكتابة عليها، ونهى عن إسراجها بالسرج، وتبخيرها بالبخور، كل ذلك نهى الرسول ﷺ عنه؛ لأنه من وسائل الشرك، وعبادة غير الله، والغلو في القبور، والآن يبنون عليها ويجعلون لها صناديق، وسدنة، ويجمعون الأموال من المساكين، ويتقاسمونها، ويجعلونها مصدرًا أو موردًا ماليًا للبلد، وأغروا الناس في عبادتها والعياذ بالله، أكلوا أموالهم بالباطل وأفسدوا عقيدتهم، فهذا هو ديدن القبوريين اليوم، أو من رضي بفعلهم، أو اتخذه موردًا من موارد بيت المال في بعض البلاد.

قوله: (مساجد يصلى لله فيها)، المسجد هو مكان الصلاة ولو لم يبنّ، فكل مكان صليت فيه فإنه مسجد، لقوله ﷺ: «**وَجُعِلَتْ لي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»[1]؛ فالمسجد هو مكان الصلاة سواء استمر يصلى فيه، أو صليت فيه مرة واحدة ومشيت، فهو مسجد مؤقت بوقت صلاتك فيه، والقبور لا يُصلى عندها، ولو كان المصلي يصلي لله، لأن المكان ليس مكانًا للصلاة، ولأن هذا وسيلة إلى الشرك، فإذا رأوك تصلي عندها فإنهم يقتدون بك ويظنون أنك تصلي لأجل القبر وبركته، فيصلون عنده ويتبركون به، فلذلك سد النبي ﷺ هذه الوسيلة ونهى عن الصلاة عند القبور، وإذا بُني عليها مسجدًا فالأمر أشد، قال ﷺ لأم سلمة رضي الله عنها لما ذكرت له كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور: «**إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2]، فإذا بني عليه مسجد فالأمر أشد، ولا تجوز الصلاة في هذا المسجد؛ لأنها صلاة عند

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧).

فكيف من اتّخذ القبور أوثانًا تعبد من دون الله؟ فهذا لم يعلم معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]. **وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لَعنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا**(١)**. وفيه عنه ـ أيضًا ـ: ....**

القبر، أما إذا كان يصلي للقبر فهذا شرك أكبر، ولكن إذا كان يصلي لله فهذا حرام ووسيلة من وسائل الشرك.

قوله: (**فكيف من اتّخذ القبور أوثانًا تعبد من دون الله؟**)؛ أي: كيف إذا صلى لها ودعا أصحابها واستغاث بهم واتخذها أوثانًا تعبد من دون الله ويتقرب إليها بالعبادة، والوثن: هو ما عُبد من دون الله، سواء كان على صورة إنسان أو كان شجرًا، أو حجرًا أو قبرًا، فكلها أوثان؛ فالوثن هو ما عُبد من دون الله على أي شكل كان؛ ولهذا قال ﷺ: «**اللهمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»(٢) فجعل عبادة القبر عبادة للوثن، وإن كان قبر نبي؛ فلا يجوز التقرب إلى الأموات بالاستغاثة والذبح والنذر والصلاة عندها والتبرك بها، وسيأتي ما يُشرع للقبور ولا يُشرع.

قوله: (**فهذا لم يعلم معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾**)؛ أي: لم يفهم معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وأنه حصر للعبادة في الله، فهذا عبد غير الله، فكيف يقرأ هذه الآية بلسانه، ويخالفها بفعله؛ فيعبد غير الله.

قوله ﷺ: «**لَعنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، اليهود والنصارى غلو في القبور فاتخذوها مساجد، بمعنى أنهم يصلون عندها تبركًا بها؛ فلذلك لعنهم النبي ﷺ، واللعن لا يكون إلا على كبيرة من كبائر الذنوب، والشرك هو أكبر الذنوب، وكذلك الوسائل المؤدية إليه من أكبر الذنوب، فهذا سد لباب الشرك.

---

(١) البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١). (٢) الموطأ (٥٩٣).

«من شِرَارِ الناس من تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، والذين يتخذون الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»[١]. وفيه ـ أيضًا ـ عنه ﷺ: «وَإِنَّ من كان قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، ألا فلا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إني أَنْهَاكُمْ عن ذلك»[٢].

قوله ﷺ: «من شِرَارِ الناس من تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ»؛ لأن الساعة لا تقوم وفي الأرض من يقول: الله الله، ولا تقوم إلا على شرار الناس الذين لا يعرفون الله؛ لأن القرآن يُرفع في آخر الزمان، وينزع العلم، ويبقى الناس في جهل، ويموت العلماء، فيقع الناس في الشرك، ويقعون في الكفر، ثم تقوم عليهم الساعة والعياذ بالله، ولا تقوم إلا على شرار الناس، أما أهل الإيمان فيموتون قبل قيام الساعة، تأتيهم ريح طيبة فتنزع أرواحهم ويموتون ويبقى شرار الناس، يتهارجون كتهارج الحُمر، هذا صنف منهم.

والصنف الثاني: الذين يبنون المساجد على القبور، وهؤلاء من شرار الناس في كل زمان ومكان، وليس عند قيام الساعة فقط؛ بل في كل زمان، ولكن هؤلاء تقوم عليهم الساعة.

ولما نزل به الموت ﷺ وصار في الاحتضار والرمق الأخير، ما نسي الوصية لأمته؛ بل أوصاهم بالتوحيد وإفراد الله بالعبادة، وقال: **«وَإِنَّ من كان قَبْلَكُمْ»** يعني: من الأمم من اليهود والنصارى، **«كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، ألا فلا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إني أَنْهَاكُمْ عن ذلك»**، خشي أن يتخذ قبره مسجدًا؛ كمن سبقهم مع قبور الأنبياء، وهذا من كمال نصحه ﷺ، فلم يشغله الموت عن ذلك؛ لأنه خشي أنه إذا مات يتبعون فيه سنة من قبلهم، فيبنون عليه ويتخذونه مسجدًا، وهذا من نصيحته ﷺ؛ ولذلك دفنه الصحابة في بيته، في حجرة عائشة التي مات فيها، ولم يخرجوه للبقيع مع الصحابة؛ لأنه خُشي

---

(١) الذي في البخاري معلقًا (٧٠٦٧): «مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ»، وفي مسند الإمام أحمد (١٦٩٤): «شِرَارَ النَّاسِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ».

(٢) انظر: صحيح مسلم (٥٣٢).

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبّان عنه ﷺ: «لَعَنَ الله زوّارات الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذَين عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»[1].

أن يتخذ مسجدًا لو برز؛ فحمي قبره عن الناس بالجدران، وبالحجرة النبوية، وكانت الحجرة خارج المسجد، مجاورة للمسجد في عهد الخلفاء الراشدين، وفي عهد معاوية رضي الله عنه، والقرون المفضلة، فلما جاء الوليد بن عبد الملك في دولة بني أمية، أراد أن يوسع المسجد النبوي فأدخل فيه الحجرة بإشراف عمر بن عبد العزيز أمير المدينة في عهده، ولم يكن هذا بمشورة أهل العلم، ولا برأيهم، وإنما هو رأي رآه السلطان ونفذه، فالأصل أن قبره ﷺ ليس بالمسجد؛ لأن هناك من يُشبّه على الناس الآن ويقول: هذا قبر النبي في المسجد!. والحقيقة أنه ما بني عليه المسجد؛ لأن المسجد بني أول ما هاجر الرسول ﷺ وليس فيه قبور؛ بل إنه أمر بالقبور التي كانت فيه للمشركين فنبشت وأخرجت، ثم بنى مسجده ﷺ، ليس فيه قبور، ولكن هذا جاء بعد، وهو من تصرف بعض الولاة، وليس هو بأمر الرسول، ولا بسُنَّة الرسول، ولا بسُنَّة الخلفاء الراشدين، فليس في ذلك حجة.

قوله ﷺ: «لَعَنَ الله زوّارات الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذَين عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»، هذا الحديث فيه مسألتان:

المسألة الأولى: تحريم زيارة النساء للقبور، وأنها كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن النبي ﷺ لعن زوارات القبور، واللعن لا يكون إلا كبيرة من كبائر الذنوب، فلا تجوز زيارة النساء للقبور، وفي لفظ: «**زائرات**»[2]، بدل: «**زوّارات**»؛ لأن هناك من يقول: الرسول لعن زوارات؛ يعني: كثيرات

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد (٨٤٤٩ ـ ٢٠٣٠)، وسنن الترمذي (١٠٥٦)، وسنن ابن ماجه (١٥٧٤)، وصحيح ابن حبان (٣١٧٨ ـ ٣١٧٩).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٠٣٠)، وصحيح ابن حبان (٣١٧٨)، وأبو داود (٣٢٣٨)، والترمذي (٣٢٠).

وقال: ﷺ: «اشتدّ غضب الله على قوم اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[١].

الزيارة، أما الزيارة القليلة فلم تمنع. نقول: جاءت رواية: لعن زائرات القبور، فهذه فيها رد على هؤلاء، فالنساء لا تزور القبور، والحكمة ـ والله أعلم ـ أن المرأة ضعيفة إذا رأت قبر قريبها فإنها لا تمنع نفسها من الجزع والبكاء فمنعت من أجل ذلك، وكذلك المرأة فتنة، ولو أنها خرجت إلى المقابر لتزورها انتهز الفساق هذه الفرصة فيحصل مفاسد في المقابر؛ ولذلك منعت النساء من زيارة القبور لأمرين:

١ ـ لضعفهن وعدم صبرهن.

٢ ـ لأنهن فتنة.

المسألة الثانية: وهذه محل الشاهد، قوله: «**وَالْمُتَّخِذِين عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**»، الذين يصلون عندها أو يبنون عليها المساجد، هؤلاء ملعونون على لسان رسول الله ﷺ، كما لعن اليهود والنصارى من قبل؛ لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وكذلك جعل السرج عند القبور ولا تضاء بالمصابيح والكهرباء؛ لأن هذا يغري الجهال، إذا رأوها مسرجة ومنوّرة تعلقوا بها وزاروها؛ فسدًا للذريعة فالقبور لا تضاء ولا تسرج، نعم إذا احتاجوا إلى الدفن بالليل فإنهم يأتون معهم بالسراج أو بالفانوس أو بالمصباح الكهربائي، ويدفنون الميت مثلما فعل النبي ﷺ، لما دفن ميتًا بالليل استعمل السراج، وكذلك أصحابه، يأتون بسراج مؤقت لدفن الميت فقط.

قوله ﷺ: «اشتدّ غضب الله على قوم اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، فمع اللعن، اشتد غضب الله، فهذا يدل على أن هذا كبيرة من كبائر الذنوب، «**على قوم اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» يصلون عندها أو يبنون عندها المساجد، فهذا أشد.

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٥٩٣)، وابن أبي شيبة (٧٥٤٤).

وقال: «إن من كان قبلكم كانوا إذا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا على قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فيه تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»[١].

قوله ﷺ: «إن من كان قبلكم كانوا إذا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا على قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فيه تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»، لما ذكرت أم سلمة زوج الرسول ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة عندما هاجرت إليها الهجرة الأولى، وأهل الحبشة نصارى، وذكرت ما رأت في هذه الكنيسة من الصور، وكما سبق قوله: «من شِرَارِ الناس من تُدْرِكْهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، والذين يتخذون الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»، فهم شرار الخلق والعياذ بالله؛ فالذين يبنون المساجد الآن على القبور هم شرار الخلق، وإن كانوا يزعمون أنهم مسلمون وأنهم يحبون الصالحين، فهذا كله لا أصل له.



---

(١) انظر: صحيح البخاري (٤٢٧ ـ ٣٨٧٣).

*** والنّاس في هذا الباب ـ أعني: زيارة القبور ـ ثلاثة أقسام:**

*** قوم يزورون الموتى فيدعون لهم. وهذه الزّيارة الشرعيّة.**

*** وقوم يزورونهم يدعون بهم، فهؤلاء هم المشركون في الإلٰهية والمحبّة[1].**

*** وقوم يزورونهم فيدعونهم أنفسهم، وهؤلاء هم المشركون في الربوبيّة[2].**

إذا سألت عن زيارة القبور وقلت: ما حكم زيارة القبور؟ فالجواب: أن فيها تفصيلًا سيذكره الماتن.

قوله: **(قوم يزورون الموتى فيدعون لهم. وهذه الزّيارة الشرعيّة)**، إذا كان قصد زائر القبور الدعاء للميت فهذه الزيارة المشروعة؛ لأن الزيارة الشرعية لها فائدتان:

الفائدة الأولى: الاعتبار والاتعاظ، بتذكر بالآخرة، كما قال ﷺ: «**فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ**»[3].

الفائدة الثانية: أنك تدعو للميت؛ لأنه بحاجة إلى الدعاء والاستغفار له.

قوله: **(وقوم يزورونهم يدعون بهم)**؛ أي: يتخذونهم وسائط بينهم وبين الله، يزعمون أنهم يشفعون لهم عند الله، **(يدعون بهم)**؛ أي: بواسطتهم.

قوله: **(فهؤلاء هم المشركون في الإلٰهية والمحبّة)** إذا زاروا القبور يقصدون أن يتخذوا الأموات وسائط ووسيلة إلى الله يتقربون إليهم، ويعبدونهم لأجل أن يقربوهم إلى الله، ومن أجل أن يشفعوا لهم، فهذه زيارة شركية.

قوله: **(وقوم يزورونهم فيدعونهم أنفسهم)**؛ أي: يدعون الميت.

---

(١) في بعض النسخ: «وهؤلاء هم المشركون وجهلة العوام والطغام من غلاتهم».

(٢) في بعض النسخ: «وقوم يزورنهم فيدعونهم أنفسهم وقد قال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»».

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٥٤).

....

والخلاصة: أن الذي يزور القبر لا يخلو من ثلاث حالات؛ يدعو للميت فهذه زيارة مشروعة، أو يزور القبر يدعو الله عند قبر الميت، وهذه زيارة بدعية، لأن القبر لا يُدعى عنده، ولا يصلى عنده، أو يزور القبر ليدعو الميت، فهذا شرك أكبر.

قوله: (وهؤلاء هم المشركون في الربوبيّة) وكذا في الألوهية؛ لأن الدعاء من الألوهية؛ ولأن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية.



* **وقد حمى النبيّ ﷺ جانب التّوحيد أعظم حماية، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، حتى نهى عن الصّلاة في هذين الوقتين؛ لكونها ذريعةً إلى التّشبه بعبّاد الشّمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين. وسد الذّريعة بأن منع من الصّلاة بعد العصر والصّبح لاتصال هذين الوقتين[1] اللذين يسجد المشركون فيهما للشّمس.**

النبي ﷺ بيّن التوحيد أولًا ووضحه لأمته، ثم حماه من أن يغير أو أن يدخل فيه شيء مبتدع، فسدّ الوسائل التي تفضي إلى الشرك.

قوله: (حتى نهى عن الصّلاة في هذين الوقتين)، نهى عن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس، ونهى عن الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس؛ لأن المشركين يعبدون الشمس عند غروبها، وعند طلوعها، فيسجدون لها إذا بزغت، ويسجدون لها إذا غربت، فنحن لا نتشبه بهم في هذين الوقتين، فلا نصلي لله في هذين الوقتين؛ لأن هذا فيه التشبه بعبّاد الشمس عند غروبها أو عند طلوعها، هذا من سد الوسائل التي تفضي إلى الشرك.

قوله: (بعبّاد الشّمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين)، عند الغروب وعند الشروق يسجدون لها، يسجد لها الكفار، فنُهينا عن الصلاة في هاتين الوقتين. ولكن لا بد من التنبيه أن من نام عن صلاة العصر أو نام عن صلاة الفجر ولم يستيقظ إلا عند غروب الشمس أو عند طلوعها فليبادر بالصلاة، قال ﷺ: «**مَنْ نَسِيَ صَلَاةً أَوْ نَامَ عَنْهَا فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا**»[2] قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤﴾ [طه: ١٤]، فلا تؤخر الصلاة حتى ينتهي وقت النهي؛ فالفريضة تُصلى في الحال، وإنما النافلة هي التي لا تصليها في هذين الوقتين؛ فاحتاط النبي ﷺ في النهي، فهم يسجدون لها عند الغروب، ويسجد لها عند الطلوع؛ فالرسول احتاط في النهي فحرم الصلاة بعد العصر مباشرة، وحرم الصلاة بعد الفجر مباشرة احتياطًا للنهي.

---

(١) في بعض النسخ: «لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس».
(٢) أخرجه مسلم (٦٨٤).

*** وأمّا السّجود لغير الله فقد قال النبي ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ إلا لله»(١). و«لَا يَنْبَغِي» في كلام الله ورسوله ﷺ إنما يستعمل للذي هو في غاية الامتناع؛ كقوله تعالى:** ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم: ٩٢]، **وقوله تعالى:** ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]، **وقوله تعالى:** ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، **وقوله تعالى:** ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨].

السجود لا يكون إلا لله ﷻ، وكذا الركوع والانحناء من باب التحية والتعظيم لا يجوز؛ لأنه هذه عبادة لغير الله ﷻ.

يبين المؤلف كلمة «لا يَنْبَغِي» في كلام الله ورسوله أنها في غاية الامتناع والنهي، فهي كلمة فيها غاية النهي والتحذير العظيم عن الشيء.

قال الله تعالى في حق الرسول ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾؛ لأن المشركين يقولون: إنه شاعر، وأن هذا القرآن شعر، فرد الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾؛ فالرسول لا يحسن الشعر، حتى إنه إذا أراد أن ينشد البيت لا يستطيع أن ينشده على أصله؛ لأنه لم يُعلَّم الشعر عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ دل على أن كلمة «لَا يَنْبَغِي» هي كلمة عظيمة، ولها معنى عظيم، فهي تقتضي شدة التحريم.

---

(١) جاء في صحيح ابن حبان (٤١٦٢) بلفظ: «ما ينبغي لأحد أن يسجد لأحد»، وفي المستدرك (٧٣٢٤) بلفظ: «لو كان ينبغي لبشر أن يسجد لبشر لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها»، وفي المصنف لابن أبي شيبة (١٧١٣٢) والدارمي (١٧) بلفظ: «لا ينبغي لشيء أن يسجد لشيء، ولو كان ذلك لكان النساء يسجدن لأزواجهن».

* ومن الشرك بالله تعالى المباين لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] الشرك به في اللفظ كالحلف بغيره، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»[١]. صحّحه الحاكم وابن حبّان[٢]. قال ابن حبّان: أخبرنا الحسن بن سفيان، ثنا عبد الله بن عمر الجعفي، ثنا عبد الرّحيم بن سليمان، عن الحسن بن عبيد الله النخعي، عن سعد بن عبيدة، قال: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما

الشرك الأصغر نوعان:

الأول: شرك ظاهر على اللسان بالألفاظ، مثل: لولا الله وأنت، ما شاء الله وشئت، وكذا الحلف بغير الله ﷻ، هذا كله من الشرك في الألفاظ.

الثاني: وشرك في القلب، وهو الشرك الخفي، وهو مثل الرياء والسمعة وإرادة الإنسان بعمله الدنيا وما أشبه ذلك؛ أي: الشرك في المقاصد.

قوله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» دليل على أن الحلف بغير الله من الشرك، ولكنه شرك أصغر؛ لأنه شرك في اللفظ.

فلا يجوز الحلف لا بالكعبة، ولا بالنبي، ولا بغيره.

ولما قال رجل للنبي ﷺ: «ما شَاءَ الله وَشِئْتَ»، قال النبي ﷺ: «أجعلتني للهِ ندًّا؟»؛ أي: شريكًا، «قل ما شَاءَ الله وَحْدَهُ». وهذا إرشاد وتوجيه من النبي ﷺ؛ للاحتياط للتوحيد، وفي حديث آخر: «قل: ما شَاءَ الله ثم شاء فلان»[٣]؛ لأن (ثم) تقتضي الترتيب، فتكون مشيئة العبد بعد مشيئة الله. أما إذا قلت: ما شاء الله وشئت، بالواو، فالواو تقتضي الجمع والتشريك، فلا تجوز، وفرق بين العطف بالواو، والعطف بـ(ثم).

---

(١) مسند الإمام أحمد (٥٣٧٥)، وأبو داود (٣٢٥٣).

(٢) المستدرك (٧٨١٤)، وابن حبان (٤٣٥٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٢٦٥)، وأبو داود (٤٩٨٢).

فَحَلَفَ رَجُلٌ بِالْكَعْبَةِ، فقال ابن عمر ﵄: «وَيْحَكَ لا تَفْعَلْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». ومن الإشراك قول القائل لأحد من النّاس: ما شَاءَ الله وَشِئْتَ، كما ثبت عن النبيّ ﷺ أنه قال له رجل: ما شَاءَ الله وَشِئْتَ. فقال: «أجعلتني للهِ ندًا؟، قل ما شَاءَ الله وَحْدَهُ»[1]. هذا مع أن الله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة؛ كقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التكوير: ٢٨]. فكيف بمن قال: أنا متوكّل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، ....

قوله: **(هذا مع أن الله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة)**، العبد له مشيئة بلا شك، قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، فالعبد له مشيئة، ولكنها لا تكون إلا بعد مشيئة الله ﷻ، ليست استقلالية كما يقوله المعتزلة، قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أثبت للعبد مشيئة ولكنها لا تكون إلا بعد مشيئة الله، فقد تشاء شيئًا ولا يحصل، ولكن لو شاء الله شيئًا فلا بد أن يحصل؛ فمشيئتك تأتي بعد مشيئة الله.

قوله: **(فكيف بمن قال: أنا متوكّل على الله وعليك)**، التوكل نوع من أنواع العبادة، فلا يجوز أنك تقول: متوكل على الله وعليك، ولكن يجب عليك أن تقول: أنا متوكل على الله، وقد وكلتك في هذا الشيء، ولا تقل: توكلت عليك؛ بل قل: وكلتك.

قوله: **(وأنا في حسب الله وحسبك)**؛ يعني: أنا في كفاية الله يكفيني وأنت تكفيني، لا؛ فالله ﷻ هو الحسب وحده، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾ [الأنفال: ٦٤]؛ أي: وحسب من اتبعك من المؤمنين؛ فالحسب من الله ﷻ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٨٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، والطبراني في الكبير (١٢٨٢٩).

وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض. وازن بين هذه الألفاظ الصادرة من غالب النّاس اليوم وبين ما نُهي عنه من: ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيّها أفحش؟؛ يتبيّن لك أن قائلها أولى بالبعد من ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، وبالجواب من النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعل رسول الله ﷺ ندًا فهذا قد جعل من لا يدانيه لله ندًا.

قوله: (**وما لي إلا الله وأنت**)، الواو هذه تشريكية، تقتضي الجمع، ولكن لو قلت: ما لي إلا الله ثم أنت، فلا بأس.

قوله: (**وهذا من الله ومنك**)، هذا شرك في اللفظ؛ حيث سوّيت المخلوق بالخالق؛ لأن الواو تقتضي التسوية؛ فإذا جئت بـ(**ثم**) زال المحظور، هذا من الله ثم منك، يعني: بسببك، وكذا قوله: (**وهذا من بركات الله وبركاتك**)، وقول: (**والله لي في السماء وأنت لي في الأرض!!**) هذا لا يجوز؛ فالله ﷻ في السماء وفي الأرض علمه، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وما يجري في الأرض فهو من تقدير الله ﷻ؛ فالله له ما في السماوات وما في الأرض خلقًا وعبيدًا وتدبيرًا، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام: ٣]؛ فالله في السماء وعلمه في كل مكان.

فلا يجوز هذا الكلام إلا بهذه التقييدات النبوية، حماية للتوحيد، وإن كان المسلم قالها لا يقصد بقلبه ذلك، ولكن هذا شرك في الألفاظ؛ فلسدّ الذريعة يُنهى عن ذلك حتى وإن كان باللسان.



* وبالجملة: فالعبادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي السّجود، والتوكّل، والإنابة، والتّقوى، والخشية، والتّوبة، والنّذر، والحلف، والتّسبيح، والتّكبير، والتّهليل، والتّحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعًا وتعبّدًا، والدعاء، كل ذلك حق الله تعالى.

* وفي مسند الإمام أحمد: أن رجلًا أُتي به النبي ﷺ وقد أذنب ذنبًا، فلما وقف بين يديه قال: اللَّهُمَّ إني أَتُوبُ إِلَيْكَ، وَلَا أَتُوبُ إلى مُحَمَّدٍ، فقال ﷺ: «عَرَفَ الْحَقَّ لأَهْلِهِ»[1]. أخرجه الحاكم من حديث الحسن عن الأسود بن سريع وقال: حديث صحيح[2].

في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حصر للعبادة لله ﷻ، يفيد بطلان عبادة ما سواه، وهذه الآية فيها معنى: (لا إله إلا الله)؛ لأنها تتضمن النفي والإثبات الذي تضمنته (لا إله إلا الله)، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هذا معناه نفي العبادة عما سوى الله ﷻ؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، كما هي القاعدة عند أهل اللغة، فالمعمول هنا: ﴿إِيَّاكَ﴾ والعامل ﴿نَعْبُدُ﴾؛ فتقديم المعمول على العامل يفيد الحصر؛ أي: حصر العبادة في الله ﷻ، وبطلان عبادة ما سواه، وهذا هو معنى (لا إله إلا الله) تمامًا، بقي أن نعرف ما هي العبادة؟ العبادة في الأصل الذل والخضوع مع المحبة؛ فهذا أصل العبادة، وكما قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان

ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان

فأصل العبادة هو المحبة مع الذل والخضوع؛ فهما قطبا العبادة، فالعبادة كلها تدور على هذين كالفلك الذي يدور على القطب، وأنواع العبادة كثيرة،

---

(١) (١٥٥٨٧)، وفيه: أتي بأسير.

(٢) المستدرك (٧٦٥٤).

....

فكل ما شرعه الله ﷻ من الأقوال والأفعال والاعتقادات والنيات، فهو عبادة؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ»[1]. الظاهرة على الجوارح وعلى اللسان، والباطنة في القلوب من الخوف والرغبة والرهبة والخشية والإنابة والتوكل، هذه في القلوب، وأما الصلاة والركوع والذبح والحج وسائر الأعمال والزكاة والصدقات وبر الوالدين، وصلة الأرحام، فهذه أعمال ظاهرة منها ما هو على اللسان كالتسبيح والتهليل والتكبير وعلى الجوارح مثل الصلاة والصيام والحج والعمرة والذبح والنذر وغير ذلك، فجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة لا يستحقها إلا الله ﷻ، فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك، الشرك الأكبر؛ لأنه عبد غير الله.

قوله: **(وحلق الرأس خضوعًا وتعبّدًا)**، حلق الرأس يكون عبادة إذا قصد به الامتثال لأمر الله، وطاعة الله، وهذا يكون في النسك في الحج والعمرة، قال تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧]، والنبي ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ**»، ثلاث مرات، وقال في الرابعة: «**وَلِلْمُقَصِّرِينَ**»[2]، فحلق الرأس في النسك عبادة لله ﷻ والذي يحلق رأسه للصنم أو من يعظمه دون الله فهذا شرك بالله، كما يحلق المشركون رؤوسهم عند الأصنام وعند القبور وعند الأضرحة، وهذا شرك بالله ﷻ.

قوله: **(اللَّهُمَّ إني أَتُوبُ إِلَيْكَ)**؛ أي: إلى الله ﷻ، **(وَلَا أَتُوبُ إلى مُحَمَّدٍ)**؛ فالتوبة عبادة، والاستغفار عبادة، ولا تكون للمخلوق؛ فالنبي ﷺ صوّبه على هذا، وقال: «**عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ**». فالله هو أهل العبادة، ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ۝﴾ [المدثر: ٥٦].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٠٢).

*** وأما الشرك في الإرادات والنيّات: فهو البحر الذي لا ساحل له،**

قوله: (الشرك في الإرادات والنيّات)، هذا يسمى الرياء، وهو شرك خفي؛ لأنه بالقلوب، لا يعلمه إلا الله، وهو الذي خافه النبي ﷺ على أصحابه، فقال: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**» قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ**»(١)، وفي رواية: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَسِيحِ عندي؟**»، قالوا: بَلَى، قال: «**الشِّرْكُ الخفي، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يَعْمَلُ لِمَكَانِ رَجُلٍ**»(٢).

لأن الشرك الأكبر لا يحصل من المسلم، بينما الشرك الأصغر والشرك الخفي قد يحصلان من المسلم، فيُخاف على المسلمين من الرياء، يقوم الرجل ليصلي ويجمِّل صلاته لما يرى من نظر رجل إليه، هذا رياء، يجمل الصلاة ليرائي الرجل الذي ينظر إليه، هذا يعتبر شركًا خفيًا في القلب، هو يصلي ونحن لا ندري عنه، ولكن الله يعلم ما في قلبه، أنه يرائي بصلاته، والرياء يبطل العمل الذي خالطه، فيبطل الصلاة، يبطل الصدقة، فيبطل العمل الذي خالطه إلا إذا تاب منه، ورجع عنه، وأخلص العمل لله، فإن الله يتوب عليه، وهذا خطير جدًا، وقلَّ من يسلم منه، إلا من سلّمه الله، وهو كما جاء في الحديث: «**الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ الذَّرِّ عَلَى الصَّفَا فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ**»(٣)، الشرك يعني: الرياء، من الذي يرى النملة السوداء على الصخرة في ظلمة الليل؟ فالشرك في هذه الأمة أخفى من ذلك، فهو خطير، فعلى المسلم أن يخلص نيته وقصده لله ﷻ.

قوله: (فهو البحر الذي لا ساحل له)؛ لأنه يدخل في أعمال كثيرة؛ فعلى المسلم أن يحذر منه، وأن يخلص نيته لله ﷻ، فلا يكون في قلبه قصد لغير الله.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٦٣٠).
(٢) أخرجه الإمام أحمد (١١٢٥٢).
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٤٨).

وقلَّ من ينجو منه، فمن نوى بعمله غير وجه الله تعالى فلم يقُم بحقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فإن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي الحنيفيّة ملّة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام: ....

قوله: (**وقلَّ من ينجو منه**)، من المؤمنين؛ فخطره عظيم؛ فالإنسان يريد المدح، ويريد الثناء، ويريد المظهر اللائق به عند الناس؛ فيجمل عبادته، أو يتصنع من أجل المدح والثناء، وهذه هي المصيبة، والرياء يكون فيما يُرى، والسمعة تكون فيما يُسمع، يحسن صوته وتلاوته لأجل أن يمدحه الناس، ويتجمعون عليه، ويفرح هو بهذا، وهذه مشكلة، فعلى المسلم أن يخاف من هذا، يحسن صوته، وتحسين الصوت مطلوب، أمر به النبي ﷺ، ولكن لا يحسنه بقصد مدح الناس، وتجمع الناس عليه؛ بل يحسنه طاعة لله ﷻ.

قوله: (**فمن نوى بعمله غير وجه الله تعالى فلم يقُم بحقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾**)، قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تنفي الشرك الأصغر وتنفي الشرك الأكبر؛ فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ظاهرًا وباطنًا، لا نعبد غيرك، لا بأفعالنا ولا بأقوالنا ولا بنياتنا ومقاصدنا.

قوله: (**﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي الحنيفيّة ملّة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم**)؛ فالتوحيد الخالص هو الحنيفية، ملة إبراهيم، فإبراهيم كان حنيفًا مسلمًا، والحنيف هو: المقبل على الله، المعرض عما سواه، يريد بعباداته وجه الله، ولا يريد الناس بها، وهذا هو الحنيف، وهذه ملة إبراهيم التي أمرنا باتباعها، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، فنحن على ملة إبراهيم ﵇، في الإخلاص لله ﷻ، وعدم الالتفات إلى غيره في عباداتنا ونياتنا ومقاصدنا.

قوله: (**وهي حقيقة الإسلام**)؛ فالإسلام هو التوحيد، فهو إسلام الوجه لله ﷻ، ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢]، ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾: هذا التوحيد والإخلاص، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: أي: تارك للبدع،

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥]. **فاستمسك بهذا الأصل، ورُدَّ ما أخرجه المبتدعة والمشركون إليه تحقق معنى الكلمة الإلٰهيَّة.**

متبع لسُنَّة الرسول ﷺ، بهذين الشرطين تكون العبادة صحيحة: الإخلاص، والمتابعة، يا لها من آية عظيمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥]، المراد بالإسلام هنا: التوحيد، وإسلام الوجه لله ﷻ، وإخلاص العمل لله ﷻ، وهو دين جميع الأنبياء.

قوله: (فاستمسك بهذا الاصل)، وهو الإخلاص لله ﷻ، والاتباع للرسول ﷺ.

قوله: (ورُدَّ ما أخرجه المبتدعة والمشركون إليه تحقق معنى الكلمة الإلٰهيَّة)، ورُدَّ كل ما أحدثه المشركون والمبتدعة؛ لأنه مخالف لهذا الأصل؛ فالمبتدعة مخالفون لشريعة الرسول ﷺ، والمشركون مخالفون للتوحيد والعقيدة.



*** فإن قيل: المشرك إنما قصد تعظيم جناب الله تعالى، وإنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء؛ كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبيّة، وإنما قصد تعظيمه، وقال: إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه، وتدخل بي عليه، ....**

هذه الشبهة، يقولون: إن الذين يعبدون الأولياء والصالحين والقبور قصدهم تعظيم الله؛ لأن الله عظيم ولا يصل إليه أحد إلا بواسطة وشفعاء، فنحن نتخذ هؤلاء شفعاء عند الله لعظمة الله ﷻ، انظر كيف يطورون الشرك، ويزخرفونه، ويجعلون الشرك تعظيمًا لله، مع أن الشرك تنقّص لله ﷻ؛ لأننا لا نصل إلى الله إلا بواسطة هؤلاء، والله ﷻ يقول: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، ويقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ولم يقل بواسطة فلان أو علان، وقولهم: (**وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء؛ كحال الملوك**) من بني آدم لا يصل إليهم أحد إلا بالوسائط والشفعاء والوزراء، ونقول: الملوك والرؤساء:

أولًا: لا يعلمون أحوال الناس، فيحتاجون إلى من يبلغهم، والله ﷻ يعلم كل شيء.

وثانيًا: الملوك ولو علموا حوائج الناس، فهم لا يريدون قضاءها، إلا لو جاءهم شفيع وألح عليهم وأثّر عليهم فهم بحاجة إلى هذا الشفيع؛ فهم يقبلون شفاعته وواسطته؛ لأنهم بحاجة إليه، بحاجة إلى الوزير، وإلى المستشار فلو ردهم نفروا عنه، ولم يصبحوا له وزراء ولا مستشارين، وهو بحاجة إليهم، ولكن الله ليس بحاجة إلى أحد، فليس بحاجة إلى مُعين ولا إلى وزير ولا إلى ظهير، فهذا قياس باطل؛ لأنه قياس مع الفارق العظيم؛ فالله لا يُقاس بخلقه ﷻ. هذا ملخص الرد الذي سيأتي.

قوله: (وقال: وإنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه، وتدخل بي عليه)، هذا هو الذي قاله المشركون من قبل، ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ

فهو الغاية، وهذه وسائل.

*** فلمَ كان هذا القدر موجبًا لسخط الله تعالى وغضبه، مخلدًا في النار، وموجبًا لسفك دماء أصحابه، واستباحة حريمهم وأموالهم؟.**

*** وهل يجوز في العقل أن يشرع الله تعالى لعباده التقرّب إليه بالشفعاء والوسائط، فيكون تحريم هذا إنما استفيد بالشرع فقط، ....**

وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، فنحن لا نصل إلى الله إلا بواسطتهم.

قوله: (**فهو الغاية، وهذه وسائل**)، وسائل ووسائط ووسيلة، ويشبّهون على الناس بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، فيفسرون الوسيلة بالواسطة، في حين أن الوسيلة هي الطاعة والقرب من الله ﷻ، فالوسيلة إلى الله طاعته وامتثال أمره واجتناب نهيه، وليست الوسيلة الأشخاص، فهذا تفسير باطل، فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] أي: القرب منه سبحانه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي: يدعوهم الكفار، ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾؛ أي: هم أنفسهم بحاجة إلى أن يتقربوا إلى الله بالطاعة والعبادة، فكيف يُعبدون مع الله ﷻ وهم عباد؟.

قوله: (**فلمَ كان هذا القدر موجبا لسخط الله تعالى وغضبه، مخلدًا في النار، وموجبًا لسفك دماء أصحابه، واستباحة حريمهم وأموالهم؟**)، يقولون: إن قصدنا تعظيم الله، واتخذنا هؤلاء الشفعاء ليقربونا إلى الله زلفى، وليشفعوا لنا عند الله، فلماذا تكفروننا وتقاتلوننا وتسفكون دماءنا وتسبون نساءنا كما فعل النبي ﷺ مع المشركين، قاتلهم وهم يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، والرد عليهم أن يقال: (**وهل يجوز في العقل أن يشرع الله تعالى لعباده التقرّب إليه بالشفعاء والوسائط**)، فـ(**هل يجوز في العقل**) قبل الشرع، فالفطر تنكر أن الله ﷻ بحاجة إلى

أم ذلك قبيح في الشرع والعقل، يمتنع أن تأتي به شريعة من الشرائع، وما السر في كونه لا يغفر من بين سائر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

الوسطاء والشفعاء، لأنه يعلم كل شيء، ولأنه أرحم الراحمين، فلا يحتاج إلى من يؤثر عليه ويُعطّفه على الناس، هذا في ملوك الدنيا، أما الله ﷻ فليس بحاجة إلى من يُعطّفه على عباده، ويؤثر عليه في نفع عباده، فهو يريد هذا ﷻ، يريد الرحمة بعباده، ويريد لهم الخير، ويريد لهم التوبة والاستغفار، فليس بحاجة إلى من يؤثر عليه، كما يؤثر الشفعاء عند الملوك.

قوله: (أم ذلك قبيح في الشرع والعقل)، فالعقل ينزه الله عن ذلك، والشرع نهى عنه، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، فسمّاه شركًا ونزه نفسه عنه، فالآية صريحة في إبطال هذا، وفي الآية الأخرى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ فقد اعترفوا أنهم يعبدونهم، ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣]، فحكم عليهم بالكفر والكذب على الله ﷻ، هذا ما جاء به الشرع من إبطال اتخاذ الوسائط من الخلق بينهم وبين الله.

قوله: (يمتنع أن تأتي به شريعة من الشرائع)، لم تأت شريعة من شرائع الله بهذا الشيء، كل الشرائع تنهى عن هذا الشيء، وإنما هذا شيء أحدثه المشركون والمبتدعة كما سبق.

قوله: (وما السر في كونه لا يغفر من بين سائر الذنوب)، مع أن مغفرة الله واسعة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، فلماذا لا يغفر الله هذا الشرك، لماذا تقصر المغفرة عن هذا الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ من الذنوب والمعاصي والكبائر ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾،

....

فهذا دليل على خطورة الشرك، وأنه لا يُغفر بينما الله غفور رحيم، الله أخبر أنه لا يغفره لمن مات عليه، فهذا يدل على خطورة الشرك، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]، وفي الآية الثالثة: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥]؛ فالشرك لا يغفره الله، ويخلد صاحبه في النار، والشرك يحبط الأعمال كلها، فالشرك هو أخطر الذنوب، وأعظم ما نهى الله عنه هو الشرك، ومع هذا لا ينزجر هؤلاء عن الشرك؛ بل يتواصون به، ويقولون: هذا هو الدين، وهؤلاء متشددة يكفِّرون الناس، وهؤلاء وهابية.. وما أشبه ذلك من الكلام الباطل، فبدل أن يقبلوا الحق، يقابلونه بهذه المقابلات القبيحة.

قوله: (وما السر في كونه لا يغفر من بين سائر الذنوب)، السر هو أن هذا فيه صرف للعبادة لغير الله، هذا هو السر وفيه تنقص لله ﷻ، وتسوية لغيره به، هذا هو السر.



*** قلنا: الشرك شركان:**

*** شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.**

*** وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته.**

هذا هو الجواب عن السؤال، وهو سؤال وجيه ومفيد من المؤلف رَحِمَهُ اللهُ، فتنبه له.

قوله: (شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله)، هذا شرك في الربوبية.

قوله: (وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه ﷻ لا شريك له في ذاته ولا في صفاته) هذا الشرك في الألوهية، فكثير منهم يشركون في توحيد الألوهية، ويخلصون في توحيد الربوبية، وهذا دين المشركين، وهذا مع الأسف في عقائد المتكلمين الآن، يقررون توحيد الربوبية، فيقولون: الشرك هو أن تعتقد أن هناك خالقًا يخلق مع الله، وأن أحدًا يدبر مع الله، ولا يعتبرون الشرك في الألوهية شيئًا؛ بل يسمونه بغير اسمه، يقولون: هذا توسل وتقرب إلى الله بواسطة الصالحين!، فيسمونه بغير اسمه والعياذ بالله، فعلينا أن نتنبه لهذا الأمر، وأن نعالج هذا الأمر بحكمة وعلم ومجادلة بالتي هي أحسن ونبينه للناس بحكمة وموعظة حسنة، وجدال بالتي هي أحسن، لعل الله أن يهدي منهم من يشاء هدايته، ولا نتركهم ونيأس منهم، هم في ذمتنا، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝﴾ [التوبة: ١٢٢]، هذه فائدة أن الإنسان يطلب العلم ويتفقه في دين الله، فائدته أن يدعو إلى الله، وأن يبين للناس بعد أن يهتدي هو، ويحاول هداية الناس، قال ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**»[1]، فهذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

*** وأما الشرك الثاني وهو الذي فرغنا من الكلام فيه، وأشرنا إليه الآن، وسنشبع الكلام فيه إن شاء الله تعالى.**

فضل عظيم، وقال ﷺ لعلي بن أبي طالب: «**فَوَاللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ**»(١)؛ فالمطلوب أن يحاول الإنسان هداية الناس، مهما كلفه ذلك؛ لأنه في سبيل الله، ولكن لا يعنف على الناس ويقابلهم بالقسوة، ولا يقابلهم بالغلظة، هذا يُنفرهم، ولكن يقابلهم بما أمر الله به، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ لأن أغلبهم جهال ومروج عليهم، أما المعاند والذي لا يقبل فهذا أمره إلى الله، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]، فالذي يعلم الله من قلبه أنه يحب الهداية يهديه، أما من يعلم الله من قلبه أنه لا يحب الهداية ولا يريدها؛ فإن الله يضله، عقوبة له.

قوله: (وأما الشرك الثاني وهو الذي فرغنا من الكلام فيه، وأشرنا إليه الآن)؛ أي: الشرك في الألوهية، وهذا سبق الكلام فيه.



---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢).

* وأما الشرك الأول: فهو نوعان:

* أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك؛ كشرك فرعون في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣]؟، وقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

قوله: (الشرك الأول)؛ أي: الشرك في الربوبية.

قوله: (شرك التعطيل)، وهو قسمان:

تعطيل الكون من خالقه، ويُقال: إن الكون ليس له خالق، وإنما أوجدته الطبيعة، أو أوجدته حركات الأفلاك، أو ما أشبه ذلك، هذا شرك تعطيل، والعياذ بالله، وهو مشرك، الدهرية وغيرهم يقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، بتعطيل الخلق من خالقه، ونسبة الحوادث إلى أسباب فقط، وإلى أسباب كونية طبيعية، حوادث طبيعة، يقولون: ليس لله فيها تقدير ولا إيجاد، وإنما هي طبيعية، انتبه لهذه الكلمة، لا يقولون: هذه حوادث قدرها الله وعقوبات على الناس ويعظون الناس بها، لا؛ بل يقولون: هذه طبيعية، اطمئنوا، لا يهمكم هذا، هذه من أمور الدهر، ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥]، فهذا شيء طبيعي وقد جرت به العادة، لا تقولوا: إن هذه عقوبات على معاص، هذه الكوارث والزلازل والمصائب والأعاصير بأسباب طبيعية وتجري في الكون، ويهونون على الناس أمرها، فلا يبقى في قلوبهم خوف من الله ﷻ، فلا يتوبون منه؛ بل يقولون: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ فهذا شيء عادي كما يقولون، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: ١٣٧، ١٣٨]، هذا قول قوم عاد، فالكسوف والخسوف أحوال فلكية، فلا يتصور أن الله يغير فيها، وأن الله يحدث عندها عقوبات.

قوله: (وهو أقبح أنواع الشرك)؛ لأنه تعطيل للكون عن خالقه، ولا

....

ينسب الخلق إلى الله، وإنما ينسب إلى الطبيعة وإلى الأسباب العادية.

قول فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣]؟، هذا استفهام إنكار والعياذ بالله، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، تظاهر بهذا، وإلا فهو في قلبه وفطرته يعلم أن هذا الكون ليس من خلقه ولا من تدبيره، وإنما هو من تدبير الله، ولهذا قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، فهو مكابر والعياذ بالله، وإلا معلوم أنه لا يوجد مخلوق من دون خالق، ولا أثر من دون مؤثر، ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾؛ أي: يأتيهم الوحي من خلاله، ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٨]؛ أي: بحجة، إلى قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ [الطور: ٤٣، ٤٤] فلا يعتبرون ولا يتعظون؛ بل ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور: ٤٤] يقولون: هذا مطر، يقولون كما قال قوم عاد: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ﴾ [الأحقاف: ٢٤] وما زالوا في غيهم حتى أخذتهم الريح والعياذ بالله، وفرعون يقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨]، انظر إلى جرأته والعياذ بالله، وهامان هو وزير فرعون يأمره أن يوقد على الطين حتى يصير فخارًا، ويبني له مقصورة يصعد عليها إلى السماء، ويبحث عن إلٰه موسى الذي يدعوكم إليه.

❁ ❁ ❁

*** والشرك والتّعطيل متلازمان، فكل مشرك معطّل، وكل معطّل مشرك، لكن الشرك لا يستلزم أصل التّعطيل؛ بل قد يكون المشرك مقرًا بالخالق سبحانه وصفاته ولكنه معطل حق التّوحيد.**

قوله: (**والشرك والتّعطيل متلازمان، فكل مشرك معطّل**)؛ لأن المشرك عطل توحيد الله، وأشرك معه من لا يستحق العبادة، فعطل حق الله ﷻ، وليس كل معطل مشرك؛ فالتعطيل أعم، قد يكون المعطل لا يعترف بالله أصلًا، أما المشرك فهو يعترف بالله، ولكن يثبت مع الله شريكًا، فهو معطل من ناحية ومشرك من ناحية، ولكن المعطل الصِرف لا يعترف بالله أصلًا، وهذا معنى قوله: (**لكن الشرك لا يستلزم أصل التّعطيل؛ بل قد يكون المشرك مقرًا بالخالق** ﷻ **وصفاته ولكنه معطّل حق التّوحيد**) هذا حال المشركين الذين يعترفون بتوحيد الربوبية، ويجحدون توحيد الألوهية، فهم يعطلون التوحيد، ويعترفون بالله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. فهم معترفون بتوحيد الربوبية.



* وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها: هو التّعطيل، وهو ثلاثة أقسام:

* أحدها: تعطيل المصنوع عن صانعه.

* الثاني: تعطيل الصّانع عن كماله الثابت له.

* الثالث: تعطيل معاملته عمّا يجب على العبد من حقيقة التّوحيد.

* ومن هذا الشرك شرك أهل الوَحدة، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديّته، ....

قوله: (وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها: هو التّعطيل)؛ لأنه تعطيل لحق الله ﷻ.

قوله: (أحدها: تعطيل المصنوع عن صانعه)، هذا من أعظم أنواع التعطيل، جحود الخالق، وجعل المخلوقات أحدثت نفسها، أو أحدثتها الطبيعة، وأحدثتها حركات الأفلاك، والعقول العشرة كما يقول الفلاسفة، ويتخبطون في هذا.

قوله: (تعطيل الصّانع عن كماله الثابت له)، وهو تعطيل الأسماء والصفات عند الجهمية والمعتزلة.

قوله: (تعطيل معاملته عمّا يجب على العبد من حقيقة التّوحيد)، وهذا تعطيل العبادة لله ﷻ.

قوله: (ومن هذا الشرك شرك أهل الوَحدة)؛ أي: أهل وحدة الوجود، الذين يقولون: ليس هناك مخلوق وخالق، الكون كله هو الله؛ فالذي يقول: إن الكون ينقسم إلى مخلوق وخالق مشرك عندهم، أما الموحد فهو الذي يقول: ليس هناك مخلوق وخالق؛ بل الكون كله هو الله، وهم أهل وحدة الوجود؛ كابن عربي والحلاج، وأتباعهما.

قوله: (ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديّته)؛ أي: من يجحدون وجود الخالق، ويقولون العالم قديم وليس بمحدث.

وأن الحوادث بأسرها مستندة إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، ويسمّونها العقول والنفوس. ومنه شرك معطّلة الأسماء والصفات؛ كالجهمية والقرامطة وغلاة المعتزلة.

قوله: **(وأن الحوادث بأسرها مستندة إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، ويسمّونها العقول والنفوس)**، أي: ولا ترجع إلى الله ﷻ، وإنما هي أسباب موجودة تؤثر، تأثيرات هذه الأسباب؟ وليس لله فيها تدبير ولا خلق، من الذي خلق الأسباب وأوجد الأسباب، الأشياء لها أسباب ولكن من الذي خلق الأسباب، وجعل فيها خاصية المسببات إلا الله ﷻ؟

قوله: **(ومنه شرك معطّلة الأسماء والصفات؛ كالجهمية والقرامطة وغلاة المعتزلة)**، هذا النوع الثالث، وهو تعطيل الذين يؤمنون بالله، ولكن:

منهم من يعبد غير الله وهم المشركون؛ فيعطلون توحيد الألوهية، ويثبتون توحيد الربوبية.

ومنهم من يعبد الله، وهم الجهمية والمعتزلة، يعبدون الله، ولكن يجحدون أسماءه وصفاته، وإلا فهم لا يعبدون الأصنام ولا الأوثان ولا القبور؛ ولكن يجحدون الأسماء والصفات.

والجهمية: نسبة إلى الجهم بن صفوان؛ لأنه هو الذي اعتنق هذا المذهب ونشره، وإلا من قبله الجعد بن درهم وهو شيخه، والجعد أخذه عن طالوت اليهودي، وطالوت أخذه عن لبيد بن الأعصم اليهودي، هذا سند الجهمية، والعياذ بالله، فنسبة الجهمية إلى الجهم، ولكن الجهم هو الذي أظهر مذهبهم، ودعا إليه، فسميت الجهمية باسمه.

والقرامطة: وهم غلاة الشيعة الباطنية، من الفاطميين وغيرهم، وهم أتباع حمدان قرمط، صاحب القطيف بشرق الأحساء الذي جاء بجنوده وقتل الحُجاج في الحرم، وألقاهم في بئر زمزم، وذهب إلى عرفات وقتل الحُجاج فيها، وأخذ الحجر الأسود، وذهب به إلى كعبة بناها في هجر، وبقي الحجر

....

فوق عشرين سنة هناك، ثم رده الله إلى مكانه، فهؤلاء القرامطة أتباع حمدان قرمط، وهو من الباطنية.

وغلاة المعتزلة: وهم أتباع واصل بن عطاء الغزال، الذي اعتزل مجلس الحسن البصري؛ لأنه كان من تلاميذ الحسن البصري، فحصل خلاف بينهما في مرتكب الكبيرة، فالمعتزلة يرون أن مرتكب الكبيرة خارج من الإسلام، ولكنه لا يدخل في الكفر، فهو في منزلة بين منزلتين، والحسن البصري والسلف والصحابة والتابعون يقولون: مرتكب الكبيرة لا يكفر، ولا يخرج من الإسلام إذا كانت كبيرته دون الشرك، ولكن ينقص إيمانه؛ فيكون مؤمنًا ناقص الإيمان؛ فاسق بكبيرته، لكنه لا يكفر ولا يخرج من الإسلام، ويصير بمنزلة بين المنزلتين كما تقوله المعتزلة؛ فسموا معتزلة؛ لأنهم اعتزلوا علماءهم وانحازوا إلى أنفسهم، وابتكروا هذا المذهب الخبيث؛ فسموا بالمعتزلة.

ومذهب الجهمية: جحد الأسماء والصفات.

ومذهب المعتزلة: يجحدون الصفات، ويثبتون الأسماء بلا معاني، يقولون: الأسماء مجردة وليس لها معاني، ولا تدل على صفات.



*** النوع الثاني: شرك التمثيل، وهو شرك من جعل معه إلهًا آخر؛**

لما فرغ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بيان الشرك في توحيد الألوهية الذي هو مثار النزاع بين الأنبياء وبين أممهم من المشركين، ومعنى **(لا إلٰه إلا الله)** توحيد الألوهية، ثم انتقل إلى بيان الشرك الذي وقع في الربوبية، وهو على نوعين:

النوع الأول: شرك التعطيل والجحود، جحود الرب ﷻ، كما حصل من فرعون وغيره من المعطلة، الذين جحدوا وجود الرب سبحانه، وجود الخالق، وينسبون هذا الكون إلى الطبيعة، وإلى الأفلاك، وإلى العقول العشرة، وترهات ليس لها أصل، ولكن يزعمون أنهم فلاسفة، وأنهم عقلاء، ومع هذا يذهبون هذا المذهب الذي لا يُعقل حتى عند المجانين، وحتى البهائم تعرف أن كل أثر له مؤثر، ولكن كابروا العقول، وكابروا الفطر، فذهبوا إلى أن هذا الكون ليس له خالق، وأنه نتيجة طبيعة، أو تأثير كواكب أو أفلاك، وما أشبه ذلك من ترهاتهم.

والنوع الثاني: شرك التمثيل والتشبيه، فهم مثبتون وجود الله ﷻ، ولكنهم يشبهون به غيره، من مخلوقاته، ويمثلون ويجعلونها مثل وعديل وشبيهًا لله ﷻ، هذا شرك التمثيل؛ فالله ﷻ لا مثل له، لا ند، ولا شبيه له، كما أن الله نفى ذلك في آيات كثيرة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، هذا شرك والنوع الأول شرك التعطيل، يدخل فيه تعطيل المعتزلة الذين نفوا القدر وقالوا: إن الإنسان يخلق فعل نفسه، فأثبتوا خالقِين مع الله ﷻ.

وأما شرك التمثيل فهو أن يُجعل لله شبيه وند وسمي وعِدل من خلقه ﷻ، ومن ذلك ادعاء الولد لله ﷻ؛ لأن الولد شبيه بوالده، وجزء منه، وهذا مذهب النصارى الذين غلوا في المسيح، قالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وكذلك مذهب

كالنصارى في المسيح، واليهود في عزير، والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وإسناد حوادث الشر إلى الظلمة، وشرك القدرية المجوسيّة مختصر منه.

*** وهؤلاء أكثر مشركي العالَم، وهم طوائف جمّة:**

المشركين من العرب الذين جعلوا الملائكة بنات الله ﷻ، ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]؛ يعني: جعلوهم بنات لله ﷻ، ويزعمون أن الله أصهر إلى الجن فأنجب الملائكة، كما قال ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، يقولون: إنه تزوج من الجن فأنجب الملائكة. وهذه ترهات وأباطيل والعياذ بالله، وهذا شأن من أعرض عن الوحي، وعن اتباع الرسل، فإنه يقع في هذه الأمور التي تضحك العقلاء، وتخالف الفطر السليمة والعقول، ولكن من ترك الوحي فإنه يُبتلى بمثل هذه الخزعبلات وهذه الأباطيل والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، فلا عاصم منها إلا التمسك بالوحي والاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، ما يعصم من هذه الأمور غير الكتاب والسُّنَّة، والتمسك بالوحي المنزل.

فهذا شرك التشبيه، الشرك في الأسماء والصفات، أو في الربوبية؛ لأن الأسماء والصفات من الربوبية، والشرك فيها من التمثيل، والتشبيه، وهو ما وقع فيه المشبهة من النصارى وغيرهم، وكذلك التشبه بالله ﷻ.

قوله: (كالنصارى في المسيح، واليهود في عزير)، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وكذا المشركون قالوا: الملائكة بنات الله؛ فالله ﷻ رد عليهم فقال: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الصافات: ١٥٣]، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]؛ لأنهم يكرهون الإناث، ومع هذا ينسبونها لله، ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢]، ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الطور: ٣٩]، إلى غير ذلك من الأدلة التي ترد عليهم، فهم لا ينزهون الله عما نزهوا عنه أنفسهم.

* منهم: من يعبد أجزاء سماوية.

* منهم: من يعبد أجزاء أرضية.

* ومن هؤلاء: من يزعم أن معبوده أكبر الآلهة.

* ومنهم: من يزعم أن إلهه من جملة الآلهة.

* ومنهم: من يزعم أنه إذا خصّه بعبادته والتبتّل إليه أقبل إليه واعتنى به.

* ومنهم: من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه إلى الأعلى الفوقاني، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه، حتى تقرّبه تلك الآلهة إلى الله ﷻ، فتارة تكثر الوسائط، وتارة تقل.

قوله: (منهم: من يعبد أجزاء سماوية)، مثل عباد الكواكب، الشمس والقمر والنجوم، يعبدونها، ويشبهونها بالله ﷻ ويعبدونها.

قوله: (منهم: من يعبد أجزاء أرضية) وهم الذين يعبدون الأصنام والأشجار والأحجار والقبور والأضرحة.

قوله: (ومن هؤلاء: من يزعم أن معبوده أكبر الآلهة)، كل واحد يدعي أن معبوده أكبر الآلهة، ويفتخر به على الآخرين، وكلهم مبطلون، ولكن يزين لهم ما هم فيه، يزين لهم باطلهم؛ فكل يدعي أن معبوده من الجن والإنس والشجر والحجر والكواكب أنه أحسن من آلهة الآخرين، ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧].

قوله: (ومنهم: من يزعم أنه إذا خصّه بعبادته والتبتّل إليه أقبل إليه واعتنى به)؛ أي: إذا خص هذا المخلوق بعبادته واعتنى به؛ فإن هذا المخلوق يعتني بمن عبده.

قوله: (ومنهم: من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه إلى الأعلى الفوقاني، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه، حتى تقرّبه تلك الآلهة إلى الله ﷻ)؛ أي: ومنهم من يعترف أن معبوده أدنى؛ كالذين يعبدون الأصنام والأشجار

....

والأحجار والأموات ويقولون: نحن نعلم أنهم لا يضرون ولا ينفعون، ولكنهم يقربوننا إلى الله، ويشفعون لنا عند الله، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ هم معترفون بهذا، وأنه لا يضرهم ولا ينفعهم، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]؛ لأنهم صالحون، ولهم مكانة عند الله ﷻ، فهم يشفعون لنا ويقربوننا إلى الله زلفى، هكذا زين لهم الشيطان هذا العمل.



* فإذا عرفت هذه الطوائف، وعرفت اشتداد نكير الرّسول ﷺ على من أشرك به ﷻ في الأفعال والأقوال والإرادات كما تقدّم ذكره، انفتح لك باب الجواب عن السّؤال. فنقول: اعلم أن حقيقة الشرك: تشبيه الخالق بالمخلوق، وتشبيه المخلوقات بالخالق. أمّا الأول: فإن المشرك شبّه المخلوق بالخالق في خصائص الإلٰهيَّة، وهي: التفرّد بملك الضّر والنفع، والعطاء والمنع، فمن علّق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى، وسوّى بين التراب وربّ الأرباب؛ فأي فجور وذنب أعظم من هذا؟

ولهذا يعترفون إذا دخلوا النار هم ومعبودهم، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فالذين أمروهم بعبادتهم ورضوا بعبادتهم إياهم يدخلون معهم النار، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٩]، وفي هذا المصير يعترف المشركون بأنهم أخطأوا فيقولون لأصنامهم ومعبوداتهم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨]، اعترفوا أنهم وقعوا في الضلال في الدنيا حيث سوّوا هذه الأشياء بالله فعبدوها مع الله ﷻ، فشبهوها بالله، هذا مصيرهم يوم القيامة، أما الذين لم يرضوا بعبادتهم إياهم فأولئك الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢].



*** واعلم أن من خصائص الإلٰهيَّة: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلًا وشرعًا وفطرةً، فمن جعل ذلك لغيره فقد شبّه الغير بمن لا شبيه له، ولشدّة قبحه وتضمّنه غاية الظلم أخبر من كتب على نفسه الرّحمة أنه لا يغفره أبدًا.**

قوله: (من خصائص الإلٰهيَّة: الكمال المطلق من جميع الوجوه) فالرب ﷻ هو الكامل من جميع الوجوه، لا نقص يعتريه سبحانه؛ ولهذا نزه نفسه عن النقائص والعيوب فقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فنزّه نفسه عن كل النقائص، ونزّه نفسه عن الوالد والولد، ونزّه نفسه عن الصاحبة والزوجة؛ لأن هذه كلها نقائص؛ لأن الزوج بحاجة إلى الزوجة، فهو محتاج لها، والله ﷻ ليس بحاجة إلى أحد، ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]؛ يعني: زوجة، من أين يأتي الولد؟، فلا أحد يأتيه أولاد إلا من الزوجة.

قوله: (وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلًا وشرعًا وفطرةً)؛ فالعبادة يجب أن تكون للكامل من جميع الوجوه، ولا تكون العبادة للناقص.

قوله: (فمن جعل ذلك لغيره فقد شبّه الغير بمن لا شبيه له، ولشدّة قبحه وتضمّنه غاية الظلم أخبر من كتب على نفسه الرّحمة أنه لا يغفره أبدًا)؛ أي: أنه لا يغفر الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، مع أنه أرحم الراحمين، ولكن رحمته لا يدخل فيها المشرك؛ لأنه لم يدع مجالًا لشمول الرحمة له والعياذ بالله، فهو أرحم الراحمين، ولكنه لا يرحم المشرك يوم القيامة مع قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، فرحمته واسعة ومغفرة واسعة ولكنها لا تتسع للمشرك يوم القيامة؛ لعظيم جرمه والعياذ بالله؛ فإنه أجرم جرمًا لم يجرمه أحد من الخلائق؛ فلذلك قطع الله عنه

*** ومن خصائص الإلٰهيَّة: العبوديّة التي لا تقوم إلا على ساقي الحب والذّل، فمن أعطاهما لغيره فقد شبّهه بالله ـ تعالى ـ في خالص حقه. وقُبح هذا مستقر في العقول والفطر، ....**

رحمته ومغفرته وآيسه منها، وجعله خالدًا مخلدًا في النار، وهذا يدل على خطورة الشرك بالله ﷻ، ووجوب الحذر منه، والابتعاد عنه، وإخلاص العبادة لله ﷻ.

قوله: (ومن خصائص الإلٰهيَّة والعبوديّة التي لا تقوم إلا على ساقي الحب والذّل)، العبودية تقوم على قطبين: غاية الحب، مع غاية الذل، ثم العبادة كلها تدور على هذين القطبين؛ ولهذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله لا بالهوى والنفس والشيطان

قوله: (فمن أعطاهما لغيره فقد شبّهه بالله تعالى في خالص حقه)؛ فمن أحب أحدًا مع الله فقد أشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وكذلك الذي يذل ويخضع لغير الله هذا قد أشرك بالله ﷻ، فالله خلق هذا الإنسان حرًا، وحصّنه بعبادته؛ فإذا خرج من هذا الحصن وهو عبادة الله يُبتلى بعبادة غير الله، فيقع في الذل والهوان، وما دام متحصنًا بعبادة الله فإنه لا خوف عليه ولا ذل، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله: (وقُبح هذا مستقر في العقول والفطر)، توحيد الربوبية والاعتراف بأنه لا يستحق العبادة إلا الله ﷻ، وأن أحدًا لا يشاركه فيها كائنًا من كان، هذا هو مقتضى الفطر التي فطر الله الناس عليها، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ﴾ [الروم: ٣٠]؛ يعني: خالصًا لله، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠]؛ فالله خلق الخلق حنفاء على الفطرة، لكن الشياطين تجتالهم عن

لكن لما غيّرت الشياطين فطر أكثر الخلق، واجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، كما روى ذلك عن الله أعلم الخلق به وبخلقه(١)، عموا عن قبح الشرك حتى ظنّوه حسنًا.

فطرتهم، وتغير فطرتهم، والتربية السيئة تغير الفطرة، قال ﷺ: «**ما من مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ على الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أو يُمَجِّسَانِهِ**»(٢)، ولم يقل: يسلمانه؛ يعني: يجعلانه مسلمًا؛ لأن هذا هو الأصل، وأما اليهودية والنصرانية والمجوسية هذه طارئة، وليست هي الأصل.

قوله: (**لكن لما غيّرت الشياطين فطر أكثر الخلق، واجتالتهم عن دينهم**)، وقد ورد في الحديث القدسي: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ**» يعني: مفطرون على التوحيد، «**وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عن دِينِهِمْ**»(٣)، وليس هذا خاص بشياطين الجن؛ بل وبشياطين الإنس ودعاة الضلال يغيرون فطر الناس.

قوله: (**وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا**)؛ يعني: دليلا وحجة، فالشرك ليس عليه دليل أبدًا، وإنما الدليل على التوحيد، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤]، فليس على الشرك دليل أبدًا، وإنما هو شبهات، وحكايات، أو أحاديث مكذوبة يتعلقون بها، أو رؤى ومنامات يأتيهم بها الشيطان، فليس على الشرك دليل، ولا برهان، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فلا برهان على الشرك أبدًا، وإنما هي شبهات وأباطيل، لا تقوم أمام الحق أبدًا.

قوله: (**كما روى ذلك عن الله أعلم الخلق به وبخلقه**)؛ يعني: في الحديث: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

....

عن دِينِهِمْ»؛ فهذا حديث قدسي من كلام الله يرويه عنه رسوله ﷺ، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]؛ فالأصل أن الخلق خُلقوا على الفطرة السليمة، ولكن هذه الفطرة تتغير؛ وقد شبه النبي ﷺ ذلك بالشاة تولد جمعاء؛ أي: لها قرون وآذان؛ فيأتي الناس ويجدعون قرونها، وآذانها[١]، فهم يغيرون الخلقة؛ كذلك الشياطين يغيرون الفطرة.



---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٨).

* ومن خصائص الإلٰهيَّة: السّجود، فمن سجد لغيره فقد شبّهه به.
* ومنها: التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به.

قوله: (ومن خصائص الإلٰهيَّة: السّجود)، فلا يُسجد لأحد غير الله، ولا يركع لأحد وينحني لأحد غير الله ﷻ؛ فالركوع والسجود لا يليق إلا لله ﷻ، فمن سجد لغيره فقد أشرك، ومن ركع وانحنى لغيره فقد أشرك، وما يسمونه بالتحية، وينحنون أمامه فقد عبدوه، والآن هناك من الطوائف المنحرفة الضالة من يسجد لهم أتباعهم عند أقدامهم، وهذا شيء موجود عند الباطنية والآغاخانية والحلولية وغيرهم.

قوله: (فمن سجد لغيره فقد شبّهه به) أي: شبه المخلوق بالخالق؛ لأنه لا يستحق السجود إلا الله ﷻ.

قوله: (ومنها: التوكل)؛ أي: من أنواع العبادة: التوكل، وهو تفويض الأمور إلى الله ﷻ، والاعتماد عليه دون غيره، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة: ٢٣]، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾ [آل عمران: ١٢٢]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣]؛ فالتوكل من أعظم أنواع العبادة، وهو تفويض الأمور إلى الله وحده، أما أنك توكل أحدًا فهذا توكيل وليس توكلًا، وإنما هو توكيل وإنابة؛ فهذا لا بأس به فيما يقدر عليه؛ فالوكالة جائزة، ولكن التوكل هذا لا يكون إلا لله ﷻ؛ لأنه عبادة، ولا ينافي هذا أن تتخذ الأسباب النافعة، فأنت تجمع بين الأمرين: تعمل الأسباب النافعة مع التوكل على الله، ولا تتوكل على الأسباب، وإنما تتوكل على الله ﷻ.

❁ ❁ ❁

*** ومنها: التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبهه به. ومنها: الحلف باسمه تعظيمًا، فمن حلف بغيره فقد شبّهه به. ومنها: الذّبح له، فمن ذبح لغيره فقد شبّهه به.**

قوله: (ومنها: **التوبة**)، من أنواع العبادة: التوبة، وهي الرجوع من المعصية إلى الطاعة؛ فالتوبة من التوب، وهو الرجوع من المعصية إلى الطاعة، ومن الانحراف إلى الاستقامة، وهذا من أنواع العبادة، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٩٠].

قوله: (**فمن تاب لغيره فقد شبهه به**)، فالذين يأتون إلى الأولياء ويقولون: إن عندنا ذنوبًا، فنستغفر عندكم، يأتون عند القبر ويطلبون منه التوبة، فهذا شرك أكبر، والنصارى يأتون إلى القديس أو المعمدان ويطلبون منه الغفران، فيعطيهم صك الغفران، وكل هذا من الترهات والأباطيل، ومثلهم القبوريون الذين يأتون إلى الأولياء ويعترفون بالذنوب عندهم، ويزعمون أن الأولياء يضعون عنهم الذنوب والأوزار، حتى إنهم يخاطبون الرسول ﷺ عند قبره بذلك، يقول: أنا مذنب، وأنا فعلت كذا وكذا، وأنا وأنا. فلا يعترف عند الله ويطلب من الله المغفرة؛ بل يطلب عند قبر الرسول.

قوله: (ومنها: **الحلف باسمه تعظيمًا**)، من أنواع الشرك الحلف بغير الله، وقد عرفناه بأدلته؛ لأنه تعظيم للمحلوف به، والتعظيم لا يكون إلا لله ﷻ.

قوله: (ومنها: **الذّبح له**)، من أنواع العبادة الذبح على وجه التقرب، ذبح الحيوانات المأكولة كالإبل والبقر والغنم، تذبحها تقربًا إلى القبر، أو إلى المخلوق، فهذا شرك أكبر؛ لأن الذبح على وجه التقرب والعبادة لا يكون إلا لله، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢]، قرنه مع الصلاة، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾ [الأنعام: ١٦٢]، والنسك: هو الذبيحة، وقد قرنها مع الصلاة، فكما أنه لا تجوز الصلاة لغير الله فكذلك لا يجوز الذبح لغير الله، فمن ذبح لغير الله فقد أشرك الشرك الأكبر؛ فالذين يذبحون عند القبور، وعند قبور الأولياء والصالحين، هذا شرك أكبر، نسأل الله العافية.

*** ومنها: حلق الرّأس. إلى غير ذلك. هذا في جانب التّشبيه.**

*** وأمّا في جانب التّشبّه: فمن تعاظم وتكبّر، ودعا النّاس إلى إطرائه ورجائه ومخافته؛ فقد تشبّه بالله ونازعه في ربوبيّته، وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان، ....**

قوله: (ومنها: حلق الرّأس)، حلق الرأس يكون عبادة أحيانًا مثل حلق الرأس في الحج أو العمرة، هذا تفعله عبادة لله ﷻ، فلا يجوز أن تحلق رأسك تعظيمًا لأحد غير الله ﷻ، أما أن تحلق رأسك من باب التنظف، أو من باب إزالة الأذى فهذا لا بأس به.

قوله: (هذا في جانب التّشبيه)؛ أي: تشبيه المخلوق بالخالق.

قوله: (وأمّا في جانب التّشبّه)؛ أي: في جانب تشبه المخلوق بالخالق، مثل الكبر؛ فالمستكبر متشبه بالله ﷻ، ما الداعي أنه يستكبر فهو مخلوق ضعيف، فكيف يستكبر؟؛ فالكبرياء لله ﷻ، كل هذا لا يجوز؛ فالإنسان مخلوق ضعيف عليه أن يتواضع، ويعرف ضعفه، ولا ينفخ نفسه ويتعاظم؛ بل يتواضع لله ﷻ.

قوله: (فمن تعاظم وتكبّر، ودعا النّاس إلى إطرائه ورجائه ومخافته؛ فقد تشبّه بالله ونازعه في ربوبيّته)، من دعا الناس إلى تعظيمه وإلى تفخيمه، فهذا نوع من التعبد لغير الله ﷻ، أما إذا وقره الناس وهو لا يريد ذلك، ولا يتطلع إليه ولكن الناس احترموه ووقروه، فلا بأس بذلك، أما إن كان هو الذي يطلب من الناس، ويتطلع إلى أن يعظمه الناس، ومن لا يعظمه يغضب عليه، فهذا من حق الله ﷻ.

قوله: (وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان)؛ ولهذا جاء في الحديث: إن المتكبرين يوم القيامة يحشرون أمثال الذر[1]، أي: النمل الصغير يطأهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦٦٧٧).

ويجعله كالذّر تحت أقدام خلقه.

الناس والعياذ بالله، كما أن من تواضع لله رفعه الله، كما في الحديث: «**مَنْ تَوَاضَعَ للهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللهُ دَرَجَةً، حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ**»[1] قوله: (**ويجعله كالذّر تحت أقدام خلقه**) وذلك يوم القيامة.



---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١١٧٢٣).

*** وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «يقول الله ﷻ: «الْعَظمة إِزَاري، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائي، فَمَنْ نازعني في واحد منهما عَذَّبْتُهُ»[1].**

*** وإذا كان المصوّر الذي يصنع الصور بيده من أشد النّاس عذابًا يوم القيامة ....**

قوله ﷻ: «الْعَظمة إِزَاري، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائي، فَمَنْ نازعني في واحد منهما عَذَّبْتُهُ»؛ فالعظمة من صفات الله، والكبرياء من صفات الله؛ فمن تعاظم وتكبر فقد أشرك نفسه مع الله بما هو من صفاته، وخصائصه؛ فالإنسان يجب عليه أن يُحقر نفسه، وأن يتواضع، وأن يذل، وأن يرى نفسه من أصغر الناس، ومن أضعف الناس، حتى ولو كان في منصب رفيع، فيجب أن يرى نفسه إنسانًا ضعيفًا، ويروى أن خليفة طلب من عالم ناصح موعظته؛ فطلب من الخليفة ماء ليشرب؛ فقال له يا أمير المؤمنين لو أنك ظمئت وقيل لك نعطيك هذا الماء بنصف ملكك وإلا ستهلك من العطش؛ فقال الخليفة: نعم؛ أشتريه بنصف الملك، فقال: إذا اشتريته بنصف ملكك وذهب عنك العطش، وانحبس البول فيك وقيل لك لا يخرج البول إلا بنصف ملكك، فقال الخليفة: أعطيه ذلك ولا أموت بسببه، فقال العالم: بئس الملك الذي يذهب بشربة وبوله. فاطلب ما عند الله الذي لا ينفد، فهذه موعظة عظيمة.

قوله: (وإذا كان المصوّر الذي يصنع الصور بيده من أشد النّاس عذابًا يوم القيامة...)، صناعة الصور تشبَّه بالله؛ لأن الله هو المصور وهو الخلاق، فهذا المخلوق الضعيف يحاول أن يتشبه بالله فيوجد صورة على شكل ما خلقه الله، فيجعل لها عينين وفمًا، ويجعل لها يدين ورجلين، ولكن لا يقدر أن ينفخ فيها الروح، والمشكلة أنهم الآن يسمونه بالفن التشكيلي؛ فالتصوير يعتبرونه من الفنون، ويعظمون المصور هذا والفنان، هو يقدر أن ينحت الحجر

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد (٧٣٨٢ ـ ٨٨٩٤) وسنن أبي داود (٤٠٩٢)، وجاء في صحيح مسلم (٢٦٢٠) بلفظ: «الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ».

....

أو الطين ويجعله على صورة لها يدين ورجلين ولها صورة عينين، وفم وأنف، يقدر على هذا، ولكن يبقى أنه لا يستطيع أن ينفخ فيها الروح؛ لأن هذا من خصائص الله ﷻ، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ فلذلك يُعجزه الله يوم القيامة؛ فيأتي بالمصورين فيقول لهم: «أَحْيُوا ما خَلَقْتُمْ»[١]؛ أي: انفخ فيه الروح، فلا يستطيع، فهو يأمره أمر تعجيز وتعذيب وخزي والعياذ بالله؛ لأن الروح لا يقدر عليها إلا الله ﷻ، فلا يجوز التصوير، لا بالرسم باليد، ولا بالنحت، ولا بالالتقاط بالآلة الكهربية؛ فكل هذا يدخل تحت مسمى التصوير، والمصور متشبه بالله؛ ولهذا قال الله ﷻ في الحديث القدسي: **«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؟»**[٢]، وفي الحديث الآخر: **«أَشَدُّ الناس عَذَابًا يوم الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ»**[٣]، يضاهون: أي: يحاولون أن يوجدوا صورة تشبه ما خلق الله ﷻ، فهذا من خصائص الله، ولا يجوز لأحد أن يعمله، فيحترف التصوير أو يعمل بالتصوير، ويعتبر هذا فنًا من الفنون ويأخذ عليه جوائز، نسأل الله العافية، هذا من أكبر الكبائر، وفي الحديث الآخر: **«أَشَدُّ الناس عَذَابًا يوم الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ، يُقَالُ لهم: أَحْيُوا ما خَلَقْتُمْ»**، فلا يستطيعون أن يحيوها، فإذا لم يستطيعوا أن يحيوها عذبهم الله ﷻ، فالموقف عظيم والخطر عظيم، ولكن يبقى إذا احتاج الناس إلى الصورة حاجة ضرورية، مثل أن تكون لأجل إثبات الشخصية، أو ضبط الجرائم أو ضبط الأمن، فهذا يباح للضرورة، والله ﷻ قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ﴾ [الأنعام: ١١٩]، فإذا اضطر الناس إلى التصوير فيصورون في أضيق صورة، ولا ينبسطون ويتوسعون ويجعلونه فنًا من الفنون، ويعلقونه على جدرانهم

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٠٥).
(٢) أخرجه البخاري (٧٥٥٩).
(٣) أخرجه البخاري (٥٩٥٤).

لتشبّهه بالله في مجرّد الصّنعة، فما الظّن بالمتشبّه بالله في الربوبيّة والإلٰهيَّة؟، كما قال ﷺ: «أَشَدُّ الناس عَذَابًا يوم الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ، يُقَالُ لهم: أَحْيُوا ما خَلَقْتُمْ»(١).

ومجالسهم أو في الشوارع، هذا مضاهاة لخلق الله، وهذا كبيرة من كبائر الذنوب، فلا تجعل في بيتك تصاوير، قال ﷺ: **«لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ ولا صُورَةُ تَمَاثِيلَ»**(٢)، فلا تدخله ملائكة الرحمة، وإذا لم تدخله ملائكة الرحمة فتدخله الشياطين، فلا تبقي في بيتك تصاوير أبدًا إلا الصورة التي تحتفظ بها للضرورة فقط، أما ما كان للذكريات، أو للفنون، فهذا كله لا يجوز، وإن تساهل فيه الناس، وصاروا يضحكون على من ينكر التصوير، ويصفونه بالمتشدد، ويصفونه بأوصاف: كالمتشدد، أو المتطرف، إلى آخره، فما علينا منهم؛ بل علينا من ديننا.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧] أنها في المصورين(٣)؛ فالتصوير أذية لله، فالله ﷻ يتأذى ولكنه لا يتضرر، قال الله ﷻ: **«يُؤْذِينِي بن آدَمَ»**(٤) فهذا يدل على أن الله يتأذى بأفعال عباده، ولكنه لا يتضرر ﷻ؛ فإنه لا يضره شيء.

قوله: (لتشبّهه بالله في مجرّد الصّنعة)، يعني: الذي يصنع الصور ويبيعها ويعملها للناس حرفة له، هذا من أشد الناس عذابًا يوم القيامة، ومكسبه الذي يأخذه من ورائها حرام؛ لأنه في مقابل صنعة محرمة، والذي لم يصنعها ولكنه يبيعها هذا أيضًا يأكل حرامًا؛ لأنه يبيع شيئًا محرمًا.

قوله: (فما الظّن بالمشبّه بالله في الربوبيّة والإلٰهيَّة؟)؛ فهذا أشد.

قوله ﷺ: «يُقَالُ لهم: أَحْيُوا ما خَلَقْتُمْ»، ولا يملك الحياة إلا الله ﷻ.

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٥٩٥٠ ـ ٥٩٥١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٢٥).
(٣) انظر: تفسير ابن جرير وابن كثير.
(٤) أخرجه البخاري (٤٨٢٦).

*** وفي «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «يقول الله ﷻ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً وَلْيَخْلُقُوا شعيرة»[1].**

*** فنبّه بالذّرة والشعيرة على ما هو أعظم منهما.**

قوله ﷻ: **«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً وَلْيَخْلُقُوا شعيرة»**، الذرة: النملة الصغيرة، فهم لا يقدرون على ذلك وهم يزعمون أنهم فنانون وأنهم يصورون الصورة على شكل ما خلق الله، فالله يتحداهم، ويقول لهم: اخلقوا ذرة، حشرة صغيرة، أو اخلقوا حبة الشعير وهي جماد، فلا يقدرون على إيجاد الجماد، ولا على إيجاد الحيوان، فلا يقدر على هذا إلا الله ﷻ؛ لأن الخلق لله ﷻ، هو الخلاق، فلا يقدر على الخلق إلا هو، هو الخالق سبحانه، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ [الحجر: ٨٦]؛ فالله تحدى المشركين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ فلو اجتمع كل من في الدنيا من الصُناع والمخترعين ومن الأطباء كلهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا.



---

(١) انظر: صحيح البخاري (٧٥٥٩)، وصحيح مسلم (٢١١١).

* وكذلك: من تشبّه به تعالى في الاسم الذي لا ينبغي إلا له؛ كملك الملوك، وحاكم الحكّام، وقاضي القضاة، ونحوه. وقد ثبت في «الصحيحين» عنه أنه قال: «إن أَخْنَعَ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ، لا مالك إلا الله»(١). وفي لفظ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عند اللهِ رَجُلٌ تسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ»(٢).

قوله: (وكذلك: من تشبّه به تعالى في الاسم الذي لا ينبغي إلا له؛ كملك الملوك، وحاكم الحكّام، وقاضي القضاة، ونحوه)؛ كذلك التشبه بالله في التسمي باسمه الذي لا ينبغي إلا له، أما الأسماء الأخرى مثل: العزيز، الملك، هذا لا بأس، أما (الله) ﷻ، فلا أحد يتسمى بالله، حتى فرعون ما قال: أنا الله، قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: ٢٤]، فمن سمى نفسه (الله)؛ فهذا ـ والعياذ بالله ـ من أكفر الخلق، وكذلك (الخلاق)، (الخالق)، فلا أحد يسمي نفسه (الخالق)، أو (الخلاق)، وكذا (ملك الملوك)، و(شاهان شاه) هذا حرام، ولا يجوز التسمي بهذا الاسم؛ لأن هذا من خصائص الله ﷻ، أما نفس الملك فالله ملك، ولكن أيضًا المخلوقين فيهم ملوك، ويقال: الملك فلان.

(حاكم الحكام) و(ملك الملوك)، و(قاضي القضاة)، هذه أسماء خاصة بالله؛ الله هو الذي يقضي بين خلقه يوم القيامة، القضاة وغيرهم يحضرون يوم القيامة فيقضي الله بينهم.

قوله ﷺ: «إن أَخْنَعَ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ»؛ يعني: أنقصها وأذلها، «رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ، لا مالك إلا الله»، هذا لا يليق إلا بالله سبحانه.



---

(١) انظر: صحيح البخاري (٦٢٠٥ ـ ٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣).
(٢) انظر: صحيح مسلم (٢١٤٣).

*** وبالجملة: فالتّشبيه والتّشبّه هو حقيقة الشرك؛ ولذلك كان من ظن أنه إذا تقرّب إلى غيره بعبادته يقرّبه ذلك الغير إليه فإنه يخطئ، لكونه شبّهه به، وأخذ ما لا ينبغي أن يكون إلا له، ....**

لما بيّن المؤلف رحمه الله فيما سبق أن الشرك ينقسم إلى قسمين:

الأول: تشبيه الخالق بالمخلوق، والعدل به تعالى، ويعدل به أحد من خلقه، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١].

الثاني: التشبه بالخالق؛ بأن يحمل الإنسان صفة الكبر والعظمة في نفسه، والافتخار وغير ذلك، فهذا تشبه بالخالق في صفاته سبحانه، وعظمته وكبريائه؛ فإن المخلوق ضعيف يجب عليه أن يعترف بضعفه، وأن يتواضع لله عز وجل.

ثم قال: (وبالجملة)؛ يعني: جملة ما سبق في هذه العبارة الآتية، **(فالتّشبيه والتّشبّه هو حقيقة الشرك)**؛ يعني: تعريف الشرك؛ فإذا عرفته تقول: الشرك هو تشبيه الخالق بالمخلوق، أو تشبيه المخلوق بالخالق بأن تجعل له شيئًا من العبادة، أو التشبه بالخالق بأن تشارك الله في عظمته وكبريائه وجلاله، والشرك أيضًا يعبر عنه بأنه صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله تعالى؛ كالذبح والنذر والخوف والرجاء والسجود والتعظيم وغير ذلك.

قوله: (ولذلك كان من ظن أنه إذا تقرّب إلى غيره بعبادته يقرّبه ذلك الغير إليه فإنه يخطئ، لكونه شبّهه به، وأخذ ما لا ينبغي أن يكون إلا له)، فمن شبه المخلوق بالخالق فتقرب إلى المخلوق بشيء من أنواع العبادة يظن أن هذا المخلوق يتوسط له عند الله فيشفع له عند الله، ويقربه عند الله زلفى، فقد أعطى المخلوق ما ليس له؛ لأن العبادة حق لله عز وجل.

والشرك منعه ـ سبحانه ـ حقّه، فهذا قبيح عقلًا وشرعًا[1]؛ ولذلك لم يشرع، ولم يغفر لفاعله.

قوله: (والشرك منعه ـ سبحانه ـ حقّه، فهذا قبيح عقلًا وشرعًا؛ ولذلك لم يشرع، ولم يغفر لفاعله)، الشرك هو جعل شيء من حق الله الخالص به سبحانه للمخلوق؛ فالعبادة خاصة بالله فلا يجوز أن يُعبد المخلوق بشيء من أنواع العبادة، فهذا أعظم الظلم، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]؛ لأن العبادة وضعت في غير موضعها، وذلك حقيقة الشرك، وأيضًا المشرك لا يغفر الله له مع أن الله غفور رحيم، رحمته وسعت كل شيء وواسع المغفرة، ولكن لما تجاوز المشرك، حدود المغفرة، وحدود الرحمة؛ فعبد غير الله لم تنله رحمة الله، ولا مغفرته، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].



---

(١) في بعض النسخ: «فأشرك معه سبحانه فيه غيره، فبخسه سبحانه حقه، فهذا قبيح عقلًا وشرعًا. ولذلك لم يشرع، ولم يغفر، فاعلمه».

*** واعلم أن الذي ظن أن الرّب لا يسمع له، أو لا يستجيب له إلا بواسطة تُطلعه على ذلك، أو تسأل ذلك منه؛ فقد ظنّ بالله ظنّ السّوء؛ فإنه إن ظنّ أنه لا يعلم ولا يسمع إلا بإعلام غيره له وإسماعه ذلك؛ ......**

هذا الكلام وما بعده منقول من كلام الإمام ابن القيم في فوائد غزوة الأحزاب من كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» وهو كلام طويل اختصره المؤلف باختصار جيد.

فمن زعم أن الله لا يسمع دعاءه إلا بواسطة من يبلغه سبحانه، أو أن الله لا يستجيب إلا بواسطة من يتوسط عند الله، يُعطّف الله على عبده، مثلما يُفعل عند الملوك، (**فقد ظنّ بالله ظنّ السّوء**)، قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]؛ فالمنافقون ظنوا بالله ظن السوء، حيث إنهم ظنوا أنه لا ينصر رسوله، وأنه لن يرجع هو وأصحابه من الغزو، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]، وذلك في غزوة تبوك وغيرها، يظنون أن الرسول سيقتل، وأن الصحابة سيهزمون، فهذا ظن بالله ظن السوء، ظن أن الله لن ينصر رسوله، ولا ينصر عباده المؤمنين، ويظهر عليهم الكفار والمشركين إظهارًا مستمرًا، أما أنه يظهر عليهم الكفار والمشركين في بعض الأحيان لسبب من قبل المؤمنين، ويعاقبهم الله، فهذا واقع، ولكن من ظن أنه لا ينصر رسوله ولا أولياءه وأنه يديل الباطل إدالة مستمرة فهذا قد ظن بالله ظن السوء، ومن ظن أن الله لا يبعث عباده ويجازيهم بأعمالهم فقد ظن بالله ظن السوء، وظن به عدم العدل بين عباده، وظن به العبث إلى غير ذلك، ومن ظن أن الله لا يبعث رسولًا ولا ينزل كتابًا ويترك الناس على عقولهم فهذا ظن بالله ظن السوء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام: ٩١]، يخاطب اليهود الذين قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، يريدون أن ينكروا رسالة محمد ﷺ، ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ

فهذا نفي لعلم الله وسمعه وكمال إدراكه، وكفى بذلك ذنبًا.

* وإن ظنّ أنه يسمع ويرى ولكن يحتاج إلى من يليّنه ويعطّفه عليهم، فقد أساء بأفضال ربّه وبرّه وإحسانه وسعة جوده.

* وبالجملة فأعظم الذنوب عند الله إساءة الظّن، ولهذا يتوعّدهم في كتابه على إساءة الظّن به أعظم وعيد، كما قال تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٦]، ....

تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام: ٩١]، فهم لا يستطيعوا أن يقولوا: لا، أبدًا.

قوله: (**فهذا نفي لعلم الله وسمعه وكمال إدراكه، وكفى بذلك ذنبًا.**) وظنًّا بالله ظن السوء.

قوله: (**وإن ظنّ أنه يسمع ويرى ولكن يحتاج إلى من يليّنه ويعطّفه عليهم، فقد أساء بأفضال ربّه وبرّه وإحسانه وسعة جوده**)، الذين يتخذون الوسائط بينهم وبين الله ليقربوهم إلى الله زلفى، ويشفعوا لهم عند الله، هؤلاء ظنوا بالله ظن السوء، وجحدوا علمه ورحمته بعباده، وجحدوا سمعه وبصره، وأنه يحتاج إلى المبلغين، وجحدوا عطفه على عباده ورحمته بعباده حتى يتوسط أحد عنده مثلما يتوسط أحد عند المخلوقين، فيُعطفهم، هذا من ظن السوء بالله ﷻ.

قوله: (**وبالجملة فأعظم الذنوب عند الله تعالى إساءة الظّن، ولهذا يتوعّدهم في كتابه على إساءة الظّن به أعظم وعيد**)، قال تعالى: ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١٢].

وفي سورة (الفتح) قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح: ١]، والمراد به صلح الحديبية، وقد اعتبره فتحًا عظيمًا، ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا

وقال تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧]؛ **أي: فما ظنّكم أن يجازيكم إذا عبدتم معه غيره، وظننتم أنه يحتاج في الاطلاع على ضروريات عباده، لمن يكون بابًا للحوائج إليه، ونحو ذلك.**

عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح: ٢، ٣]، هذا ما أعطاه الله للرسول ﷺ في صلح الحديبية، وللمؤمنين وصحابة الرسول ﷺ، قال ﷻ: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الفتح: ٥]، ثم ذكر المنافقين الذين أساءوا الظن بالله ﷻ، فقال: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٦]؛ فالمنافقون الذين ظنوا أن الله لا ينصر رسوله، وأنه لا ينصر عباده المؤمنين، وأنه لا يغفر لهم، ولا يتفضل عليهم؛ فالله ﷻ يعذبهم على هذا الظن السيئ، وحتى المشركين في يوم القيامة يقول الله ﷻ لهم: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣]، الكفار والمشركون ظنوا بالله ظن السوء؛ فلذلك صاروا في جهنم يوم القيامة.

قوله: (وقال تعالى عن خليله إبراهيم - ﷺ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾)، فالمشرك ظن بالله ظن السوء حيث أشرك به من ليس له شيء من العبادة، فأشركه مع الله ﷻ، فإبراهيم عليه السلام قال لأبيه وقومه ينكر عليهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام، ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء: ٧٠ - ٧٤] فليس لهم حجة إلا التقليد، وفي الآية الأخرى، قال لهم: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا﴾ يعني: كذبًا، ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٥ - ٨٧]، ما هو هذا الظن الذي ظننتم برب العالمين فأشركتم معه هذه الأصنام، وهذه الجمادات الناقصة العاجزة.

*** وهذا بخلاف الملوك، فإنهم محتاجون إلى الوسائط ضرورةً لحاجتهم وعجزهم وضعفهم، وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين.**

*** فأما من لا يشغله سمع عن سمع، وسبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرّحمة، فما تصنع الوسائط عنده؟.**

قوله: (وهذا بخلاف الملوك)، فهم يقولون: كما أنك تحتاج إلى الوسائط عند الملوك؛ فأيضًا تحتاج إلى الوسائط عند الله، فيقيسون الله بخلقه، وهذا من سوء الظن بالله ﷻ، ومن تنقص الله حيث شبهوه بالملوك، والملوك بشر لا يدرون عن حوائج الرعية إلا إذا بلغوا عنها، وأيضًا لو بُلغوا فقد لا يريدون قضاء حوائجهم، إلا بمن يُعطفهم ويرقق قلوبهم للرعية أو للمحتاجين، أما الله ﷻ فإنه لا يخفى عليه شيء، وهو سبحانه يرحم عباده، ويُنعم عليهم، فليس بحاجة إلى من يعطفه على خلقه.

قوله: (فإنهم محتاجون إلى الوسائط ضرورةً)، فالملوك محتاجون إلى الوسائط والوزراء ليبلغوهم عن أمور الرعية ويعينوهم على قضاء حوائج الرعية، فلا يقوى بنفسه أن يقوم بكل شيء، أما الله ﷻ فإنه لا يعجزه شيء، ولا يخفى عليه شيء، فهو الغني عن خلقه فليس بحاجة مثل حاجة الملوك إلى ما يصلح ملكهم ويعينهم على تصريفه؛ وهذا فيه رد على من يعبدون القبور وهم يقولون: نحن نعلم أنهم لا يضرون ولا ينفعون ولا يملكون من الأمر شيئًا، ولكن لكونهم صالحين فإنهم يشفعون عند الله ويقربون إلى الله زلفى، ويصرفون لهم من أنواع العبادات، من الذبح والنذر والاستغاثة وغير ذلك عند قبورهم، ويقولون: ليقربونا عند الله، هذه مقالة المشركين من قبلهم، يقولها القبوريون اليوم ويرددونها من غير خجل ولا حياء، وهم يقرأون القرآن ويحفظونه؛ بل ربما يقرأون بالقراءات السبع، ومع هذا ما يقلعون عن هذه الجريمة، والقرآن ينادي بوضوح وبيان أن هذا باطل.

قوله: (فما تصنع الوسائط عنده؟) فهو ليس بحاجة إلى الوسائط.

❁ فمن اتخذ واسطةً بينه وبين الله تعالى فقد ظنّ به أقبح الظن، ومستحيل أن يشرعه لعباده؛ بل ذلك ممتنع في العقول والفطر.

❁ واعلم أن الخضوع والتألّه الذي يجعله العبد لتلك الوسائط قبيح في نفسه، كما قرّرناه، لا سيما إذا كان المجعول له ذلك عبدًا للملك العظيم الرّحيم القريب المجيب، ومملوكًا له.

قوله: (ومستحيل أن يشرعه لعباده؛ بل ذلك ممتنع في العقول والفطر)؛ أي: مستحيل أن يشرع الله لعباده أن يتقربوا إليه بالصالحين والأولياء ويتوسطوا عنده؛ لأن هذا يتنافى مع كمال علمه وسمعه وبصره ورحمته ولطفه بعباده.

قوله: (واعلم أن الخضوع والتألّه الذي يجعله العبد لتلك الوسائط قبيح في نفسه)، فكونه يخضع لهؤلاء الأموات، ويذل لهم ويدعوهم ويستغيث بهم، ويذبح لهم، وينذر لهم، ويقول: أنا أعلم أنهم خلق، وأنهم لا ينفعون ولا يضرون، ولكن لا أريد منهم إلا الشفاعة، والوساطة عند الله. فنقول: هل الله أمرك بهذا، أن تجعل بينك وبينه واسطة، أم أمرك أن تدعوه مباشرة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ولم يقل: ادعوني بواسطة فلان أو علان.

قوله: (لا سيما إذا كان المجعول له ذلك عبدًا للملك العظيم الرّحيم القريب المجيب، ومملوكًا له)، فهذا من أقبح الأمور، أن تجعل المملوك شريكًا للمالك في قضاء حوائج العباد، وإغاثة الملهوف وغير ذلك، فهذا من أقبح الأفعال والاعتقادات.



* **كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾** [الروم: ٢٨]؛ **أي: إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفردٌ به، وهو الإلٰهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصلح لسواي، فمن زعم ذلك فما قدرني حقّ قدري، ولا عظّمني حقّ عظمتي.**

كان المشركون يلبون إذا أحرموا بالحج، أو بالعمرة، وكانوا يقولون في تلبيتهم: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لك، إلا شَرِيكًا هو لك، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ»، فلبى النبي ﷺ بالتوحيد، فقال: «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لك لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لك وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لك**»، فنفى الشرك عن الله سبحانه، وألغى هذه الكلمة القبيحة، وأنزل الله في ذلك: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، فأنتم تقولون: «إلا شَرِيكًا هو لك، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ»، فهل أنت ترضى لنفسك أن يكون عبدك شريكك؟ فكيف ترضى أن يكون عبد الله شريكًا له، فترضى لله ما لا ترضاه لنفسك، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٢٨ ـ ٣٠]، هكذا يبين الله ﷻ التوحيد، وينهى عن الشرك، ويبطل شبهات المشركين، فهذه الشبهة أبطلها الله ﷻ؛ لأنهم لا يرضون هذا لأنفسهم، لا يرضى أحد أن يكون عبده ومملوكه شريكًا له في ماله، فكيف يرضى هذا لله ﷻ.

❁ ❁ ❁

*** وبالجملة: فما قدَر الله حقّ قدره من عبد معه من ظنّ أنه يوصل إليه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ الآية، إلى أن قال: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣ ـ ٧٤].**

*** وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].**

*** فما قدّر القويّ العزيز حقّ قدره من أشرك معه الضّعيف الذّليل.**

*** واعلم أنك إذا تأمّلت جميع طوائف الضّلال والبدع، ....**

قال تعالى في سورة (الحج): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ ما هو هذا المثل؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأشجار والأموات والأحجار والملائكة والرسل، وجميع العباد، ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾؛ فالعبادة لا يستحقها إلا الخالق، وهؤلاء لا يخلقون شيئًا، وهم يُخلقون، فكيف تعبدونهم، كيف تعبدون المخلوق العاجز مع الخالق القادر ﷻ، هذا من براهين التوحيد، وإبطال الشرك، ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ فالذباب هو أضعف شيء وأقل شيء، لو اجتمع الإنس والجن والأطباء وحذاق العالم يريدون أن يخلقوا ذبابًا ما استطاعوا لينفخوا فيه الروح ويجعلوه يتحرك ويذهب ويأتي، لا يمكن، يمكن أن يصوروا الذباب، أو يصنعوا تمثالًا مثل الذباب، ولكنهم لا ينفخون فيه الروح ويجعلونه حيًا، فلا أحد يقدر على هذا، ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾؛ بل: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]. فمن أشرك بالله فما قدَره حق قدره ﷻ؛ لأنه لا يقبل الشرك، والشرك تنقّص له ﷻ.

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾، وقال تعالى في آخر سورة (الزمر): ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ أي: ما عظموه حق تعظيمه،

وجدت أصل ضلالهم راجعًا إلى شيئين:

* أحدهما: ظنهم بالله ظنّ السّوء.

* والثاني: أنهم لم يقدروا الرّب حقّ قدره.

* فلم يقدره حقّ قدره: من ظنّ أنه لم يرسل رسولًا، ولا أنزل كتبًا؛ بل ترك الخلق سدى، وخلقهم عبثًا.

﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ فالأرض بجبالها وبحارها وجميع محتوياتها يقبضها الله ﷻ بيده يوم القيامة، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾؛ أي: السمٰوات أيضًا يقبضها الله تعالى باليد الأخرى، على سعتها وعظمتها، فهذا يدل على عظمة الله ﷻ، بحيث يطوي السمٰوات بيمينه، ويقبض الأرض بيده الأخرى، هذا يدل على عظمته، فكيف يُشرك به المخلوق الضعيف الذي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، وهو من أضعف الناس، ثم قال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر: ٦٧].

قوله: **(وجدت أصل ضلالهم راجعًا إلى شيئين...)**؛ فالمشرك جمع بين الأمرين: **أولًا**: أنه ما قدر الله حق قدره حيث ساوى المخلوق الضعيف به ﷻ، **والثاني**: أنه ظن بربه ظن السوء وأنه عاجز وبحاجة إلى من يعينه.

قوله: **(فلم يقدره حقّ قدره من ظنّ أنه لم يرسل رسولًا، ولا أنزل كتبًا؛ بل ترك الخلق سدى، وخلقهم عبثًا)**، كما يقوله الدهريون الذين يزعمون أن هذا الكون ليس له خالق، وأنه وُجد صدفة، أو نتيجة لتفاعلات المواد الكونية، وليس له خالق، تعالى الله عن ذلك، وكذلك الذين يجحدون أن الله أرسل رسولًا أو أنزل كتابًا، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: ٩١]؛ فيظنون أن الله سيهمل عباده، ولا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يوجههم بما فيه خيرهم، ولا ينهاهم عما فيه ضررهم، فيتركهم، وهذا سوء ظن بالله ﷻ، ونقص في حقه، ما قدره حق قدره من قال ذلك من الفلاسفة، ومن العقلانيين الذين يقولون: إن العقول تكفي من دون شرع؛ فالعقل يكفي عندهم، فيألهون العقل، والعياذ بالله.

*** ولا قدره حقّ قدره: من نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده، من طاعاتهم ومعاصيهم، وأخرجها عن خلقه وقدرته.**

*** ولا قدر الله حقّ قدره: أضداد هؤلاء، ....**

قوله: **(من نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده، من طاعاتهم ومعاصيهم)** هذا في القدرية، الذين غلوا في إثبات قدرة العبد، وجعلوه يخلق فعل نفسه، وأن الله لم يُرِد ولم يقدر فعله، وإنما هو الذي أراده باستقلال، وفعله باستقلال، مع أن الله ﷻ يقول: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، هم يقولون: العبد يخلق فعل نفسه، فجعلوا خالِقِين مع الله ﷻ، وما قدروا الله حق قدره، هذا في القدرية من المعتزلة وغيرهم الذين يقولون: إن الله لم يخلق أفعال العباد ولا أرادها؛ هم الذين أرادوها وهم الذين أوجدوها استقلالًا، فجعلوا الله عاجزًا، وجعلوا له شركاء في الخلق، تعالى الله عن ذلك، وهذا قول المعتزلة ومن مشى في ركابهم من نفاة القدر.

قوله: **(ولا قدر الله حقّ قدره: أضداد هؤلاء)**، الذين على النقيض من المعتزلة، وهم الجبرية، يقولون: العبد ليس له إرادة أصلًا ولا مشيئة، وإنما هو مُحرك، مسير لا مخيّر، وأنه يفعل الطاعات بغير اختياره، وبغير قدرته، ويفعل المعاصي بغير قدرته وبغير اختياره، إذًا يسيئون الظن بالله؛ لأنه يعذبهم على شيء ليس من فعلهم، وأن الله ظلم العبد بحيث عذبه بشيء ليس له فيه دخل وإنما هو مُحرك، ليس باختياره، هذا قول الجبرية والعياذ بالله، وهم على النقيض من القدرية. وأهل السُّنَّة والجماعة توسطوا فقالوا: العبد له مشيئة وله إرادة، ولكنها لا تخرج عن مشيئة الله ﷻ، وإرادته، والعبد يقدر على فعل الخير وترك الشر، هو المطيع وهو العاصي بفعله وإرادته ومشيئته، ولو شاء ما عصى، ولو شاء ما زنى، ولو شاء ما سرق؛ فالعبد يفعل الخير بمشيته ويفعل الشر بمشيئته، ولكنها بعد مشيئة الله ﷻ، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٩]، والله علق العقوبات على أفعال العباد، على

الذين قالوا: إنه يعاقب عبده على ما لم يفعله؛ بل يعاقبه على فعله سبحانه، وإذا استحال في العقول أن يجبر السّيد عبده على فعل ثمّ يعاقبه عليه، فكيف يصدر هذا من أعدل العادلين؟ وقول هؤلاء أشرّ من قول المجوس القدريّة الأذلين. ولا قدره حقّ قدره: من نفى رحمته ورضاه،

الكفر، على الشرك، على المعاصي، على الذنوب، علق الثواب على الطاعات والحسنات؛ فالجزاء ما عُلّق بالقضاء والقدر، وإنما عُلّق بأفعال العباد، يجزيهم بأعمالهم، أو يجازيهم عليها، ولذلك الذي لا قدرة له ولا مشيئة له وهو المجنون والصغير والنائم لا يؤاخذ؛ لأنه ليس له قدرة ولا مشيئة فلا يؤاخذ إذا حصل شيء منه، لا يؤاخذ على هذا، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وكذلك المكره؛ فالمكره لا يؤاخذه الله؛ لأنه بلا اختيار.

قوله: **(الذين قالوا: إنه يعاقب عبده على ما لم يفعله؛ بل يعاقبه على فعله سبحانه)**، يقولون: إن الله هو الذي خلق المعصية، والعبد ليس له فيها أي تدخل، وإنما أجبره عليها، إذًا يعذبه على غير فعله فيكون ظالمًا، تعالى الله عن ذلك.

قوله: **(وإذا استحال في العقول أن يجبر السّيد عبده على فعل ثمّ يعاقبه عليه)**، هذا في الناس لا يصلح؛ أن السيد يجبر عبده على فعل، ثم يعاقبه عليه، كيف تجبره عليه ثم تعاقبه عليه؟ هذا يصير ظالمًا، فكيف بالله ﷻ؟ الله أعطى العبد قدرة ومشيئة واختيارًا، وتمييزًا بين الخير والشر، فهو الذي أقدم وفعل؛ فالله يعذبه على أفعاله لا على القضاء والقدر.

قوله: **(فكيف يصدر هذا من أعدل العادلين؟)**، وهو الله ﷻ.

قوله: **(ولا قدره حقّ قدره: من نفى رحمته ورضاه)**، كذلك ما قدر الله حق قدره من نفى عنه الأسماء والصفات، من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، ومن سار على نهجهم، ما قدروا الله حق قدره سلبوه كماله وعظمته وجعلوه

ومحبّته وغضبه، وحكمته مطلقًا، وحقيقة فعله، ولم يجعل له فعلًا اختياريًّا؛ بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه.

مجرّدًا عن الأسماء والصفات، فصار مستحيلًا أو معدومًا، نسأل الله العافية.

قوله: (ومحبّته وغضبه..)، هذه أمثلة وإلا فالكلام على من نفى الأسماء والصفات، فهذا ما قدر الله حق قدره حيث وصفه بالعجز، ووصفه بالنقص، وشبهه بالجمادات.



* **ولا قدره حقّ قدره: من جعل له صاحبةً وولدًا، أو جعله يحلّ في مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود.**

قوله: **(ولا قدره حقّ قدره: من جعل له صاحبةً وولدًا)**، صاحبة؛ يعني: زوجة، وهم النصارى، والمشركون من العرب الذين نسبوا البنات إلى الله ﷻ، والنصارى نسبوا المسيح إلى الله، واليهود نسبوا عزيرًا إلى الله، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]؛ فهؤلاء ما قدروا الله حق قدره؛ لأن الولد يشبه الوالد، والله لا شبيه له؛ ولأن الولد جزء من الوالد، والله ﷻ لا يكون له ولدًا فيكون جزء منفصلًا عنه ﷻ، وأيضًا الوالد محتاج إلى الولد، والله ليس بحاجة إلى أحد، ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس: ٦٨].

قوله: **(أو جعله يحلّ في مخلوقاته)** كذلك ما قدر الله حق قدره: من نفى عنه العلو والاستواء على العرش، وجعله حالًّا في مخلوقاته، وجعله في كل مكان، هؤلاء حلولية والعياذ بالله، هذا كفر أكبر؛ لأنهم لم ينزهوا الله ﷻ، ولم يثبتوا له العلو، والاستواء على العرش، جعلوه مختلطًا بالخلق؛ بل منهم من يقول: إنه حالٌّ في المخلوقات، إنه حلّ في المسيح ابن مريم، وحلّ في الأولياء والصالحين، حتى يقول بعضهم: ما في الجبة إلا الله. الجبة التي يلبسها؛ الله فيها، تعالى الله عما يقولون، هؤلاء حلولية، وأشد منهم وأقبح: أهل وحدة الوجود، الذين يقولون: الله هو الموجودات جميعًا، وليس هناك خالق، ومخلوق؛ بل الله هو جميع الموجودات، ولا تقسيم. هؤلاء أهل وحدة الوجود، وهم شر من الحلولية.

قوله: **(أو جعله عين هذا الوجود)**، هذا مذهب أهل وحدة الوجود؛ كابن عربي وغيره.

*** ولا قدره حقّ قدره: من قال: إنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته، وجعل فيهم الملك، ووضع أولياء رسوله وأهل بيته، وهذا يتضمّن غاية القدح في الرّب، تعالى الله عن قول الرّافضة.**

*** وهذا مشتق من قول اليهود والنصارى في حق ربّ العالمين: إنه أرسل ملكًا ظالمًا، فادعى النبوّة، وكذب على الله، ....**

قوله: (**ولا قدره حقّ قدره: من قال: إنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته، وجعل فيهم الملك، ووضع أولياء رسوله وأهل بيته**)؛ كذلك الرافضة الذين يقولون: إن الخلافة لعلي بعد الرسول ﷺ، وهو الوصي، ولكن اغتصبها أبو بكر وعمر وعثمان، اغتصوبها منه، والصحابة وافقوهم على ذلك، فهم ظلمة، فهؤلاء ما قدروا الله حق قدره، هل الله عاجز أن يجعل عليًّا محل الرسول ﷺ، ويترك هؤلاء يغتصبون؟ ما يمكن هذا أبدًا، وقد دُفن أبو بكر وعمر إلى جانب الرسول ﷺ، وهما مغتصبان؟ حتى إن بعضهم يقول: أنا لا أؤمن برسول خليفته أبو بكر، لكني أؤمن برسول خليفته علي. وعلي رضي الله عنه من الخلفاء الراشدين، ولكن ليس هو الوصي بعد الرسول، فهؤلاء ما قدروا الله حق قدره، وإنه مكن هؤلاء من انتزاع الحق من صاحبه، وأعانهم على ذلك، وأثنى عليهم، ورفعهم حتى دفنوا إلى جانب الرسول ﷺ.

قوله: (**رفع أعداء رسوله.. ووضع أولياء رسوله وأهل بيته**)؛ أي: أذلهم، فهل هذا يليق بالله تعالى.

قوله: (**وهذا مشتق من قول اليهود والنصارى في حق ربّ العالمين: إنه أرسل ملكًا ظالمًا، فادعى النبوّة، وكذب على الله**)، يعنون محمدًا ﷺ، يقولون: محمد ملك ظالم وليس برسول، يا سبحان الله، ملك ظالم، والله يعطيه ويمهله وينصره ويثني عليه، ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٣]؛ يعني: الله شاهد على هذا الشيء ويعزه وينصره، هذا ظن بالله ظن السوء والعياذ بالله.

ومكث زمنًا طويلًا يقول أمرني ربي بكذا ونهاني عن كذا، ويستبيح دماء أنبياء الله وأحبائه، والرّب تعالى يظهره ويؤيده، ويقيم الأدلة والمعجزات على صدقه، ويُقبل بقلوب الخلق وأجسادهم إليه، ويقيم دولته على الظهور والزيادة، ويذل أعداءه أكثر من ثمان مائة عام.

*** فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرّافضة تجد القولين سواء.**

قوله: **(ومكث زمنًا طويلًا يقول أمرني ربي بكذا ونهاني عن كذا، ويستبيح دماء أنبياء الله وأحبائه، والرّب تعالى يظهره ويؤيده، ويقيم الأدلة والمعجزات على صدقه، ويُقبل بقلوب الخلق وأجسادهم إليه، ويقيم دولته على الظهور والزيادة، ويذل أعداءه أكثر من ثمان مائة عام)**، فهذا قول اليهود الذين ينكرون رسالة محمد ﷺ، ويقولون: إنه ملك ظالم. يسيئون الظن بالله، أنه نصره ومكنه وجعل حبه في قلوب البشرية وآمن به أغلب أهل الأرض، وانتشر دينه في المشارق والمغارب، فهل الله عاجز عن أن يمنع هذا؟ هذا دليل على أنه صادق، وإلا لما مكنه الله ﷻ؛ فالله يقصم المتنبئين، أين مسيلمة، وأين الأسود العنسي، وأين الذين ادعوا النبوة، أين آثارهم وأين هم؟ فالله ﷻ يقصمهم، أما هذا الرسول ﷺ أمده ونصره وأعزه ومكنه في الأرض، والبشرية الآن لا تزال ترجع إلى دين هذا الرسول ﷺ، ومعه هذا القرآن الذي أعجز البشرية وأعجز الجن والإنس، فهل هذا كذاب، تعالى الله عن ذلك؛ فالذي يجحد رسالة محمد ﷺ ما قدر الله حق قدره، وكذلك الذين جحدوا رسالة عيسى وهم اليهود ما قدروا الله حق قدره، فكل من جحد رسالة نبي فإنه ما قدر الله حق قدره، وكل من صدّق برسالة الكذاب أو نبوة الكذاب ما قدر الله حق قدره.

قوله: **(فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرّافضة تجد القولين سواء)**، اليهود يقولون: إن الله أمد هذا الملك الظالم ومكنه، والرافضة

❊ ولا قدره حقّ قدره: من زعم أنه لا يحيي الموتى، ولا يبعث من في القبور ليبيّن لعباده الذي كانوا فيه يختلفون، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

❊ وبالجملة: فهذا بابٌ واسعٌ، والمقصود أن كل من عبد مع الله غيره فإنما عبد شيطانًا.

يقولون: إن الله مكن أبا بكر وعمر ونصرهما وفتح البلاد والعباد، والله مكنهم من هذا وهما ليس لهم حق، فهذا سوء ظن بالله رب العالمين، فقول الرافضة مثل قول اليهود، سواء بسواء.

قوله: (ولا قدره حقّ قدره: من زعم أنه لا يحيي الموتى)، ما قدر الله حق قدره من أنكر البعث، ووصف الله بالجور، وأنه لا يقيم العدل بين عباده، وأنه لا يجازي المسيئين بإساءتهم، ويجزي المحسنين بإحسانهم، يوم القيامة، يقولون: إن الإنسان يعمل في الدنيا ما يشاء ويترك ويموت، ولا يبعث، سواء كان من أصلح الناس أو من أفجر الناس. لا، هذا لا يليق بعدل الله ﷻ، ما يليق بعدل الله أنه يترك العباد ولا يقيم العدل بينهم.

قوله: (وبالجملة: فهذا بابٌ واسعٌ)، وليراجع كلام ابن القيم في «زاد المعاد» في فضائل غزوة الأحزاب.



* والمقصود أن كل من عبد مع الله غيره فإنما عبد شيطانًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]، فما عبد أحدٌ أحدًا من بني آدم كائنًا من كان إلا وقد وقعت عبادته للشّيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله تعالى، وذلك غاية رضى الشيطان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾؛ أي: من إغوائهم وضلالهم، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

* فهذه إشارةٌ لطيفةٌ إلى السّر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله تعالى، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه، وأنه موجبٌ للخلود في العذاب العظيم، ....

قوله: (فما عبد أحدٌ أحدًا من بني آدم كائنًا من كان إلا وقد وقعت عبادته للشّيطان) فيقال لهم يوم القيامة: اذهبوا إلى من أمركم بهذا، وهو الشيطان، والعياذ بالله، فهذا مآل المشركين يوم القيامة، لا يستثنى من هذا مشرك، لا من عبد صنمًا ولا من عبد ملكًا، ولا من عبد نبيًا، ولا من عبد وليًا، لا يُستثنى أحد من ذلك، كلهم يوم القيامة متبرئون ممن عبدهم، حتى الشيطان الذي قادهم يتبرأ منهم، ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾؛ أي: أنا لا أستطيع أن أنقذكم مما أنتم فيه، وأنتم لا تستطيعون أن تنقذوني مما أنا فيه، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، تبرأ منهم، فهذا مآلهم يوم القيامة، وكل عبادة لغير الله فهذا مآلها والعياذ بالله، هل يبقى بعد هذا عاقل يتعلق بغير الله، لو أن هناك عقولًا سليمة وفطرًا مستقيمة، ولكن تُطمس العقول والعياذ بالله وتتغير الفطر وتنتكس.

قوله: (وأنه موجبٌ للخلود في العذاب العظيم)؛ فالشرك باطل؛ لأنه لم

وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرّد النّهي عنه فقط؛ بل يستحيل على الله أن يشرع لعباده إلٰه غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله.

يبن على برهان ولا على دليل، وإنما بُني على شبهات وأكاذيب ودعايات تضمحل وتبطل، بخلاف التوحيد: وهو إفراد الله بالعبادة فإنه مبني على البراهين والآيات الكونية، والآيات القرآنية، فهو مبني على براهين وحجج، وأما الشرك فهو مبني على أوهام ليس لها أصل، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ﴾ [العنكبوت: ٤١]، بيت العنكبوت ما يُظِل من الشمس، ولا يمنع من البرد، ولا يقي من البرد ولا من المطر، فكذلك آلهة المشركين التي اتخذوها مثل بيت العنكبوت، نسأل الله العافية؛ ولذلك صار الشرك لا يُغفر إلا بالتوبة منه، أما من مات عليه فإنه لا يغفر له، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]؛ فالشرك هو أعظم الذنوب، وأعظم ما نهى الله عنه، وهو أخطر الذنوب؛ إذا مات عليه لا يُغفر له، وإذا مات عليه يُحرم من الجنة ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار.

قوله: (وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرّد النّهي عنه فقط؛ بل يستحيل على الله أن يشرع لعباده إلٰه غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله)، ليس الشرك قبيحًا وسيئًا لأن الله نهى عنه فقط، ولكن لأنه أكبر الكبائر وأقبح القبائح؛ لأنه وضعٌ للعبادة في غير مستحقها وهو الله ﷻ، وتعلق على مخلوق ضعيف، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ [الفرقان: ٣]، هذه صفتهم.

*** واعلم أن النّاس في عبادة الله والاستعانة به على أربعة أقسام:**

*** أجلّها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها: فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها نهاية مقصودهم؛ ولهذا كان أفضل ما يُسأل الرّب تعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علّمه النّبي ﷺ لمعاذ بن جبل، فقال: ....**

فهناك عبادة واستعانة، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]، وعلى هذه الآية يدور كتاب ابن القيم رحمه الله: «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»، بناه على هذه المنازل، على هذه الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، فلا بد من عبادة الله والاستعانة به، والناس انقسموا نحو هذا على أربعة أقسام يذكرها الشيخ رحمه الله:

القسم الأول: وهم من جمع بين العبادة والاستعانة.

القسم الثاني: من لا يعبد الله ولا يستعين به.

القسم الثالث: من يعبد الله ولكن لا يستعين به.

القسم الرابع: من يستعين بالله ولكن لا يعبده.

ولا يصح إلا القسم الأول الذين جمعوا بين العبادة والاستعانة، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، تُعاهد الله أن لا تعبد إلا إياه، ولا تستعين إلا به في كل ركعة من صلاتك، حينما تقرأ هذه السورة العظيمة، سورة الفاتحة. والقبوريون والخرافيون يقرؤونها ولكن لا يعبدون الله ولا يستعينون به وهم يقرؤونها، وهم يرددون هذه الآية ولكن مع هذا لا يعبدون الله ولا يستعينون به، لا يعبدون الله عبادة خالصة، وإلا فهم يعبدون الله بأنواع من العبادات، ولكنهم لا يعبدونه عبادة خالصة، ولا يستعينون به في المهمات، وإنما يستعينون بالمخلوقات، وبالأوثان وبالأموات، إلى آخره.

قوله: **(أجلّها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها)**؛ أي: الذين جمعوا بين العبادة والاستعانة بالله عليها، أي على العبادة؛ لأنه لولا أن الله

«يا مُعَاذُ، والله إني أحبّك، فلَا تَدَعَ أن تَقُول في دُبُرِ كل صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي على ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[١]، فأنفع الدّعاء طلب العون على مرضاته تعالى.

*** ويقابل هؤلاء القسم الثاني: المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة لهم ولا استعانة؛ بل إن سأله تعالى أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، ....**

أعانك ما استطعت أن تعبده، لاحظ السر بين الجمع بين ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾، لولا أن الله أعانك ما استطعت أن تعبده.

الرسول ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: **(يا مُعَاذُ، والله إني أحبّك)**، كفى بهذا فخرًا، **(فلَا تَدَعَ أن تَقُول في دُبُرِ كل صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي على ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)**، فأمره أن يسأل الله أن يعينه على عبادته؛ لأنه لو لم يُعنه على عبادته لم يستطع ذلك، ويردد هذا الدعاء بعد كل فريضة، في دبر كل صلاة، وهل المراد بالدبر آخر الصلاة، أم بعد السلام؟ على قولين؛ فأيهما وقع هذا الدعاء إما في آخر الصلاة أو بعدها فإنه وقع موقعه؛ لأنه يصدق عليه أنه دبر كل صلاة.

هذا القسم الأول وهم أسعد الخلق الذين جمع بين العبادة والاستعانة بالله عليها.

قوله: (ويقابل هؤلاء القسم الثاني)، وهو القسم الخاسر.

قوله: (المعرضون عن عبادته والاستعانة به)، فلا يعبدونه ولا يستعينون به، عطلوا هذا نهائيًّا والعياذ بالله، نسوا الله فنسيهم.

قوله: (بل إن سأله تعالى أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته)، وإن استعان بالله واحد من هؤلاء فإنما يستعين به على حظوظه في الدنيا،

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد (٢٢١١٩)، وسنن أبي داود (١٥٢٤).

والله ﷻ يسأله من في السماوات والأرض، ويسأله أولياؤه وأعداؤه، فيمد هؤلاء وهؤلاء.

وشهواته في الدنيا، ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فليس له هم إلا الدنيا، وإذا دعا الله فإنما يطلب منه ملاذَّ الدنيا وشهواتها، ولا يطلب الآخرة، ولا تخطر له على بال، فهذا لم يعبد الله ولم يستعن به الاستعانة المطلوبة، التي هي الاستعانة على العبادة، أما الاستعانة على أمور الدنيا وحدها فهذه ليست بشيء.

قوله: **(والله ﷻ يسأله من في السماوات والأرض)**، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ أي: كل ساعة هو سبحانه في شأن؛ أي: في تدبير لخلقه وأمر ونهي وتصريف دائمًا وأبدًا، فكل يوم هو في شأن.

قوله: **(ويسأله أولياؤه وأعداؤه)**، يسأله أولياؤه المتقون، ويسأله أعداؤه؛ فالكفار والمشركون يسألون الله، لا غنى بهم عن الله، فإذا وقعوا في الشدة سألوا الله ﷻ، ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢]؛ أي: الدعاء، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢]، فيخلصون؛ لأنهم يعلمون أنه لا ينقذ من الشدائد إلا الله، تضمحل أصنامهم ومعبوداتهم ما تنقذهم من الشدائد، يعرفون هذا فيخلصون لله في هذه الحالة، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرحمٰن: ٢٩]، حتى المشركون حتى الكفار يسألونه في حالات الضرورة والشدائد.

قوله: **(فيمد هؤلاء وهؤلاء)**، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ

....

﴿ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]؛ فالله يعطي هؤلاء وهؤلاء، من طلب ودعاه للآخرة أعطاه، ومن دعاه للدنيا فهذا تحت المشيئة، إن شاء الله أعطاه، وإن شاء حرمه، ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠]؛ أي: ممنوعًا، قال ﷺ: «**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ولا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**»[1]، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: ٢]، فلا أحد يمنع ما أعطاه الله، ولا أحد يعطي ما منعه الله أبدًا؛ فالعطاء والمنع بيد الله ﷻ.



(١) أخرجه البخاري (٨٤٤).

* وأبغض خلق الله إليه إبليس، ومع هذا أجاب سؤاله وقضى حاجته، ومتّعه بها، ولكن لما لم تكن عونًا على مرضاته كانت زيادةً في شقوته وبعده.

* وهكذا كل من سأله تعالى واستعان به على ما لم يكن عونًا له على طاعته، كان سؤاله مبعدًا عن الله، فليتدبّر العاقل هذا، وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ....

قوله: (وأبغض خلق الله إليه إبليس، ومع هذا أجاب سؤاله وقضى حاجته، ومتّعه بها)، إبليس هو أكبر أعداء الله، لما أمره الله بالسجود فأبى واستكبر وكان من الكافرين، لما أمره الله بالسجود لآدم أبى واستكبر وكان من الكافرين فلعنه الله وطرده من رحمته، ثم دعا الله، فليس له غنى عن الله، قال: ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦]، طلب من الله أن ينذره وأن يمد في حياته إلى يوم البعث من أجل أن يضل بني آدم، ويضر بني آدم بزعمه، فالله ﷻ استجاب له، قال: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨]؛ فالشاهد من هذا أن الله استجاب دعوة إبليس، وهو أكبر أعداء الله، فالله يعطي ويستجيب لأوليائه ولأعدائه، ولكن أولياءه يستجيب لهم عن رضا ومحبة، وأعداءه يستجيب لهم وهو لا يحبهم.

قوله: (ولكن لما لم تكن عونًا على مرضاته كانت زيادةً في شقوته وبعده)، فاستجاب الله لإبليس وأنظره، ولكن هذا زيادة في عذابه والعياذ بالله، فليس إكرامًا له؛ لأنه في تأخير حياته يزداد إثمًا وعذابًا، فليس هذا من صالحه، والله ﷻ يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]؛ فالكافر والمشرك إذا مُدّ في أجله فهذا شر له، والمؤمن إذا مد في أجله فهذا خير له، وخير الناس من طال عمره وحسن عمله.

قوله: (فليتدبّر العاقل هذا، وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين

ليست لكرامته عليه؛ بل قد يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه، ويكون منعه منها حمايةً له وصيانةً، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة.

*** وعلامة هذا: أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر، إذا رآه سبحانه يقضي حوائج غيره يسيء ظنّه به تعالى، وقلبه محشو بذلك وهو لا يشعر.**

ليست لكرامته عليه؛ بل قد يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه، ويكون منعه منها حمايةً له وصيانةً)، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١١]، فقد يدعو الإنسان بما فيه هلاكه، فإما أن يستجيب الله له عقوبة له، وإما أن يمنعه وهذا خير له، فلو استجاب له لكان ضررًا عليه؛ لذلك من دعا الله ولم يُستجب له فلا يتحسر، وليعلم أن الله ما أخّر إجابته إلا لصالحه، ولا يقول: دعوت ودعوت فلم يستجب لي، وليكثر من الدعاء ولا ييأس، ولا يقول: الدعاء لا ينفع، دعوت ودعوت فلم يُستجب لي. لم يستجب لك هذا من صالحك؛ لأنه لو عجل لك ما طلبت لكان فيه هلاكك، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

قوله: (والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة)؛ أي: الإنسان تشهد عليه أعضاؤه وجلده يوم القيامة، فهي بصيرة عليه؛ أي: شاهدة عليه.

قوله: (وعلامة هذا: أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر، إذا رآه ﷻ يقضي حوائج غيره يسيء ظنّه به تعالى، وقلبه محشو بذلك وهو لا يشعر)، إذا دعا الله ولم يستجب له ورأى أن غيره يُستجاب له ربما يقع في نفسه شيء من الحرج، وسوء الظن بالله ﷻ، ولا يعلم أنه ربما يكون في إجابة الدعاء ضرر على العبد، وربما يكون في منع إجابة الدعاء خير للعبد، فليرضى عن الله ﷻ، ولا يجزع.

*** وأمارة ذلك: حمله على الأقدار، وعتابه في الباطن لها، ولقد كشف الله سبحانه هذا المعنى غاية الكشف في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧]؛ أي: ليس كل من أعطيته ونعّمته وخوّلته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليّ، ولكنه ابتلاء منّي وامتحان له، أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه عنه وأحوّله عنه لغيره؟ ....**

قوله: **(وأمارة ذلك: حمله على الأقدار، وعتابه في الباطن لها)**، إذا لم يحصل للإنسان شيء يسب القدر، ولا يعلم أن هذا من الله ﷻ، لا من الأقدار ولا من الأسباب.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ بعض الناس أو كثير من الناس مقياس الكرامة عنده هو أن الإنسان يُعطى من هذه الدنيا، يُعطى من الأموال والأولاد والجاه فيقولون: هذا كريم على الله، وهذا هو السعيد. وأما الذي يكون في فقر وحاجة وضيق من العيش، فيقولون: هذا شقي، وهين على الله ﷻ. ولا يعلمون أن الأمر بالعكس، فالله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولكنه لا يعطي هذا الدين إلا من يحب، فليس الغنى دليلًا على الكرامة عند الله، وليس الفقر دليلًا على الإهانة عند الله ﷻ؛ ولذلك الله يزوي ﷻ الدنيا عن أوليائه، ويحميهم منها كما يحمي الطبيب مريضه عن الطعام والشراب إذا كان يضره، وفي ذلك مصلحته، وهذا رسول الله ﷺ أفضل الرسل، وأكمل الخلق وأفضلهم، كان يربط الحجر على بطنه من الجوع، وكان يجوع يومًا ويشبع يومًا وهو أكرم الخلق على الله، وهناك من الكفار والمشركين من يتنعم في هذه الدنيا وهو أشقى الخلق عند الله ﷻ؛ فالدنيا ليست مقياسًا أبدًا، المقياس هو الدين، هذا هو المقياس، ولكن كثيرًا

وليس كل من ابتليته فضيّقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذاك من هوانه عليّ، ولكن ابتلاء وامتحان منّي له، أيصبر فأعطيه أضعاف ما فاته، أم يسخط فيكون حظّه السّخط؟.

*** وبالجملة: فأخبر تعالى أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرّزق وتقديره، فإنه ـ سبحانه ـ يوسّع على الكافر لا لكرامته، ويُقتّر على المؤمن لا لهوانه عليه، وإنّما يكرم ـ سبحانه ـ من يكرم من عباده بأن يوفّقه لمعرفته ومحبّته وعبادته واستعانته، ....**

من الناس تتعلق قلوبهم بالدنيا، ولا تتعلق بالدين والآخرة، فعندهم أن مقياس السعادة هو في الثروة والغنى والترف، ومقياس البؤس والشقاء هو بالفقر والحاجة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ يعني: جنس الإنسان، ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: اختبره ربه، ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ ابتلاء، ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ يظن أن هذا الذي أعطاه الله لكرامته على الله، ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾؛ يعني: ضيقه، ابتلاه؛ يعني: اختبره بالفقر، ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾، قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا﴾ هذا نفي، فليست الكرامة والإهانة بأمور الدنيا.

قوله: (وليس كل من ابتليته فضيّقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه)، قارون لما خرج على قومه في زينته، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٧٩ ـ ٨٠] فلا يُلقّى هذا الإيمان والصبر على الفقر والحاجة إلا الصابرون على قسمة الله ﷻ، والرضا عنه ﷻ.

قوله: (فإنه ـ سبحانه ـ يوسّع على الكافر لا لكرامته، ويُقتّر على المؤمن لا لهوانه عليه)، ولهذا في الحديث قال ﷺ: «**لو كانت الدُّنْيا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ**

فغاية سعادة الأبد في عبادة الله وحده والاستعانة به عليها.

جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَى كَافِرًا منها شَرْبَةَ مَاءٍ»[١].

قوله: (فغاية سعادة الأبد في عبادة الله وحده والاستعانة به عليها)، هذا هو مناط السعادة، عبادة الله وحده، فأنت لا تنظر إلى كون الإنسان غنيًّا أو فقيرًا، انظر إلى حاله في العبادة، هذا هو المقياس لا تجعل الغنى والفقر مقياسًا للسعادة والشقاوة، اجعل المقياس عبادة الله ﷻ، فسبب هذا الذي أكرمه الله هو العبادة والاستعانة، عبادة الله والاستعانة به على عبادته.



---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠).

*** القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهؤلاء نوعان:**

*** أحدهما: أهل القدر، القائلون بأنه ﷻ قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانةً له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق وإرسال الرّسول، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعدها إعانةً مقدورةً يسأله إياها.**

*** وهؤلاء مخذولون موكولون إلى أنفسهم، مسدودٌ عليهم طريقة الاستعانة والتّوحيد.**

*** قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «الإيمان بالقدر نظام التّوحيد، فمن آمن بالله وكذّب بقدره نقض تكذيبه توحيده».**

قوله: **(القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة)**، هؤلاء أخذوا العبادة وتركوا الاستعانة كأنهم استغنوا عن الله ﷻ، فهم يعتمدون على أنفسهم وهم ضعفاء.

قوله: **(أحدهما: أهل القدر)**، هؤلاء القدرية والمعتزلة الذين يقولون: الله ﷻ أقدر العبد، أعطاه القدرة على العمل، لكنه لم يقدر له العمل، فهو بفعل نفسه واختياره يعمل وليس لله تقدير في أعماله، ولم يسبق أن الله قدر عليه هذا. فهم ينكرون القدر، وينسبون العمل إلى العبد، وإمكانيات العبد.

قوله: **(فلم يبق بعدها إعانةً مقدورةً يسأله إياها)**، فلم يقدّر الله عليه أنه يفعل، وإنما هو الذي فعل باستقلاله.

قوله: **(وهؤلاء مخذولون موكولون إلى أنفسهم، مسدودٌ عليهم طريقة الاستعانة والتّوحيد)** إذا لم يؤمن بالقضاء والقدر فإنه لا يستعين بالله، وإنما يستعين بقواه وإمكانياته فيكون مخذولًا والعياذ بالله، يكله الله إلى حوله وقوته، وهذا شأن القدرية.

قول ابن عباس رضي الله عنهما: **(الإيمان بالقدر نظام التّوحيد)**، فالتوحيد لا يقوم

*** النوع الثاني: من لهم عبادة وأوراد، ولكن حظّهم ناقص من التّوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وأنها بدون المقدور؛ كالموات الذي لا تأثير له؛ بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالرّوح المحرّك لها، والمعوّل على المحرّك الأول، فلم تنفذ بصائرهم من السّبب إلى المسبّب، ومن الآلة إلى للفاعل، فقلّ نصيبهم من الاستعانة.**

*** وهؤلاء لهم نصيب من التصرّف بحسب استعانتهم وتوكلهم، ونصيب من الضعف والخذلان بحسب قِلّة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكّل العبد على الله حقّ توكّله في إزالة جبل عن مكانه لأزاله.**

إلا على الإيمان بالقدر، فمن لم يؤمن بالقدر فإنه يختل توحيده، فمن آمن بالله وكذّب بقدره نقض توحيده.

قوله: **(النوع الثاني: من لهم عبادة وأوراد، ولكن حظّهم ناقص من التّوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر)**، وهؤلاء أخف من القدرية، عندهم عبادة، وعندهم نوع من الاستعانة في بعض الأمور، ولا يستعينون بالله في كل أمورهم، فعندهم نقص في الاستعانة والتوكل على الله ﷻ.

قوله: **(فقلّ نصيبهم من الاستعانة)**؛ يعني: هؤلاء ليسوا محرومين من الاستعانة لكنهم مقصرين فيها.

قوله: **(ولو توكّل العبد على الله حقّ توكّله في إزالة جبل عن مكانه لأزاله)**، لو توكل على الله توكلًا حقيقيًا حق توكله لأعانه الله على الصعاب والمشاق، حتى الجبال يزيلها الله له، من الذي ألان الحديد لداود؛ ألانه الله له؛ لأنه متوكل على الله ﷻ.

❁ ❁ ❁

❊ فإن قيل: ما حقيقة الاستعانة عملًا؟

❊ قلنا: هي التي يعبّر عنها بالتّوكل، وهي حالة للقلب تنشأ عن معرفة الله ﷻ، وتفرده بالخلق والأمر والتّدبير والضّر والنّفع، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فتوجّب اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وثقةً به، فتصير نسبة العبد إليه تعالى كنسبة الطّفل إلى أبويه فيما ينوبه من رغبته ورهبته، فلو دهمه ما عسى أن يدهمه من الآفات لم يلتجئ إلى غيرهما. فإن كان العبد مع هذا الاعتماد من أهل التّقوى، كانت له العاقبة الحميدة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]؛ أي: كافية.

قوله: **(قلنا: هي التي يعبّر عنها بالتّوكل)**؛ فالاستعانة والتوكل بمعنى واحد.

قوله: **(وهي حالة للقلب تنشأ عن معرفة الله تعالى)**؛ فالتوكل من أعمال القلوب، وليس من أعمال الجوارح، فهناك عبادات قلبية: كالخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة، والخشية من الله، فهذه كلها أعمال قلبية.

قوله: **(فتصير نسبة العبد إليه تعالى كنسبة الطّفل إلى أبويه فيما ينوبه من رغبته ورهبته)**؛ فالطفل لا يستغني عن أبويه، ولذلك إذا خاف ينادي عليهما، أو إذا أصابه ألم أو وجع يناديهم؛ لأنه لا يعلم أحدًا من الخلق يساعده إلا والديه؛ فالمؤمن يكون تعلقه بالله عند الشدائد أشد من تعلق الطفل بوالديه، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

قوله: **(فلو دهمه ما عسى أن يدهمه من الآفات لم يلتجئ إلى غيرهما)**؛ أي: إلى غير والديه؛ ولذلك تجده يلهج بأبيه وأمه عند الحاجة والشدائد.

❁ ❁ ❁

* القسم الرابع: من له استعانةٌ بلا عبادة، وتلك حالة من شهد تفرّد الله بالضّر والنّفع، ولم يدر ما يحبّه ويرضاه، فتوكّل عليه في حظوظه، فأسعفه بها.

* وهذا لا عاقبة له، سواء كانت أموالًا أو رياسات، أو جاهًا عند الخلق، أو نحو ذلك، فذلك حظّه من دنياه وآخرته.

قوله: (القسم الرابع)، وهو الأخير.

قوله: (من له استعانةٌ بلا عبادة)، هؤلاء أخذوا الاستعانة وتركوا العبادة.

قوله: (فتوكّل عليه في حظوظه، فأسعفه بها وهذا لا عاقبة له)؛ يعني: لا يرغب إلى الله إلا في أمور الدنيا، فيسأل الله الدنيا فقط، ولا يسأل الله أمور الآخرة، فهو يهمل العبادة، ويلجأ إلى الله في تحصيل دنياه فقط، فعنده استعانة بالله ولكن ليس عنده عبادة، وهذه حالة الذين يطلبون الدنيا وينسون الآخرة.



*** واعلم: أن العبد لا يكون متحققًا بعبادة الله وحده إلا بأصلين:**

*** أحدهما: متابعة الرّسول ﷺ.**

*** والثاني: إخلاص العبودية..**

الله ﷻ خلق الخلق لعبادته، وأمرهم بذلك، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]؛ فالعبادة هي العمل، والعبادة:

تكون بالقلب، بالخوف والخشية والرهبة والرغبة، والتفكر، التدبر.

وتكون العبادة باللسان، وذلك بالذكر والاستغفار، والتسبيح، والتهليل.

وتكون العبادة بالجوارح؛ كالصلاة، والجهاد في سبيل الله.

وتكون العبادة بالأموال؛ كالصدقات، والزكاة.

فالعبادة متنوعة، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة». وليست العبادة مقصورة على نوع معين؛ فالعبادة تشمل كل ما شرعه الله، هذه هي العبادة التي أمر الله بها، ولا تصح العبادة ـ إن شئت قلت العبادة وإن شئت قلت العمل ـ إلا بشرطين:

الشرط الأول: الإخلاص لله ﷻ، أن يكون العمل خالصًا لوجه الله ليس فيه رياء، ولا سمعة، وليس فيه إشراك مع الله ﷻ، فيكون العمل خالصًا لله، هذا الشرط الأول.

الشرط الثاني: أن يكون العمل على وفق سُنَّة رسول الله ﷺ؛ لأن الله بعث محمدًا ﷺ، ليبين للناس كيف يعبدون ربهم، وكيف يعملون؛ فالإنسان لا يبتكر عملًا من عنده ويستحسنه، أو يقلد غيره من العُبّاد ومن الآباء والأجداد، وإنما يتابع سُنَّة الرسول ﷺ.

فإذا توفر هذان الشرطان كان العمل صالحًا، وكان مقبولًا عند الله، وإذا اختل شرط منهما بطل العمل، فمن أخلص لله ولكن لم يتابع الرسول ﷺ،

....

فعمله باطل، وكذلك من اتّبع الرسول ﷺ في السُّنَّة، ولكنه لم يخلص لله في النية، فعمله باطل أيضًا، وهذان الشرطان مذكوران في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾، ثم بين من الذي يدخل الجنة؟ فقال: ﴿رَبِّهِۦ﴾؛ أي: يدخل الجنة، ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ هذا هو الإخلاص؛ أي: أخلص عمله، وهو الشرط الأول، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ أي: متبع للرسول ﷺ، هذا هو الشرط الثاني، ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢] من أي جنس كان ومن أي لون كان، فمن اخلص عمله واتبع الرسول الذي أرسل إليه في كل وقت بحسبه، ومن اتبع موسى عليه السلام، ومن اتبع عيسى، ومن اتبع من قبله من الأنبياء في شرائعهم، وهو مخلص لله فعمله مقبول عند الله، ولما بُعث محمد ﷺ كان الواجب اتباعه وحده، عليه الصلاة والسلام؛ لأنه هو نبي الوقت لجميع الخلق من بعثته إلى أن تقوم الساعة، وهو النبي المطاع، والشرائع السابقة نُسخت بشريعة الإسلام؛ لأن الله ﷻ يشرع لعباده في كل وقت ما يصلحهم، وما يناسبهم، وكانت الشرائع السابقة مؤقتة، تنسخ بشريعة أخرى، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد: ٣٨]، فلما بعث محمد ﷺ كانت شريعته هي الباقية إلى أن تقوم الساعة، لا تنسخ إلى أن تقوم الساعة، فهي الشريعة الوحيدة للخلق، وللبشرية، وللجن والإنس، لا يسع أحدًا إلا اتباعه ﷺ كائنًا من كان، من اليهود والنصارى وغيرهم، فمن خرج عليه ﷺ ولم يتبعه فهو كافر، ولو كان يخلص لله في عمله؛ لأنه لم يتّبع رسوله؛ لأنه رسول الأمة، ورسول البشرية، وإن زعم أنه يتبع رسولًا سابقًا؛ لأن اتباع الرسل السابقين انتهى ببعثته ﷺ، والعبد يدور مع أمر الله ﷻ؛ فالله أمرك أن تتبع هذا الرسول، وأن تتحول مما أنت عليه إلى دين هذا الرسول؛ ولهذا أثنى الله على الذين أدركوا هذا الرسول من الأمم السابقين، وكانوا مسلمين في وقتهم ومتابعين لرسولهم، فلما بُعث هذا الرسول آمنوا به، هؤلاء

....

لهم أجران، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٨﴾ [الحديد: ٢٨]، هذه فيمن اتبع هذا الرسول من الأمم السابقة، له أجران: أجر اتباعه للرسول السابق، وأجر اتباعه لمحمد ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾ [القصص: ٥٤]، مرّة على اتباعهم للرسول السابق، والمرّة الثانية على اتباعهم لمحمد ﷺ، أما من أبى أن يتبع هذا الرسول فإنه كافر؛ من أي دين كان، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، والإسلام بعد بعثة هذا الرسول صار فيما جاء به هذا الرسول، هذا هو الإسلام، وليس الإنسان على حسب هواه، وحسب رغبته، الإنسان يدور مع أمر الله، فيطيع الله ﷻ، والناس في هذين الأصلين على أربعة أنواع:

١ - منهم: من هو مخلص لله متبع للرسول ﷺ.

٢ - ومنهم: من ليس عنده إخلاص ولا متابعة.

٣ - ومنهم: من عنده متابعة وليس عنده إخلاص.

٤ - ومنهم: من عنده إخلاص وليس عنده متابعة.

الصنف الأول هم المفلحون، أهل المتابعة والإخلاص، وبقية الأنواع خاسرة، وعملها باطل، فيجب التنبه لهذا الأمر؛ لأن هناك الآن من ينادون ويقولون: الأديان سواء، الأديان كلها حق، الأديان الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام، التآخي بين الأديان، الحوار بين الأديان، وهذا كله باطل، لا أديان بعد بعثة الرسول ﷺ، وإنما هو دين واحد، ليس هناك أديان، وإنما هو دين واحد هو دين الرسول ﷺ، فيجب التنبه لهذا.



* والنّاس في هذين الأصلين على أربعة أقسام:

* أهل الاخلاص والمتابعة: فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم ومنعهم وإعطاؤهم وحبّهم وبغضهم كل ذلك لله، لا يريدون من العباد جزاءً ولا شكورًا، عَدّوا النّاس كأصحاب القبور، لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

قوله: (أهل الاخلاص والمتابعة)، هؤلاء هم أشرف الأقسام، الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢]، والله ﷻ قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]، سئل الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما معنى: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ قال: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إذا كان العمل خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السُّنَّة». كلمات عظيمة مأخوذة من القرآن والسُّنَّة، فهؤلاء هم السعداء الذين جمعوا بين الإخلاص والمتابعة.

قوله: **(فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم ومنعهم وإعطاؤهم وحبّهم وبغضهم كل ذلك لله)**، هذا هو الإخلاص.

قوله: **(عدّوا النّاس كأصحاب القبور)**؛ يعني: لا يلتفتون إليهم، وإنما يلتفتون إلى الله ﷻ.

قوله: **(لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا)**؛ أي: الناس لا يملكون لك موتًا ولا حياة ولا نشورًا؛ لأنهم بشر مثلك، فكيف تلتفت إليهم بعملك؟.

*** فإنه لا يعامل أحدًا من الخلق إلا لجهله بالله تعالى وجهله بالخلق.**

*** والاخلاص: هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل عملًا صوابًا عاريًا منه، وهو الذي ألزم عباده به إلى الموت، قال الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧]، ....**

قوله: (فإنه لا يعامل أحدًا من الخلق إلا لجهله بالله تعالى وجهله بالخلق)، فمن كان همه الناس مدحوه أو ذموه فهذا من جهله بالله، وجهله بالخلق، جهله بالله وأنه هو الذي يجب أن يخشى ويتقى ويطاع، وجهله بالخلق؛ لأنهم لا يملكون له نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، النبي ﷺ قال لابن عباس: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ**»؛ أي: الخلق كلهم، «**لو اجْتَمَعَتْ على أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله لك، وَلَوْ اجْتَمَعُوا على أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لم يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ**»(١) إذًا علِّق قلبك بالله والله يكفيك الخلق، فمن توكل على الله كفاه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، فإذا توكلت على الله كفاك ما عداه من الخلق، وأما إذا التفت إلى غير الله وكلك الله إليه، يكلك إلى من التفت إليه ويتخلى عنك ﷻ ويخذلك.

قوله: (والاخلاص: هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل عملًا صوابًا عاريًا منه)؛ فالإخلاص هو الذي يقبل الله به العمل؛ فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه.

قوله: (وهو الذي ألزم عباده به إلى الموت)، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

وأحسن العمل: أخلصه وأصوبه.

والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على وفق سُنَّة رسول الله ﷺ، وهذا هو العمل الصالح المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]،

إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فلا ينتهي العمل إلا بالموت، فإذا مات الإنسان انقطع عمله، فالذي يزعم أن هناك حدًّا ينتهي إليه إذا وصله، فتسقط عنه العبادة كما يقوله غلاة الصوفية ويزعمون أنه وصل إلى الله فليس بحاجة إلى العبادة، فهذا باطل والعياذ بالله، العمل مستمر ما دامت الروح في الجسد، مستمر إلى أن تخرج الروح من الجسم، فليس لعمل المسلم غاية دون الموت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]، انتبه لقوله: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾، فلم يقل: أيهم أكثر عملًا، فالعبرة بالحسن، وليست العبرة بالكثرة، فقد يكون العمل كثيرًا ولكنه باطل كله، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]، وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨].

قوله: (وأحسن العمل: أخلصه وأصوبه)، ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾؛ أي: أيهم أخلص وأصوب في العمل.

قوله: (والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على وفق سُنَّة رسول الله ﷺ)، وذلك في قوله ﷺ: «**من أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هذا ما ليس فيه فَهُوَ رَدٌّ**»[1]؛ أي: مردود عليه، وفي رواية: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أَمْرُنَا**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧).

وهو العمل الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] **وهو الذي أمر به النّبي ﷺ في قوله: ....**

فَهُوَ رَدٌّ»[١]؛ فالعمل المبتدع مردود، سواء ابتدعه هو، أو اتبع من ابتدعه وعمل بالبدع، قال ﷺ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[٢]، وفي رواية النسائي: «**وَكُلُّ ضَلالَةٍ في النَّارِ**»[٣]، ولم يستثن شيئًا، فكل ما خالف سنة الرسول ﷺ فهو بدعة مردودة، وصاحبها في النار، نسأل الله العافية، وإن استحسنها أو حُسّنت له، وكثير من الناس اليوم على البدع، ولا يعيشون إلا على البدع، ولا يرغبون في السُّنَّة؛ لأن الشيطان يزين لهم البدع؛ فشياطين الإنس والجن يزينون لهم البدع، وينفرونهم من السُّنَّة واتباع السُّنَّة، فهي مصيبة عظيمة، انتشار البدع الآن وتوارث البدع حتى أن من أنكرها عليهم عادوه وشنعوا عليه وقالوا: هذا يبغض الصالحين، ويبغض كذا؛ فالمسألة خطيرة جدًّا ويجب التنبه لها، ولا يكفي أنك تعرف هذا وتتمسك به؛ بل لا بد أنك تدعو إليه وتبين للناس، تبين لأهلك، وتبين لأهل بلدك، وتبين للناس هذه الأمور، تبلغ عن الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ فالإنسان لا يكتفي بنفسه فقط؛ بل عليه واجب نحو غيره، ولو أن الناس قالوا وقالوا أو هددوك أو ضايقوك فلا تخش في الله لومة لائم، نعم، لا تتعدى على الناس ولكن بيّن لهم الحق، وإذا بينت الحق أديت ما عليك، الهداية بيد الله وإنما عليك البلاغ، بعض الناس يقول: الناس لا يقبلون. فأنت لا عليك، وإنما عليك البيان، إن قبلوا فهذا خير لهم، وإن ما قبلوا فأنت أبرأت ذمتك وتكون المسؤولية عليهم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٩).
(٣) برقم (١٥٧٨).

«كل عَمِلٍ ليس عليه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». وكل عمل بلا متابعة فإنه لا يزيد عامله إلا بعدًا من الله تعالى، فإنه تعالى لا يعبد إلا بأمره، لا بالأهواء والآراء.

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ووقوفه بين يديه، ويرجو أن يرى الله في الدار الآخرة، وتقر عينه برؤية الله ﷻ، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، ما هو العمل الصالح؟ هو العمل الذي اجتمع فيه الشرطان: الإخلاص، والمتابعة، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾؛ أي: خالصًا من البدعة، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾؛ أي: خالصًا من الشرك.

قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥]، فلا أحد أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله هذا الإخلاص، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ أي: متبع للرسول ﷺ، هذان الشرطان: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥]؛ فملة إبراهيم عليه السلام هي الإخلاص والمتابعة، وهي التي بُعث بها محمدٌ ﷺ، ملة أبيكم إبراهيم.

قوله ﷺ: (كل عَمِلٍ ليس عليه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)، هذا فيه شرط المتابعة، **(كل عَمِلٍ ليس عليه أَمْرُنَا)**؛ أي: لم نشرعه، **(فَهُوَ رَدٌّ)**؛ أي: مردود على صاحبه، لا يُقبل عند الله ﷻ.

قوله: (وكل عمل بلا متابعة فإنه لا يزيد عامله إلا بعدًا من الله تعالى)؛ أي: كل عمل ليس فيه متابعة للرسول فإنه لا يزيد عامله إلا بُعدًا عن الله ﷻ، وهو يزعم أنه يتقرب إلى الله به، وهو يبعده عن الله، نسأل الله العافية.

قوله: (فإنه تعالى لا يُعبد إلا بأمره، لا بالأهواء والآراء)؛ أي: لا يعبد الله ﷻ عبادة صحيحة إلا بأمره، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]؛ أي: مخلصين له العبادة، وكل عمل ليس فيه إخلاص فهو باطل، وكل عمل ليس فيه متابعة فهو باطل. انتهى الضرب

....

الأول: أهل الإخلاص والمتابعة، وهؤلاء هم السعداء ولكن هذا يحتاج إلى أمور:

أولًا: يحتاج إلى علم ويتعلم الإنسان، فلا يعبد الله على ما وجد الناس عليه، لا بد أن يتعلم فيعرف ما هو العمل الصالح، والعمل الباطل؛ فالعلم أول شيء، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩]، أما إذا كان جاهلًا فقد يغتر بعمل الناس، ويطيع دعاة الضلال؛ لأنه يحسن الظن بهم، بخلاف إذا كان عنده علم، فلا يطيع دعاة الضلال ولا يستحسن الباطل؛ لأنه يميز بين الحق والباطل.

ثانيًا: الصبر على ما يلقى من الناس، من اللوم والتهديد والتحقير والتجهيل، وغير ذلك، يصبر، هذا في سبيل الله ﷻ، فما يصيبك أقل مما يصيب الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من الناس، وقد صبروا على ما لقوا من الأذى، فلا بد أن تصبر، والذي ليس عنده صبر لا يستمر على العمل، يترك العمل.

كما يجب أن نعلم أن الإنسان قد يكون على سُنَّة وعلى إخلاص ومتابعة، ولكن يأتيه الشيطان ويقول له: هذا عمل قليل، زوِّد، حتى تشق على نفسك، يقول له: صم ولا تفطر أبدًا، لا تزوج النساء فهذا يشغلك، لا تطلب العلم فهذا يشغلك عن العبادة. فيستحسن هذا، كما في حديث الذين جاءوا يسألوا عن عمل النبي ﷺ وهم من الصحابة، وكأنهم تقالّوا عمل الرسول، «فلما أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ من النبي ﷺ قد غُفِرَ الله له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ»؛ أي: فهو قليل العمل لأنه مغفور له، أما نحن بحاجة إلى الزيادة، «قال أَحَدُهُمْ: أَمَّا أنا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وقال آخَرُ: أنا أَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا»[1]،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣).

....

وفي رواية: «وقال بَعْضُهُمْ لَا آكُلُ اللَّحْمَ»[(١)]، وكل هذا من باب التعبد، فَبَلَغَ ذلك النبي ﷺ فقال: **«أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا واللهِ إني لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ له لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ؛ فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»**[(٢)]، فلا يشدد الإنسان على نفسه؛ بل يكون معتدلًا؛ لأن التشديد يقطعه عن العمل، فكم من متشدد ترك العمل، كم من متشدد انحرف وزاغ عن الطريق، فالتشدد شر؛ فالتشدد في العبادة والزيادة عن الحد المشروع هذا شر، والاعتدال هو الخير، والنبي ﷺ يقول: **«إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»**[(٣)]، مثلًا المسافر معه راحلة، فإذا شدد عليها في السير فإنها تنقطع ويبقى في الطريق، لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى، فقد تموت الراحلة والمسافة باقية بسببه، فلو أنه أخذ الطريق بالاعتدال وهوَّن على راحته في السير، ونام أول الليل وأدلج آخر الليل، وقت البراد، وأخذ السير بالسعة لبلغ المنى واستراح أيضًا، ولكن هذا شدد على الراحلة فانقطعت، والمسافة باقية، فهذا لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع؛ كذلك المتشدد في الدين يؤول أمره إلى هذا؛ لأن الشيطان حريص، الشيطان ينظر إلى ابن آدم فيبدأه بترك العمل، اترك العمل وتمتع بهذه الدنيا، وخذ حظك من هذه الدنيا، وتمتع بها، ويمكن إذا كبرت أنك تتوب إلى الله، وأنك تُقبل على الله، فأنت شاب الآن. فيأتيه الشيطان ويعطله عن العمل، فإذا رأى أنه لن يترك العمل، وعنده رغبة في العمل، حمله على الزيادة، هذا قليل فلتزدد، لماذا؟ من أجل أن ينقطع ويترك العمل، فهذا الشيطان مع ابن آدم، فهو إما أن يصرفه عن العمل، وإما أن يشدد عليه حتى يتركه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٠١).
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣).
(٣) أخرجه البيهقي (٤٥٢٠).

*** الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة له، وهؤلاء شرار الخلق، وهم المتزينون بأعمال الخير، يراءون بها النّاس.**

*** وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلى الفقه والعلم والفقر والعبادة، فإنهم يرتكبون البدع والضلال والرّياء والسّمعة، ويحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا. وفي أضراب هؤلاء نزل قوله تعالى:** ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨].

قوله: **(من لا إخلاص له ولا متابعة له)**، هذا أشقى الخلق والعياذ بالله، لا إخلاص ولا متابعة؛ بل هو أضل من البهائم، فهم لا إخلاص ولا متابعة، يعملون بالبدع ولا يخلصون لله، ويراءون الناس، هؤلاء شرار الخلق والعياذ بالله، فهو ليس على إخلاص، ولا على متابعة، هو يعمل ويشتغل! ولكنه فاقد للشرطين.

قوله: **(وهؤلاء شرار الخلق)**، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

قوله: **(وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلى الفقه والعلم والفقر والعبادة)**؛ أي: هذا يكثر في الصوفية.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ بما أتوا من البدع، ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ من السنن، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ﴾؛ أي: بمنجاة، ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ نسأل الله العافية، وهذه الآية وإن نزلت في اليهود فهي عامة لكل من اتصف بصفتهم.



*** الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر؛ كحال العباد، والمنتسبين إلى الزّهد والفقر، وكل من عبد الله على غير مراده. والشأن ليس في عبادة الله فقط؛ بل في عبادة الله كما أراد الله. ومنهم من يمكث في خلواته تاركًا للجمعة، ويرى ذلك قربة،**

قوله: **(من هو مخلص في أعماله)**، فهو مخلص لله، ولا يشرك به شيئًا، ولكنه **(على غير متابعة الأمر)**، فهو لا يتبع الرسول بل يعمل بالبدع والمحدثات؛ فالله لا يقبل هذا منه.

قوله: **(كحال العباد، والمنتسبين إلى الزّهد والفقر)**، وهذا يكثر في الصوفية؛ لأنهم هم الذين يحدثون البدع وإن كانوا مخلصين لله، ولكنهم يعبدون الله على بدع، لم يأت بها الرسول ﷺ، وهم يريدون الخير ومقاصدهم حسنة، ولكن هذا لا يغني شيئًا فلا بد من المتابعة للرسول ﷺ، والعلماء يقولون: اقتصاد في سُنَّة، خير من اجتهاد في بدعة، هذه قاعدة عظيمة، اقتصاد في سُنَّة خير من اجتهاد في بدعة، فالعمل القليل على السُّنَّة أحسن من العمل الكثير على البدعة.

قوله: **(والشأن ليس في عبادة الله فقط؛ بل في عبادة الله كما أراد الله)**، فليس المقصود عبادة الله فقط؛ بل المقصود عبادة الله كما أراد الله؛ يعني: كما شرع الله، وليس المقصود أنك تتعبد وتعمل؛ بل المقصود أنك تعبد الله على حسب وعلى وفق أمره وشرعه الذي بعث به رسوله ﷺ، فهو القدوة، وقد أحالنا الله عليه في كل عمل، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، فإذا أردت أن تجمع الشرطين: الإخلاص، والمتابعة، فاقتد بالرسول ﷺ، **(بل في عبادة الله كما أراد الله)**؛ أي: كما شرع الله.

قوله: **(ومنهم من يمكث في خلواته تاركًا للجمعة، ويرى ذلك قربة)**، فمن العباد والصوفية من يخلو عن الناس وينقطع ويترك الجمعة والجماعة

ويرى مواصلة صوم النّهار بالليل قربة، وأن صيام يوم الفطر قربة، وأمثال ذلك.

بزعمه أن يتفرغ للعبادة، وهذا بعيد عن الله ﷻ، سئل ابن عباس ﵄ عن رجل يقوم الليل، ويصوم النهار، ولكنه لا يشهد الجمعة والجماعة، فقال: هو في النار[1]؛ فالخلوة التي تقطع عن الجمعة والجماعة وعن الدعوة إلى الله وعن تعليم الخير هذه خلوة شيطانية، وكثير من هؤلاء يأتيهم الشيطان في خلوتهم فيضلهم عن سبيل الله ويخرجون ملاحدة والعياذ بالله.

قوله: **(ويرى مواصلة صوم النّهار بالليل قربة)**؛ يعني: يواصل صوم الليل بالنهار ولا يفطر، والرسول ﷺ قال: «**لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ**»، الإنسان بشر فلا يتحمل أن يكون دائمًا صائم الليل والنهار، ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ**﴾ [البقرة: ١٨٧] إلى آخر الآية، وهذا للاستعانة به على صيام النهار، فإذا كان الإنسان لا يفطر أبدًا فهذا بعيد عن الله ﷻ، وليس هذا ما شرعه الله، ﴿**يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ**﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨]، فأنت إذا نظرت إلى هذا الدين، وجدته سمحًا سهلًا متيسرًا ولله الحمد، ليس فيه مشقة ولا خطر عليك، يسايرك مع كل أحوالك، المريض يشرع له عبادة، والمسافر له عبادة، وحالة الخوف لها عبادة، صلاة الخوف، صلاة المسافر، صلاة المريض، كل على حسب استطاعته، ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فديننا ولله الحمد مرن ويساير المسلم في كل أحواله، ولا يشق عليه. قوله: **(وأن صيام يوم الفطر قربة، وأمثال ذلك)**، يجبرهم الشيطان إلى حد أنهم يصومون يوم عيد الفطر، ويقولون: نحن لا نفطر، نحن نريد الخير ونريد زيادة الخير وزيادة العبادة، فكيف نفطر يوم العيد!، وهذا من الشيطان.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨).

*** الضرب الرّابع: من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله تعالى؛ كطاعات المرائي. وكالرجل يقاتل رياءً وسمعةً وحمّيةً وشجاعةً وللمغنم، ....**

قوله: **(من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله تعالى)**؛ أي: من عنده متابعة ولكن ليس عنده إخلاص لله ﷻ.

قوله: **(كطاعات المرائي)**، مثل الرجل الذي يقوم ويحسن صلاته لما يرى من نظر رجل إليه، الصلاة مشروعة، وهو مُتبع، ولكن ليس هناك إخلاص؛ بل هو يريد المدح، يريد ثناء الناس عليه، هذا لا تُقبل صلاته؛ ولهذا قال ﷺ لأصحابه: «**ألا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هو أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي من الْمَسِيحِ الدَّجَالِ؟**»، قالوا: بَلَى، فقال: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى من نَظَرِ رَجُلٍ**»[1]، هذا أخطر شيء على المسلم.

قوله: **(وكالرّجل قاتل رياءً وسمعةً وحمّيةً وشجاعةً وللمغنم)**، كما جاء في الحديث: «**فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي ﷺ؟ قَالَ: بَلَى، يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ لَهُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى، يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ، وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ إِنَّمَا أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ... أُولَئِكَ الثَّلاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤).

ويحجّ ليقال، ويقرأ ويعلّم ويؤلف ليقال. فهذه أعمال صالحة لكنها غير مقبولةٍ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، **فلم يؤمر النّاس إلا بالعبادة على المتابعة والاخلاص فيها. والقائم بها هم أهل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.**

بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]. لماذا؟ لأن من تعلم يريد المدح والثناء ومباهاة العلماء فهذا يسحب للنار، وكذا من يقاتل حمية مع قومه، أو يقاتل للغنيمة، فهؤلاء ليسوا في سبيل الله، فالمدار على إخلاص لله ﷻ.

قوله: (ويحجّ ليقال)، من يحج ويعتمر لأجل أن يُقال: فلان يحج ويعتمر؛ فإذا كان هذا قصده في قلبه فليس له حج أو عمرة؛ لأنه لم يحج لله وإنما حج للمدح والرياء، والمباهاة.

قوله: (ويقرأ)، من يقرأ القرآن ويزين صوته لأجل أن يستمعه الناس ويمدحوه، وليس يقرأ تقربًا إلى الله، أو تدبرًا للقرآن، نسأل الله العافية، القرّاء المراؤون بأعمالهم.

قوله: (ويعلّم ويؤلف ليقال)، وكذلك من يشتغل بالعلم لأجل أن يمدح، فهذا ليس له نصيب عند الله ﷻ، وإن كان عالمًا متبحرًا.

قوله: (فهذه أعمال صالحة لكنها غير مقبولةٍ)، لماذا؟ لأنها تفقد الإخلاص، هي صالحة لأنها متابعة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، هذا شرط الإخلاص، فلا يعبدون الله فقط؛ بل يعبدون الله مخلصين له الدين.

قوله: (فلم يؤمر النّاس إلا بالعبادة على المتابعة والاخلاص فيها، والقائم بها هم أهل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾) وهم الصنف الأول الذين جمعوا بين الإخلاص والمتابعة، وهم أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢).

*** ثم أهل مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقّها بالإيثار والتخصيص، أربعة طرق، وهم في ذلك أربعة أصناف:**

*** الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النّفوس وأصعبها، قالوا: لأنه أبعد الأشياء من هواها، وهو حقيقة التعبّد،**

تقدم أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر أنه يُشترط لقبول العمل عند الله شرطان:

الشرط الأول: الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ.

الشرط الثاني: المتابعة للرسول ﷺ.

ثم قال: إن أهل الإخلاص والمتابعة هم أهل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، هذه الآية من سورة (الفاتحة)، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هذا فيه الإخلاص، وقد قدم المعمول وهو: ﴿إِيَّاكَ﴾ على العامل وهو ﴿نَعْبُدُ﴾، يفيد الإخلاص، فهذا فيه تخصيص، وفيه إخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ؛ أي: لا نعبد سواك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ كذلك لا نستعين إلا بك، قال العلماء: هذا عهد بين العبد وبين ربه ألا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، فيجب على المسلم أن يلتزم بهذا العهد الذي يكرره في كل ركعة من صلاته، يخاطب به ربه عَزَّ وَجَلَّ، وأهل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فهم على أربعة أصناف سيذكرها المؤلف.

قوله: (عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النّفوس وأصعبها) هؤلاء هم الصنف الأول، وهذا الكلام فيه نظر كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، أن أفضل العبادات أشقها وما فيه تعب كثير على النفس، هذا فيه نظر؛ لأن أفضل العبادات هو أخلصها لله عَزَّ وَجَلَّ، وقد يكون العمل شاقًا ولكنه لا يقبله الله؛ كالذي يعمل بالبدع، فأهل البدع عندهم تعب وعندهم مشقة، وعندهم تقشف، وعندهم حرمان للنفوس، ولكنهم على غير هدى، وعلى غير متابعة؛ فالأجر إنما هو على قدر الإخلاص، والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لا يقر هذا وإنما يحكيه، وهذا يغلب على الصوفية.

والأجر على قدر المشقّة، ورووا حديثًا ليس له أصل: «أفضل الأعمال أحمزها»؛ أي: أصعبها وأشقّها.

*** وهؤلاء هم أرباب المجاهدات، والجور على النّفوس، قالوا: وإنما تستقيم النّفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة والإخلاد إلى الرّاحة، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال، وتحمّل المشاق.**

قوله: **(والأجر على قدر المشقّة)** هذا غير صحيح؛ فالأجر على قدر الإخلاص، فقد يكون العمل شاقًّا ومكلفًا ولكن ليس فيه أجر أصلًا؛ لأنه على غير متابعة.

قوله: **(ورووا حديثًا ليس له أصل)**؛ أي: ليس ثابتًا عن النبي ﷺ؛ بل ليس محفوظًا عن النبي ﷺ، «أفضل الأعمال أحمزها»؛ أي: أصعبها وأشقّها، أخذوا من هذا أن أفضل الأعمال أشقها، وهذا الحديث ليس له أصل، فهذا القول غير صحيح.

قوله: **(وهؤلاء هم أرباب المجاهدات)**؛ أي: الصوفية.

قوله: **(قالوا: وإنما تستقيم النّفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة والإخلاد إلى الرّاحة، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال، وتحمّل المشاق)**، ولكن الرسول ﷺ قال: «**إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»[1]؛ فالنفس لها حق ألا تشق عليها، ولا تتعبها تعبًا يشق عليها؛ بل تعطيها قسطًا من الراحة، يقولون: النفس مثل الدابة إذا رفقت بها سافرت عليها وقطعت عليها المسافة، وإذا شققت عليها انقطعت في الطريق كالمنبت، فقد قال النبي ﷺ: «**فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى**»[2]، وقال: «**أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**»[3]، هذه هي أحب الأعمال.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٤).

(٢) أخرجه البيهقي (٤٥٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٤).

يُطالَبُ بِالأَوْرَادِ مَنْ هو غَافِلٌ　　فَكيفَ بِقَلبٍ كلُّ أَوقاتِه وِرْدُ

ثم هؤلاء ـ أيضًا ـ قسمان:

* منهم: من يترك الواجبات والفرائض لجمعيّته.

* ومنهم: من يقوم بها ويترك السّنن والنّوافل، وتعلّم العلم النّافع لجمعيّته.

(قولهم:

يُطالَبُ بِالأَوْرَادِ مَنْ هو غَافِلٌ　　فَكيفَ بِقَلبٍ كلُّ أَوقاتِه وِرْدُ)

هذه كلها اصطلاحات صوفية.

*** والحق: أن الجمعيّة حظ القلب، وإجابة داعي الله حقّ الرّب، فمن آثر حقّ نفسه على حقّ ربّه فليس من العبادة في شيء.**

*** الصنف الثالث: رأوا أن أفضل العبادات ما كان فيه نفعٌ متعدٍّ، فرأوه أفضل من النّفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح النّاس، وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالجاه والمال والنّفع أفضل؛ لقوله ﷺ: «الْخَلْقُ عِيَالُ اللهِ» ....**

ثم بيَّن المؤلف فقال: **(والحق: أن الجمعيّة حظ القلب)**، الجمعية: يعني: اقتصار القلب، فالمسلم يقوم بحق الله، ويعطي نفسه حقها، فلا يعطي نفسه حقها ويترك حق الله، ولا يكون كمن يتركون الفرائض ويتركون النوافل ويتركون طلب العلم، ويقولون: نحن نتفرغ لقلوبنا؛ لذكر الله ومناجاة الله. هذا غلط.

قوله: (الصنف الثالث: رأوا أن أفضل العبادات ما كان فيه نفعٌ متعدٍّ، فرأوه أفضل من النّفع القاصر)، هذا له وجه، فأفضل العبادات هو ما كان يتعدى نفعه، أفضل من العبادة التي فضلها قاصر على العبد فقط، على الفاعل فقط؛ لأن الذي يتعدى نفعه ينفع نفسه، وينفع غيره، وأما الذي ينفع نفسه فقط ولا ينفع غيره فهذا نفعه قاصر، وقد قال النبي ﷺ: **«وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ على الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ على سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»**؛ فالعابد مثل الكوكب يضيء لنفسه فقط، ولا يضيء للناس والمسافرين، أما القمر فإنه يضيء لنفسه، ويضيء للناس، فهو أنفع؛ كذلك العالم ينفع نفسه وينفع الناس، العابد إنما ينفع نفسه فقط، فالعمل الذي فيه نفع متعد أفضل من العمل القاصر على صاحبه.

قوله ﷺ: (الْخَلْقُ عِيَالُ اللهِ)؛ أي: فقراء إلى الله، من العيلة وهي الفقر،

وَأَحَبُّهم إلى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ»[(١)].

* قالوا: وعمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفّاع متعدّ إلى الغير، فأين أحدهما من الآخر؟ ولهذا كان «فَضْل الْعَالِمِ على الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ على سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، (**وَأَحَبُّهم إلى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ**)؛ أي: للفقراء، فهذا يدل على أن النفع المتعدي أفضل من النفع القاصر، معنى الحديث معروف، فالنفع المتعدي أفضل من النفع القاصر، وهذا له أدلة غير هذا الحديث.

قوله: (قالوا: وعمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفّاع متعدّ إلى الغير، فأين أحدهما من الآخر؟)، أين الإنسان الذي يصلي الليل ويصوم النهار ويجلس للأذكار من العالم الذي يعلم الناس ويدعوهم ويفتيهم، ويفصل بينهم إذا اختلفوا، فليس بينهما مقارنة، فالعالم أفضل.

قوله ﷺ: (فَضْل الْعَالِمِ على الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ على سَائِرِ الْكَوَاكِبِ)؛ فالكوكب لا يضيء للناس ولا ينفعهم، وإنما ينفعهم بالاقتداء والاهتداء في السفر فقط، ولكنه لا يضيء لهم الطريق، بخلاف القمر فإنه يضيء لهم الطريق وينتفعون به.



---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٥٤١)، وأبو يعلى (٣٣١٥)، والبزار (٦٩٤٧)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٢٠): رواه أبو يعلى والبزار، وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو متروك.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤٣).

*** وقد قال ﷺ لعلي: «لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ». وقال ﷺ: «من دَعَا إلى هُدًى كان له من الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ من تَبِعَهُ، من غير أن يَنْقُص من أُجُورِهِمْ شيئًا». وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ على مُعَلِّمِي الْخَيْرَ»[١]. وقال ﷺ: «إِنَّ الْعَالِم لَيَسْتَغْفِرُ له مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانِ في الْبَحْرِ، والنَّمْلَةُ في جُحْرِهَا»[٢]. ....**

قوله ﷺ لعلي بن أبي طالب عندما أعطاه الراية يوم خيبر، قال له: **«انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»**[٣]، هذا النفع في الدعوة، رجل واحد، فكيف إذا اهتدى به أمم من الناس وأجيال، وقد قال ﷺ: **«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»**[٤]؛ فالدعوة إلى الله هي النفع المتعدي.

قوله ﷺ: (إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ على مُعَلِّمِي الْخَيْرَ)، الصلاة من الله: الثناء على عبده في الملأ الأعلى، وصلاة الملائكة: الاستغفار، وصلاة الآدميين الدعاء، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ أي: ادع لهم.

قوله ﷺ: (إِنَّ الْعَالِم يَسْتَغْفِرُ له مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانِ في الْبَحْرِ، والنَّمْلَةُ في جُحْرِهَا)، هذا جزء من حديث أبي الدرداء، وقد شرحه الإمام ابن رجب في رسالة مستقلة باسم (شرح حديث أبي الدرداء: من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا) شرحًا وافيًا في رسالة مستقلة، وهي مفيدة

---

(١) بمعناه أخرجه الترمذي (٢٦٨٥).
(٢) انظر: الترمذي (٢٦٨٢ ـ ٢٦٨٥).
(٣) أخرجه البخاري (٣٠٠٩).
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

قالوا: وصاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النّفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي تسبّب فيه. والأنبياء ـ عليهم الصّلاة والسّلام ـ إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق، وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم،

جدًّا، لماذا الحيتان في البحر تستغفر له، والنمل في جحرها تستغفر له؟ لأنه يدعو الناس إلى الخير، ويحصل المطر ويحصل الريف، وكثرة الخير، فالنملة تأكل من رزق الله ﷻ، الذي يحدث بسبب هذا العالِم الذي يعلِّم الناس الخير، وينزل الخير بسببه، وتصلح الأرض بسببه، وأما صاحب الشر والعياذ بالله فإنه تلعنه الحيتان في البحر، وتلعنه الدواب، كما قال ﷻ: ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩]، من الدواب والحشرات التي تموت بسببه؛ لأنه تسبب في فساد الأرض وانحباس المطر.

قوله: (قالوا: وصاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النّفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي تسبّب فيه)، هذا من الفروق فصاحب العبادة والنفع القاصر إذا مات انقطع عمله، وأما العالم وإن مات لن ينقطع عمله ما بقي علمه ينتفع به، كما في الحديث: «**إذا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنه عَمَلُهُ إلا من ثَلَاثَةٍ: إلا من صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له**»[1]، وأفضل هذه الثلاث هو العلم؛ لأن الوَلد يموت وإن تأخر عن أبيه ودعا له، ولكنه يموت، وكذا الوقف يمكن أن يتعطل وقد يذهب، أما العلم فإنه يبقى ينتفع به أجيال وأجيال، ويبقى نفعه لصاحبه دائمًا مستمرًّا؛ فالعلم أفضل شيء.

قوله: (والأنبياء ـ عليهم الصّلاة والسّلام ـ إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق، وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم)، الأنبياء إنما بعثوا إلى الناس لدعوتهم وهدايتهم ونفعهم، والعلماء ورثة الأنبياء، يقومون مقام الأنبياء في نفع الناس، وتعليم الناس، فعملهم مستمر ونافع، وأجرهم مستمر بعد موتهم،

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع. ولهذا أنكر النّبي ﷺ على أولئك النّفر الذين همّوا بالانقطاع والتّعبّد، وترك مخالطة النّاس. ورأى هؤلاء أن التّفرغ[١] لنفع الخلق أفضل من الجمعيّة على الله بدون ذلك، قالوا: ومن ذلك العلم والتّعليم، ونحو هذه الأمور الفاضلة.

كما ترون الآن أن الناس يهتدون بكتب السلف الصالح والعلماء السابقين والأئمة وينتفعون بها، ويدرسونها ويعود نفعها إلى من ورثها من العلماء، والأنبياء هم القدوة، فما بعثوا لأنفسهم فقط لأجل أن يعبدوا الله فقط؛ بل بُعثوا ليعبدوا الله وليأمروا بعبادة الله.

قوله: **(لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع)**؛ يعني: ليخلوا بأنفسهم وينقطعوا عن الناس ويشتغلوا بالعبادة فقط.

قوله: **(ورأى هؤلاء أن التّفرغ لنفع الخلق أفضل من الجمعيّة على الله بدون ذلك)**؛ أي: أن الإنسان يخالط الناس وينفعهم ويدعوهم أنفع من الذي يعتزلهم، فالناس إذا صاروا على أخطاء وعلى ذنوب ومعاص يقول بعض الناس: الأفضل لي أني أعتزل وأتركهم. فهذا فيه تفصيل: إذا كان لا يؤثر في الناس ولا ينفع، فهذا الأحسن له أن يعتزل؛ أما إذا كان ينفع الناس، ويدعو إلى الله، ويبصر الناس فهذا الأفضل أنه يخالط الناس، ويصبر على أذاهم؛ فهل العزلة أفضل أم الاختلاط بالناس؟ نقول: الناس يختلفون في هذا. فالصنف الثالث هم من يقولون: إن أفضل العمل ما كان نفعه متعديًا، وهذا صحيح، وواضح.



---

(١) في نسخة: التفرق.

❊ الصنف الرّابع: قالوا أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرّب سبحانه، واشتغال كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النّهار؛ بل من ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن. والأفضل في وقت حضور الضّيف: القيام بحقّه والاشتغال به. والأفضل في أوقات السّحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والذّكر والدّعاء. والأفضل في وقت الأذان: ترك ما هو فيه من الأوراد والاشتغال بإجابة المؤذن. والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجدّ والاجتهاد في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أوّل الوقت، والخروج إلى المسجد وإن بَعُدَ. والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج: المبادرة إلى مساعدته بالجاه والمال والبدن.

أفضل الأعمال على هذا القول هي: أن تؤدى كل عبادة في وقتها المحدد لها، فإذا كان الوقت وقت جهاد في سبيل الله فأفضل الأعمال الجهاد في سبيل الله، وإذا كان الوقت وقت طلب العلم، والتفرغ لطلب العلم فأفضل الأعمال هو التفرغ لطلب العلم، وهذا يتعدى إلى العبادات المؤقتة الموظفة، فكل عبادة في وقتها أفضل من العبادة المطلقة.

فمثلًا: ما بين الأذان والإقامة الاشتغال بالدعاء أفضل من تلاوة القرآن؛ لأن الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة، وتلاوة القرآن لا تفوت بل لها وقت مطلق، تقرأه في أي وقت، ولكن هذا الذكر إذا فات وقته فاتت فضيلته؛ فالعبادة المؤقتة في وقتها أفضل من العبادة المطلقة. وقوله: **(والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج: المبادرة إلى مساعدته بالجاه والمال والبدن)**، كذلك وقت الحاجة والفقر أفضل الأعمال أنك تساعد المحتاج، قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١١ ـ ١٦]، ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾؛ يعني: الجوع؛ فالتصدق في وقت الرخاء طيب؛ لكن ليس كمثل التصدق في وقت الجوع والحاجة.

*** والأفضل في السّفر: مساعدة المحتاج، وإعانة الرّفقة، وإيثار ذلك على الأوراد والخلوة. والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعيّة القلب، والهمّة على تدبّره، والعزم على تنفيذ أوامره، أعظم من جمعيّة قلب من جاءه كتابٌ من السّلطان على ذلك. والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التّضرّع والدّعاء والذّكر. والأفضل في أيام عشر ذي الحجّة: الإكثار من التّعبّد، لا سيما التّكبير والتّهليل والتّحميد، وهو أفضل من الجهاد غير المتعيّن.**

قوله: **(والأفضل في السّفر..)**، كون المسافر يخدم زملائه وإخوانه أفضل من كونه يجلس للذكر وتلاوة القرآن، والنبي ﷺ كان في الأسفار في آخر الركب، يتفقد المحتاج والمنقطع.

قوله: **(والأفضل في وقت الوقوف بعرفة..)**، ففي يوم عرفة الوقوف للدعاء، أو الجلوس للدعاء أفضل من صلاة النافلة في هذا اليوم، قال ﷺ: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ**»(١)، فاشتغل بالدعاء، وتؤدي الفرائض في وقتها، وفي غير وقت الفرائض تشتغل بالدعاء، فهذا أفضل من الجلوس للذكر والاستغفار.

قوله: **(والأفضل في أيام عشر ذي الحجّة..)**؛ الرسول ﷺ قال: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «**وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(٢)؛ لأن هذا ذكر مؤقت، وعمل مؤقت يفوت بفوات وقته، والجهاد لا يفوت.



(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٧٥٧).

*** والأفضل في العشر الأواخر من رمضان: لزوم المساجد، والخلوة فيها، مع الاعتكاف والإعراض عن مخالطة النّاس، والاشتغال بهم، حتى أنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن عند كثيرٍ من العلماء.**

*** والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته وحضور جنازته، وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيّتك.**

*** والأفضل في وقت نزول النّوازل وأذى النّاس لك: أداء واجب الصّبر مع خلطتك لهم، والمؤمن الذي يخالط النّاس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط النّاس ولا يصبر على أذاهم.**

قوله: (والأفضل في العشر الأواخر من رمضان..) وهذا الذي كان يحصل من الرسول ﷺ في العشر الأواخر، مع أنه كان في كل أعماله كان في جهاد، وكان في تعليم، وكان في دعوة، وكان في قضاء حوائج الناس، فكان في العشر يعتكف وينفرد عن الناس، وينعزل عن الناس بمكان خاص، ينعزل لذكر الله وعبادته ومناجاته؛ لأن هذه العشر تفوت، أما تعليم الناس الأمور الأخرى من الأعمال الصالحة فهذه لا تفوت، فمبادرة الأوقات قبل فواتها أحسن من التفريط فيها والانشغال بعمل غير خاص بها.

قوله: (والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته..)، فكونك إذا مرض مسلم واحتاج إليك، واحتاج إلى حضورك، واحتاج إلى مساعدتك فهذا أفضل من أنك تجلس في المسجد للذكر وتلاوة القرآن، وصلاة النوافل.

قوله: (والمؤمن الذي يخالط النّاس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط النّاس ولا يصبر على أذاهم) هذا كما سبق فيه تفصيل:

فإن كان اختلاطك بالناس فيه نفع لهم، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وتعليم، ودعوة فخلطتك لهم أفضل.

وإن كان لا يحصل لك شيء من هذا، فعزلتك أفضل لك.

* وخلطتهم في الخير أفضل من عزلتهم فيه، وعزلتهم في الشّر خير من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله وقلّله فخلطتهم خير من اعتزالهم.

* وهؤلاء هم أهل التّعبّد المطلق، والأصناف التي قبلهم أهل التّعبّد المقيّد، فمتى خرج أحدهم عن الفرع الذي تعلّق به من العبادة وفارقه؛ يرى نفسه كأنه قد نقص ونزل عن عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد.

* وصاحب التّعبّد المطلق ليس له غرض في تعبّد بعينه يؤثره على غيره؛ بل غرضه تتبّع مرضات الله تعالى، إن رأيت العلماء رأيته معهم، وكذلك في الذّاكرين، والمتصدّقين، وأرباب الجمعيّة، وعكوف القلب على الله، فهذا هو الغذاء الجامع للسّائر إلى الله في كل طريق، والوافد عليه مع كل فريق.

قوله: (وخلطتهم في الخير أفضل من عزلتهم فيه)، قال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه: «إذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاعتزل إساءتهم».

قوله: (وصاحب التّعبّد المطلق ليس له غرض في تعبّد بعينه يؤثره على غيره..)، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]، فأنتم يجب أن تكون مع الصادقين، مع أهل العلم، مع أهل العبادة، مع أهل الجهاد في سبيل الله، مع المتصدقين، والمنفقين، تساهم في كل سبيل من سبل الخير ما استطعت، لا تقتصر على نوع واحد.



* واستحضر ههنا حديث أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وقول النّبي ﷺ بحضوره: «هَل مِنْكُمْ أحدٌ أَطْعَمَ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟ قال أبو بَكْرٍ: أنا. قال: هل مِنْكُمْ أحد أَصْبَحَ الْيَوْمَ صَائِمًا؟ قال أبو بَكْرٍ: أنا. قال: هل مِنْكُمْ أحد عَادَ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟. قال أبو بَكْرٍ: أنا. قال: هل مِنْكُمْ أحد اتبعَ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟ قال أبو بَكْرٍ: أنا...» الحديث[1]. هذا الحديث روي من طريق عبد الغني بن أبي عقيل، قال: حدّثنا يغنم بن سالم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ جالسًا في جماعةٍ من أصحابه فقال: من صام اليوم؟. قال أبو بكر: أنا. قال: من تصدّق اليوم؟. قال أبو بكر: أنا. قال: من عاد اليوم مريضًا؟. قال أبو بكر: أنا. قال: فمن شهد اليوم جنازةً؟. قال أبو بكر: أنا. قال: وجبت لك»[2]؛ يعني: الجنّة. ويغنم بن سالم وإن تُكلِّم فيه، لكن تابعه سلمة بن وردان، وله أصل صحيح من حديث مالك، عن محمد بن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمٰن بن عوف، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ في سَبِيلِ اللهِ، نُودِيَ في الْجَنَّةِ: يا عَبْدَ اللهِ، هذا خَيْرٌ، فَمَنْ كان من أَهْلِ الصَّلَاةِ، نودي من بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كان من أَهْلِ الْجِهَادِ، نودي من بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كان من أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ من بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كان من أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ من بَابِ الرَّيَّانِ، فقال أبو بَكْرٍ رضي الله عنه: يا رَسُولَ اللهِ ما على من دُعِيَ من تِلْكَ الْأَبْوَابِ من ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ من تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قال: نعم، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ منهم»[3].

* هكذا رواه عن مالك موصولًا مسندًا يحيى بن يحيى، ومعن بن عيسى، وعبد الله بن المبارك. ورواه يحيى بن بكير، وعبد الله بن يوسف،

---

(١) انظر: صحيح مسلم (١٠٢٨).

(٢) انظر: المصنف لعبد الرزاق (٦٧٦٥).

(٣) انظر: صحيح البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧).

عن مالك عن أبي شهاب، عن حميد مرسلًا. وليس هو عند القعنبي لا مرسلًا ولا مسندًا.

* ومعنى قوله ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ»؛ يعني: شيئين من نوعٍ واحدٍ، نحو درهمين، أو دينارين، أو فرسين، أو قميصين، وكذلك من صلّى ركعتين، أو من مشى في سبيل الله تعالى خطوتين، أو صام يومين، ونحو ذلك؟

* وإنما أراد ـ والله أعلم ـ أقل التكرار، وأقل وجوه المداومة على العمل من أعمال البرّ؛ لأن الاثنين أقل الجمع، فهذا كالغيث أينما وقع نفع، صحب الله بلا خلق، وصحب الخلق بلا نفس، إذا كان مع الله عزل الخلائق مع البين وتخلّى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلّى عنها، فما أغربه بين النّاس، وما أشدّ وحشته منهم، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به وطمأنينته وسكونه إليه.

فأبو بكر ﷺ شارك في كل هذه المجالات؛ فالمسلم يشارك في أعمال الخير ولا يقتصر على نوع واحد منها.

وقول أبي بكر الصديق ﷺ: (فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ من تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟) وقد نال هذه المرتبة العظيمة، أفضل الأمة أبو بكر الصديق؛ ولذلك لُقب بالصديق، لكثرة صدقه ﷺ، صدق مع الله، وصدق مع رسول الله، وصدق مع الخلق.



* واعلم أن للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرائق، وهم في ذلك أربعة أصناف:

* الصنف الأول: نفاة الحكم والتعليل، الذين يردّون الأمر إلى نفس المشيئة، وصرف الإرادة؛ ....

ما زال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يتكلم عن معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ العبادة كما سبق أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، والناس في العبادة وحكمتها، وهل فيها حكمة أم ليس فيها حكمة، لهم كلام في هذا، ما بين الجبرية، وما بين القدرية، ومذهب أهل السُّنَّة والجماعة في ذلك معروف.

قوله: **(الصنف الأول)**، هؤلاء الجبرية الذين يقولون: العبادة ليس لها حكمة، وإنما نحن نفعلها لمجرد الأمر، طاعة للأمر فقط، وإلا فهي ليس لها فائدة ولا حكمة، ويقولون: إن أفعال الله كلها ليس فيها حكمة، وإنما يفعلها لمجرد مشيئته، وإرادته فقط، ليس لأجل حكمة في ذلك، فينفون الحكمة عن الله ﷻ، ويجعلون أفعاله عبثًا ليس لها حكمة. وهذا مذهب الجبرية، وأول من قال به الجهم بن صفوان، وكذا تقول به الأشاعرة أيضًا ينفون الحكمة، ويقولون: إن الله لا يفعل لأجل حكمة، وإنما يفعل لمجرد مشيئته وإرادته، ولو عذب المطيع وأكرم العاصي، فإن هذا لمجرد إرادته؛ لأنه يفعل ما يشاء، وأما أن العاصي يستحق العقاب، والعابد والمطيع يستحق الثواب؛ فالأمر ليس كذلك عندهم، فهم ينفون الحكمة، وينفون أن يكون الثواب والعقاب لحكمة، وإنما هو لمجرد المشيئة والإرادة، ويقولون: إن الله يفعل ما يشاء. نعم، الله يفعل ما يشاء ولكن لحكمة، يفعل ما يريد لحكمة، فهو لا يُسأل عما يفعل؛ لأن أفعاله لحكمة، فليس لا يُسأل عما يفعل أنه يفعل الأشياء لغير حكمة، فهذا تنقّص لله ﷻ، هؤلاء هم نفاة الحكمة عن الله ﷻ وأفعاله.

فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرّد الأمر، من غير أن يكون سببًا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببًا لنجاة، وإنما القيام بها لمجرّد الأمر ومحض المشيئة، كما قالوا في الخلق: لم يخلق لغايةٍ ولا لعلّةٍ هي المقصودة به، ولا لحكمةٍ تعود إليه منه، وليس في المخلوق أسباب تكون مقتضيات لمسبباتها، وليس في النّار سبب الإحراق، ولا في الماء قوّة الإغراق ولا التّبريد.

قوله: (فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرّد الأمر)، لا لأجل الحكمة، ولأجل الثواب والعقاب.

قوله: (من غير أن يكون سببًا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببًا لنجاة)؛ فالأفعال والعبادة عندهم ليست سببًا للسعادة، الكفر ليس سببًا للشقاوة، هكذا يقولون، ينفون الأسباب وينفون الحكمة، وإنما يردون هذا إلى المشيئة والإرادة فقط، الإرادة المحضة والمشيئة المحضة، وهذا عين الضلال، وتنقص لله ﷻ، ووصف أفعاله بالعبث.

قوله: (كما قالوا في الخلق) وهو من أفعال الله، **(لم يخلق لغايةٍ ولا لعلّةٍ هي المقصودة به، ولا لحكمةٍ تعود إليه منه، وليس في المخلوق أسباب تكون مقتضيات لمسبباتها، وليس في النّار سبب الإحراق، ولا في الماء قوّة الإغراق ولا التّبريد)**، فينفون خواص الأشياء؛ كالإحراق في النار، والإغراق في الماء، ينفون الخواص، ويقولون: هذا راجع إلى مشيئة الله، مجرد المشيئة ومجرد الإرادة، لا لأن النار بطبيعتها تحرق، ولا لأن السيف بطبيعته يقطع، ولا.. ولا.. إلى آخره، وهذا هذيان ولكن الضلال يأتي بأكثر من هذا.



❋ وهكذا الأمر عندهم سواء، لا فرق بين الخلق والأمر، ولا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور صفةٌ تقتضي حُسنه، ولا بالمنهي عنه صفةٌ تقتضي قبحه.

وأول من صدرت عنه المقالة: الجّعد بن درهم.

قوله: (وهكذا الأمر عندهم سواء، لا فرق بين الخلق والأمر)؛ فالخلق هو الأمر، والأمر هو الخلق، لا يفرقون بين هذا وهذا، ويعنون بالأمر: الشرع، والخلق هو التكوين والإيجاد، فليس عندهم فرق بين هذا وهذا، والله ﷻ قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ فالذي خلق هو الذي يأمر عباده وينهاهم، لحكمة ولغاية ولثمرة.

قوله: (ولا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور)؛ يعني: الحلال والحرام، لا فرق في ذلك عندهم؛ لأنه ليس هناك حكمة عندهم أصلًا، فجائز عندهم أن الله يأمر بالشرك، ويأمر بالزنا، ويأمر بالمعاصي، هذا جائز عندهم، وأن ينهى عن الصلاة والزكاة، فهذا راجع إلى مشيئته وإلى إرادته فقط، من غير فرق بين أمر ونهي، وبين حلال وحرام، بين طاعة ومعصية.

قوله: (ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا)، فقط يقولون: يفعل لمجرد المشيئة، لا لأن المنهي قبيح، والمأمور به حسن، لا ليس كذلك عندهم؛ بل هو يأمر وينهى لمشيئته وإرادته، وقد يأمر بالمعصية والكفر والشرك، فيجوز عندهم هذا، وينهى عن الطاعة والصلاة وعن الزكاة!، هكذا يقولون في حق الله ﷻ؛ لأنهم لا يصفونه بالحكمة في أفعاله وأوامره ونواهيه.

قوله: (من غير أن يقوم بالمأمور صفةٌ تقتضي حسنه، ولا بالمنهي عنه صفةٌ تقتضي قبحه)، فليس عندهم تحسين ولا تقبيح.

*** ولهذا الأصل لوازمٌ وفروعٌ كثيرةٌ.**

*** وهؤلاء غالبهم لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذّتها، ولا يتنعّمون بها، ولهذا يسمّون الصّلاة والصّيام والزّكاة والحجّ والتّوحيد والإخلاص ونحو ذلك تكاليف؛ أي: كلّفوا بها، ولو سمّى مدّعي محبّة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفًا لم يعد محبًّا له.**

قوله: **(ولهذا الأصل لوازمٌ وفروعٌ كثيرةٌ)**، هذا الأصل الباطل له لوازم وفروع باطلة؛ لأن ما يبنى على الباطل فهو باطل.

قوله: **(وهؤلاء غالبهم لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذّتها)**؛ يعني: ينتج عن هذا إذا كانوا يقولون: إن الطاعة لمجرد الأمر والنهي لمجرد الأمر والمشيئة، فلا يجدون في أنفسهم كراهية لمعصية، ولا يجدون للطاعة حلاوة وتلذذ، وإنما يفعلهما لمجرد الامتثال فقط، ولا يجدون فيهما اللذة والراحة في الطاعة، والكراهية والبغض للمعصية، وهذا من ثمرات هذا القول القبيحة.

قوله: **(ولهذا يسمّون الصّلاة والصّيام والزّكاة والحجّ والتّوحيد والإخلاص ونحو ذلك تكاليف)**، مجرد تكاليف، أن الله أراد أن يكلف العباد ويشق عليهم بها، وإلا فهي ليس لها غاية ولا منفعة ولا ثمرة، وإنما أراد أن يكلفهم، فيسمونها تكاليف.

قوله: **(ولو سمّى مدّعي محبّة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفًا لم يعد محبًّا له)**، لو فعل هذا بالملوك الذين يحبهم وقال: أوامركم ليس فيها فائدة، ونواهيكم ليس فيها فائدة، هل يرضون عنه، وهل هذا يحبهم في الحقيقة؟ إذا كان هذا في المخلوق فكيف ينسبه للخالق، لو جاء إلى ملك من الملوك، وقال له: أنت أوامرك ليس فيها فائدة، فهي عبث، ونواهيك من باب العبث، فماذا يكون حال الملك معه، وماذا يكون حال الناس معه، في عقليته وفي تصوراته، يصفونه بالجنون.

* وأول من صدرت عنه المقالة: الجّعد بن درهم.

قوله: (وأول من صدرت عنه المقالة: الجّعد بن درهم)، الجعد بن درهم الذي هو في آخر عهد بني أمية، الذي أنشأ مذهب الجهمية، قبحه الله، ويقال لأتباعه الجعدية، ثم جاء الجهم بن صفوان الترمذي فأحيا مذهبه وتبناه، فنسب إليه، فصار يُقال لهم الجهمية، أتباع الجهم بن صفوان، الذي قال: إن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا. فقتله الأمير الأموي خالد القسري يوم عيد الأضحى، وقال في خطبته للعيد: «أيها الناس ارجعوا فضحُّوا تقبل الله منا ومنكم، فإني مُضَحٍّ بالجعد بن درهم، ذلك أنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا». ثم نزل فذبحه تحت المنبر، بحضور العلماء والأئمة، وشكروه على هذا الصنيع لما قتل هذا الزنديق في هذا اليوم المبارك؛ ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولأجل ذا ضحى بجعد خالد ... القسري يوم ذبائح القربان

إذ قال إبراهيم ليس خليله ... كلا ولا موسى الكليم الداني

شكر الضحية كل صاحب سُنَّة ... لله درك من أخي قربان

هذا هو رئيسهم الجعد بن درهم، ثم جاء بعده الجهم بن صفوان وجدد هذا المذهب ودعا إليه فنُسب إليه، ويقال لهم الجهمية بدل الجعدية.



*** الصنف الثاني: القدريّة النّفاة، الذين يثبتون نوعًا من الحكمة والتّعليل لا يقوم بالرّب ولا يرجع إليه؛ بل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته، ....**

قوله: **(الصنف الثاني)**، وهم على النقيض من الصنف الأول، وهم **(القدريّة النّفاة)**؛ فالجهمية يُقال لهم: القدرية الغلاة، الذين غلوا في إثبات القدر، وقالوا: العبد مجبور لا اختيار له، ولا مشيئة له، وإنما هو مجبور على أفعاله، وقد سموا بالجبرية، فغلوا في إثبات القدر حتى نفوا أفعال العبد واختيار العبد ومشيئة العبد، وقالوا: الأمر كله راجع إلى الله، والعبد إنما هو محرك ومدبر فقط، هؤلاء هم الجبرية والجهمية، جمعوا بين جيم الجبر وجيم التجهم.

قابلهم وخالفهم: المعتزلة، القدرية النفاة، أبي معبد الجهني ومن جاء بعده، فقالوا: العبد له اختيار مستقل، وله مشيئة مستقلة، وأفعاله ليست مخلوقة لله، ولا مقدرة من الله، وإنما هي أفعاله هو؛ أُنف؛ أي: مستأنفة، فهم عاكسوا الجهمية والجبرية، فسموا بـ(القدرية)، وسموا مجوس هذه الأمة؛ لأنهم أثبتوا خالقين مع الله، إذا كان العباد يخلقون أفعالهم صاروا شركاء لله في الخلق، فصاروا مجوسًا؛ فالمجوس يقولون: إن الخلق نشأ عن النور والظلمة، عن خالِقَين، خالق للخير وخالق للشر. المعتزلة القدرية زادوا عليهم، فقالوا: كل إنسان يخلق فعل نفسه، فسموا (مجوس هذه الأمة)، ونفوا القدر، وقالوا: إن الله لم يقدر هذا الشيء، وإنما العبد هو الذي فعله وابتكره من غير أن يكون لله إرادة فيه، ولا أن الله خلق أفعال العباد، مع أن الله ﷻ يقول: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]؛ فالله خالق كل شيء، فنفوا الخالقية عن الله ﷻ، وجعلوها للعباد، تعالى الله عن ذلك، فهم على النقيض من مذهب الجبرية.

قوله: **(القدريّة النّفاة)**؛ يعني: نفاة القدر.

قوله: **(الذين يثبتون نوعًا من الحكمة والتّعليل لا يقوم بالرّب ولا يرجع إليه؛ بل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته)**، فيجعلون المخلوق يخلق

فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنّعيم،

أفعاله مستقلًا عن الله ﷻ، لم يقدرها الله عليه، ولم يشأها له، وإنما العبد هو الذي شاءها وأرادها مستقلًا بها وأوجدها، وخلقها، هذا مذهب القدرية النفاة، من المعتزلة وغيرهم.

قوله: **(فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنّعيم)**، فعند هؤلاء القدرية أن العبد يستحق الجنة بعمله، ليس لله تفضل عليه بذلك، وإنما يستحقها بعمله وطاعته، استحقاقًا ليس لله فيه تدخل، ولا تفضُّل ولا منَّة، تعالى الله عما يقولون، فيجعلون دخول الجنة إنما هو باستحقاق العبد، لا برحمة الله، ولا بفضله ومنّه وكرمه، وهذا ينافي قول الرسول ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لا، وَلا أَنا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»[1]. ويستدلون بقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢]، (بما) قالوا: الباء هنا باء العوض والثمنية، فهم استحقوا دخولها على الله وليس لله تفضل في ذلك، وإنما هو استحقها بفعله هو. وهذا يناقض قول الرسول ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»[2]، فكيف نجمع بين الباءين؟ قالوا: السياق مختلف، والباء في كل سياق غير الباء في السياق الآخر؛ فالباء في قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ سببية؛ أي: ادخلوا الجنة بسبب ما كنتم تعملون، والباء في قوله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»، باء العوض، والثمنية، فليست الجنة ثمن لعمل الإنسان، وإنما عمل الإنسان سبب في دخولها، وإلا فعمل الإنسان قليل بالنسبة للجنة ونعيم الجنة، الله تفضل عليه بذلك، ولو حوسب الإنسان على نعم الله عليه التي لا يعلمها إلا الله ظاهرة وباطنة، ما بقي له عمل واستحقها الحساب، فقد استغرقها حساب النعمة، ولكن الله يدخل العبد الجنة بفضله، والعمل إنما هو سبب فقط، والله ﷻ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣).
(٢) مسند الإمام أحمد (٧٤٧٩).

وأنها بمنزلة استيفاء الأجير أجره.

*** قالوا: ولهذا يجعلها سبحانه عوضًا.**

*** كقوله:** ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف: ٤٣].

*** وقوله:** ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾ [النمل: ٩٠].

*** وقوله:** ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النمل: ٣٢].

*** وقوله:** ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر: ١٠].

يضاعف الحسنة إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة منًّا منه وفضلًا، فهذا الفرق بين قول الجبرية وقول القدرية، وهذا هو جواب أهل السُّنَّة والجماعة عن شبهات القدرية.

قوله: (فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانًا)، أهل السُّنَّة يقولون: إن العبادات شرعت أسبابًا لا أثمانًا.

قوله: (وأنها بمنزلة استيفاء الأجير أجره)، يقولون: ليس لله فضل فهي أجورنا على عملنا، مثل الأجير الذي يشتغل عندك؛ تعطيه أجرته وليس لك عليه تفضل في هذا؛ لأنه نتيجة كدِّه وعرقه، فكذلك العباد عند الله؛ الجنة والثواب هذا من كدهم وعرقهم، ليس لأن الله تفضل عليهم بذلك! وهذه جرأة فظيعة على الله والعياذ بالله.

قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾ أخذوا الباء على أنها باء الثمنية، وباء العوض، فجعلوا الجنة ثمنًا للعمل مقابلًا للعمل.

وقوله تعالى: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾ [النمل: ٩٠]، وأمثالها من الآيات.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر: ١٠]، سماه

* وفي الصحيح: «يا عبادي، إنما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لكم، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا»[1].

أجرًا؛ يعني: أجرة على صبرهم، شبهات، هي آيات وأحاديث ولكن ليس لهم بها متمسك لأنهم يفسرونها بغير تفسيرها، فيأخذون بالمتشابهات، الذي يقع به أهل الزيغ والضلال، دون رده إلى المحكم، فتفسير كلام الله يكون بعضه ببعض، وتفسير كلام الرسول يكون بعضه ببعض، هم لا يعملون هذا، يأخذون بطرف ويتركون الطرف الآخر، فيأخذون الطرف الذي يصلح لهم، ويتركون الطرف الذي لا يصلح لهم؛ ولذلك ضلوا وزاغوا، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

ويحتجون بالحديث القدسي: «**يا عبادي، إنما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا عليكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا**» على أنها عوض، والواقع أنها ليست عوضًا، وإنما هي سبب للسعادة.



---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

❊ قالوا: وقد سماها جزاءً وأجرًا وثوابًا؛ لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله؛ أي: يرجع إليه، قالوا: ويدل عليه الموازنة، فلولا تعلّق الثواب بالأعمال عوضًا عليها لم يكن للموازنة معنى، وهاتان الطائفتان متقابلتان: فالجبريّة: لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء البتّة، وجوّزت أن يعذّب الله من أفنى عمره في الطّاعة، وينعّم من أفنى عمره في مخالفته، وكلاهما سواء بالنسبة إليه، والكل راجع إلى محض المشيئة.

قوله: (لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله)، الثوب هو الرجوع، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥]؛ أي: أنهم كلما ذهبوا يرجعون إليه، وكلما ذهبوا عنه يرجعون إليه، ويترددون عليه؛ فالثوب هو الرجوع، والثواب سمي بذلك؛ لأنه يرجع إلى صاحبه.

قوله: (ويدل عليه الموازنة، فلولا تعلّق الثواب بالأعمال عوضًا عليها لم يكن للموازنة معنى)؛ يعني: الوزن، وكون الأعمال توزن يوم القيامة، فلو لم تكن الأعمال عوضًا عن الثواب لما كان للوزن فائدة.

قوله: (وهاتان الطائفتان متقابلتان)؛ أي: الجبرية والقدرية متقابلتان على طرفي نقيض، بين الإفراط والتفريط.

قوله: (وينعّم من أفنى عمره في مخالفته)، فيجوز عندهم أن يدخل الكافر الجنة، وأن يدخل المطيع في النار، يجوز هذا عندهم؛ لأن الله يفعل بمشيئته، لا لحكمة، ولا لسبب، تعالى الله عما يقولون.

قوله: (والكل راجع إلى محض المشيئة)، هذا هو السبب، فهو راجع إلى المشيئة.



*** والقدرية: أوجبت عليه سبحانه رعاية المصالح، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنقيص باحتمال منّة الصدقة عليه بلا ثمن، فجعلوا تفضّله سبحانه على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، ....**

قوله: **(والقدرية)**، هذا الطرف الثاني.

قوله: **(أوجبت عليه سبحانه رعاية المصالح)**؛ ولذلك يقولون: يجب على الله فعل الأصلح. هذه عباراتهم، يوجبون عليه ويفرضون عليه سبحانه فعل الأصلح بزعمهم.

قوله: **(وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال)**، أرجعت هذا إلى الأعمال لا إلى فضل الله، ومنّه وكرمه الذي يعطي على الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ [النساء: ٤٠]، ولو كانت الأعمال عوضًا للجزاء ما استحق أحد دخول الجنة؛ لأن الأعمال قليلة، والنعم كثيرة، فلو قوبلت النعم بالأعمال ما صارت الأعمال بالنسبة للنعم شيئًا يذكر.

قوله: **(وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنقيص باحتمال منّة الصدقة عليه بلا ثمن)**، هذا كلامهم في حق الله، وأنه لا يعطيهم الجنة والجزاء تفضلًا منه؛ لأن هذا معناه المنة عليهم وأنهم لم يستحقوا هذا الشيء وأن الله أعطاهم إياه وتمنن عليهم بذلك، فقاسوه على المخلوق الذي لا يجوز له أن يمن على غيره، أو يستكثر على غيره.

قوله: **(فجعلوا تفضّله سبحانه على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد)**، قاسوا الله على العبد، فكما أن الله لا يجوز له أن يمن على غيره ويتكثر عليه ويقول له: أنا عملت لك وأعطيتك وأنا وأنا، فقاسوا الله على ذلك، ما يعطي عباده تفضلًا وإنما يعطيهم استحقاقًا لهم عليه؛ كاستحقاق الأجير على المؤجر.

وأن إعطاء ما يعطيه أجرةً على عمله، أحبّ إلى العبد من أن يعطيه فضلًا منّه بلا عمل.

*** فهؤلاء والذين لم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء البتّة طائفتان منحرفتان عن الصّراط المستقيم.**

*** وهو: أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب، والأعمال الصّالحة من توفيق الله وفضله، وليست قدرًا لجزائه وثوابه؛ ....**

قوله: **(وأن إعطاء ما يعطيه أجرةً على عمله، أحبّ إلى العبد من أن يعطيه فضلًا منّه بلا عمل)**، فكون العبد يعطي الآخر مقابل عمله، أحسن من كونه يعطيه بدون عمل؛ لأنه إذا أعطاه بعمله لم يكن له منّة عليه، وأما إذا أعطاه من دون عمل صار له منّة، وصار يذكر هذا، ويقول: أنا فعلت وأنا أعطيتك، وكذلك الله ـ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ـ عندهم، أنه لا يعطي الجزاء أو الجنة تفضّلًا، وإنما يعطيها استحقاقًا للعبد، فليس لله منّة في ذلك.

قوله: **(فهؤلاء والذين لم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء البتّة طائفتان منحرفتان عن الصّراط المستقيم)**؛ أي: الجبرية والقدرية طائفتان منحرفتان عن الصراط المستقيم الذي هو قول أهل السُّنَّة والجماعة.

قوله: **(وهو: أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب)**، هذا هو قول أهل السُّنَّة والجماعة، أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب، لا كما تقوله الجبرية ليست أسبابًا، وليست موجبة للثواب كما تقوله القدرية.

قوله: **(والأعمال الصّالحة من توفيق الله وفضله)**، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧]؛ فالله هو الذي يمنّ على عباده بالإيمان وبالجنة، وبالأعمال الصالحة.

قوله: **(وليست قدرًا لجزائه وثوابه)**؛ يعني: ليست ثمنًا لجزائه وثوابه، فجزاؤه وثوابه أكثر من ذلك، وأكثر وأكثر، الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا

بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه أن تكون شكرًا على أحد الأجزاء القليلة من نعمه، فلو عذّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالمٍ لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم.

أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، دائمة ومؤبدة، عمل الإنسان قليل لو أفناه في الطاعة لا يقابل الجنة أبدًا، ولكنه تفضُّل من الله، والعمل إنما هو سبب يوصل إلى الجنة».

قوله: (**بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه أن تكون شكرًا على أحد الأجزاء القليلة من نعمه**)؛ فالله لا يعطيهم الجنة على أنها مستحقة لهم، وإنما يعطيهم إياها شكرًا على أعمالهم، يشكرهم ﷻ، ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢٢]، ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: ١٧]، ﷻ، (أن تكون شكرًا)؛ أي: شكرًا من الله ﷻ؛ فالله شكور يشكر لعبده.

قوله: (**فلو عذّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالمٍ لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم**)، هذا حديثٌ عن الرسول ﷺ، ولفظه: «**لو أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وهو غَيْرُ ظَالِمٍ لهم**»[1]، كيف؟ لأنهم لم يقوموا بحقه على التمام، فلا أحد يقوم بحق الله على التمام أبدًا، حتى الرسول ﷺ يقول: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أنت كما أَثْنَيْتَ على نَفْسِكَ**»[2]، فلو أن الله حاسبهم على نعمه وعلى فضله وإحسانه لهلكوا جميعًا ولكن الله يتفضل ﷻ ويشكر على القليل، ويضاعف الحسنة إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإلا لو حاسب العباد لهلكوا، ولكنه سبحانه يتفضل عليهم، والقليل يضاعفه كثيرًا فضلًا منه وإحسانًا، فلو عذبهم كلهم لاستحقوا العذاب؛ لأنهم لم يقوموا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦).

....

بحقه على التمام؛ لأن حق الله لا يمكن لأحد أن يقوم به، حتى رسول الله ﷺ يقول: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أنت كما أَثْنَيْتَ على نَفْسِكَ**»، ثم قال: «**وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لهم من أَعْمَالِهِمْ**» فلو رحمهم فرحمته واسعة ﷻ، فهذا معنى الحديث، وليس معناه كما قالت الجبرية، لو عذبهم لكان غير ظالم لهم لأنه يفعل ما يشاء، لا، ولكنه غير ظالم لهم؛ لأنهم لم يقوموا بحقه، ولم يوفوا نعمه التي أنعمها عليهم، فمن الذي خلقهم؟ من الذي وفقهم؟ من الذي رزقهم؟ من الذي هداهم؟ هو الله ﷻ.



وتأمّل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ [الزخرف: ٧٢]، **مع قوله ﷺ: (لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ منكم الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ)**[1]. **تجد: الآية تدل على أن الجنان بالأعمال، والحديث ينفي دخول الجنّة بالأعمال، ولا تنافي بينهما؛ لأن توارد النّفي والإثبات ليس على محلٍ واحدٍ، فالمنفي باء الثمنيّة واستحقاق الجنّة بمجرّد الأعمال، ردًّا على القدريّة المجوسيّة التي زعمت أن الفضل بالثواب ابتداء متضمن**

رجع المؤلف إلى الجواب عن شبهتهم في الباء؛ يعني: كيف توفق بين الآية والحديث، الآية: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ وظاهرها أن الجنة ثمن، والحديث يقول: «**لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»؛ فالحديث والآية مختلفان في الظاهر، ولكن ليسا متعارضين؛ لأن التعارض إنما يكون إذا توارد الشيئان على محل واحد، أما إذا كان هذا شيء في طريق، وشيء في طريق آخر فلا يتعارضان، وكذلك في الآية والحديث، الآية تعني شيئًا، والحديث؛ يعني: شيئًا آخر، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾؛ أي: بسبب ما كنتم تعملون، «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»؛ أي: بالاستحقاق وبالثَّمنية، فبينهما فرق، وكلام الله وكلام رسوله لا يتعارضان أبدًا.

قوله: (تجد: الآية تدل على أن الجنان بالأعمال، والحديث ينفي دخول الجنّة بالأعمال)، من هنا يحدث الإشكال في الظاهر.

قوله: (ولا تنافي بينهما) هذا هو الجواب.

قوله: (لأن توارد النّفي والإثبات ليس على محلٍ واحدٍ)؛ بل الآية في شيء، والحديث في شيء آخر فلم يتعارضا، وهذا هو الذي يستدعي منا أن

---

(١) انظر: بمعناه البخاري (٦٠٩٨ ـ ٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨١٦)، وجاء في المسند (٧٤٧٩) بلفظ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ».

تنقيصًا[1]. والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببيّة، ردًّا على القدريّة الجبريّة الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال وجزائها، ولا هي أسباب لها، وإنما غايتها أن تكون أمارة. والسُّنَّة النبويّة هي: أن عموم قدرته لا ينافي ربط الأسباب بالمسببات وارتباطها بها[2]. وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعًا من الحق ....

نتفقه في النصوص، وأن نتعلم ولا نتعجل ونأخذ المتشابه، أو نأخذ بطرف ونترك الطرف الثاني، لا بد أن المؤمن يتعلم ويقارن بين النصوص، ويعلم أنها لا تتعارض أبدًا، لكن تحتاج إلى فقه وإلى تنزيل كل دليل على محله، وهذا يحتاج إلى فقه وإلى علم.

قوله: (والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببيّة)، فالباء مختلفة في الموضعين.

قوله: (وإنما غايتها أن تكون أمارة)؛ يعني: علامة على الشيء وليست سببًا؛ لأن الجهمية ليس عندهم أسباب ولا علل ولا حكم.

قوله: (والسُّنَّة النبويّة هي: أن عموم قدرته لا ينافي ربط الأسباب بالمسببات وارتباطها بها)، عموم قدرته لا تعارض بينها وبين ربط المسببات بأسبابها؛ فالله قدّر الأشياء وجعل لها أسبابًا تمشي عليها، فإذا وجدت الأسباب وجدت المسببات، وإذا لم توجد الأسباب لم توجد المسببات.

قوله: (وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعًا من الحق)، فكل طائفة من أهل الباطل معها بعض الحق، ومعها بعض الضلال، فجمعت بين حق وباطل في مذهبها.

فالجبرية عندهم حق، وهو: أن الله له مشيئة وله قدرة، وله إرادة، هذا

---

(١) في نسخة: أن التفضل بالثواب ابتداءً متضمن لتكدير المنة.

(٢) في نسخة: والسُّنَّة النبوية هي أن عموم مشيئة الله وقدرته لا تنافي ربط الأسباب بالمسببات وارتباطها بها.

فإنها ارتكبت لأجله نوعًا من الباطل؛ بل أنواعًا، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه[١].

حق، ولكن ليس معنى هذا أن العبد ليس له مشيئة، ولا قدرة، ولا إرادة، فهذا باطل.

القدرية قالوا: العبد له مشيئة وله إرادة مستقلة. وكون له مشيئة وله إرادة هذا حق عند المعتزلة، ولكن كونها مستقلة ولا علاقة لها بإرادة الله ومشيئة الله فهذا باطل.

فأهل السُّنَّة جمعوا بين هذا وهذا، تركوا الباطل وأخذوا الحق من كل مذهب.

قوله: (فإنها ارتكبت لأجله نوعًا من الباطل؛ بل أنواعًا)، وهذا عام في كل الطوائف، فكل الطوائف يكون عندها حق من بعض الوجوه، ولكن عندها باطل.

قوله: (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) هذا هو المذهب الوسط، مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، هذه فوائد عظيمة وأصول عظيمة من أصول العقيدة.



---

(١) في نسخة: فهدى الله أهل السُّنَّة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه.

❊ الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة رياضة النّفوس

ما زال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يبين أنواع الناس في العبادة، وقد ذكر أنهم أربعة أصناف:

الصنف الأول: الذين يقولون: إن العبادة لا حكمة لها، ولا فائدة فيها، وإنما تُفعل لمجرد أن الله أمر بها وشاءها؛ فالله له أن يأمر بالتوحيد والطاعة، وله أن يأمر بالشرك والكفر، والعصيان؛ لأنه يفعل ما يشاء. هكذا يقولون، فله الإرادة، وله المشيئة، ولا حكمة في العبادة، وإنما نفعلها لمجرد الأمر، وليس لنا اختيار؛ بل نحن مجبرون عليها، وهذا قول الجبرية وهم أضل خلق الله والعياذ بالله، قول الجهمية الجبرية.

الصنف الثاني: من يقول: ليس لله إرادة ولا مشيئة في أفعالنا وعباداتنا؛ بل نحن نفعلها بإرادتنا ومشيئتنا استقلالًا، ولم يقدرها الله، ولم يشأها ولم يخلقها، وإنما نحن نفعلها باختيارنا من غير أن يكون لله ﷻ إرادة ولا تقدير فيها. وهذا قول القدرية من المعتزلة ومن وافقهم من نفاة القدر، وهذا ضلال واضح والعياذ بالله.

الصنف الثالث: الصوفية الذين يقولون: نحن لا نفعل العبادة للثواب ولا للعقاب، ولا نترك المعاصي لأجل أن نسلم من العقاب، ولا نفعل الطاعة من أجل أن ننال الثواب، وإنما نفعلها نروض بها أنفسنا ونربيها حتى تصفوا وتأتيها الفيوضات من الله ﷻ. وبعضهم يقول: إنما نعبده لأننا نحبه، لا لأننا نخاف من ناره، أو نطمع في جنته. هذا قول الصوفية، الذين يقولون: إنا نعبده لمجرد المحبة، لا خوف ولا رجاء، والذين يقولون منهم: إنما نعبده لتصفو نفوسنا وتتهذب أخلاقنا، نفعلها من باب الرياضة النفسية، حتى تأتي الفيوضات من الله ﷻ، حتى أن بعضهم يتطلع أن يكون نبيًّا، ويتطلع إذا روّض نفسه للنبوة، ويزعمون أن النبوة مكتسبة وليست اصطفاء واختيارًا من الله ﷻ، هذا قول الصوفية.

واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها وخروج قواها من قوى النّفس السَّبُعيّة والبهيميّة، ....

الصنف الرابع: أهل السُّنَّة والجماعة، الذين يقولون: نحن نعبد الله محبة وخوفًا ورجاء وطمعًا في ثوابه وخوفًا من عقابه وامتثالًا لأمره واجتنابًا لنهيه.

هذا ملخص مواقفهم من العبادة، وقد سبق الصنفان الأولان، وننتقل الآن إلى الصنف الثالث وهم الصوفية.

قوله: (واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها)، من أين تفيض العلوم والمعارف عليها؟ بعضهم يقول: تفيض من العقل الفعال، لا يقولون: من الله؛ بل يقولون: من العقل الفعال. هؤلاء هم غلاة الفلاسفة، وقد قلدهم بعض الصوفية، ومنهم من يقول: إن الفيوضات من الله، ولكننا لا نريد ثوابًا ولا عقابًا، وإنما نريد تهذيب نفوسنا فقط حتى يأتيها الفيض من الله ﷻ، والعلوم من الله؛ ولذلك لا يطلبون العلم، ويزهدون في طلب العلم وينهون عنه، ويتلفون الكتب لو ظفروا بها؛ لأنها لا فائدة منها، هكذا يقولون، وأنها تعوقهم عن العبادة، طلب العلم يعوقنا عن العبادة، ولسنا بحاجة إلى طلب العلم، فنحن إذا صفينا نفوسنا نزل علينا العلم اللدني، العلم من الله، من دون طلب للعلم. هكذا يفعل الشيطان ببني آدم إلا من رحم الله ﷻ.

قوله: (واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها) من الله أو من العقل الفعال.

قوله: (وخروج قواها من قوى النّفس السَّبُعيّة والبهيميّة)، السبعية نسبة إلى السباع، فهم يقولون: إن الإنسان فيه طبيعة سبعية، وهي حب التسلط، وهذا صحيح، ففيه صفة السباع، حب التسلط والقهر والغلبة، وفيه أيضًا صفة البهيمية من الشهوات والرغبات، وحب الملذات، ولكن إذا منَّ الله عليه بالإيمان ذهبت عنه هذه الصفات الذميمة؛ فالسبعية: هي التسلط والطغيان،

فلو عطلت العبادة لالتحقت بنفوس السباع والبهائم؛ فالعبادة تخرجها إلى مشابهة العقول، فتصير قابلةً لانتقاش صور المعارف فيها.

والتكبر كالسباع، والبهيمية التي هي الشهوانية، ولا يكون للإنسان هم إلا نيل شهواته.

قوله: (**فلو عطلت العبادة لالتحقت بنفوس السباع والبهائم؛ فالعبادة تخرجها إلى مشابهة العقول، فتصير قابلةً لانتقاش صور المعارف فيها**)، هذا كلام الصوفية والفلاسفة.



*** وهذا يقوله طائفتان:**

*** إحداهما: من يقرب إلى الإسلام والشرائع من الفلاسفة القائلين بقدم العالم، وعدم الفاعل المختار.**

*** والطائفة الثانية: من تفلسف من صوفيّة الإسلام ويقرب إلى الفلاسفة، فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النّفوس للمعارف العقليّة ومخالفة العوائد.**

هذه مسألة قدم العالم، يقولون: هذا العالم لم يوجد نتيجة أن له خالق وأوجده بعد العدم؛ فالعالم قديم من الأصل؛ فالعالم هذا ليس له بداية، تعالى الله عما يقولون.

ومعلوم أن العالم له بداية، فقد كان بعد أن لم يكن، أوجده الله ﷻ، له خالق وله مبدع، هم يقولون: لا؛ بل هو أصله قديم. فهؤلاء غلاة الفلاسفة، ومنهم ابن سينا.

قوله: **(وعدم الفاعل المختار)**؛ أي: ليس له فاعل مختار، ولا موجد، فقد أوجد نفسه.

قوله: **(والطائفة الثانية: من تفلسف من صوفيّة الإسلام ويقرب إلى الفلاسفة)**؛ أي: العباد المسلمين الذين اشتغلوا بالعبادة وترويض النفس وتركوا طلب العلم، وهذا هو الغالب على الصوفية من المسلمين الذين أخذوا طريق العبادة، وتركوا العلم، وقصدهم من العبادة تصفية النفوس وترويضها للإلهام والفيوضات والعلوم وهكذا، وهم يتطورون فبعضهم وصل إلى الإلحاد كابن عربي والحلاج وابن الفارض، فقد وصلوا إلى حد الإلحاد والعياذ بالله، ومنهم من دون ذلك.

قوله: **(فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النّفوس للمعارف العقليّة ومخالفة العوائد)**، هذه قصد العبادة عندهم.

*** ثمّ مِن هؤلاء من لا يوجب العبادة إلا بهذا المعنى، فإذا حصل لها ذلك بقي متحيرًا في حفظ أوراده والاشتغال بالوارد عنها.**

قوله: (**ثمّ مِن هؤلاء من لا يوجب العبادة إلا بهذا المعنى، فإذا حصل لها ذلك بقي متحيرًا في حفظ أوراده والاشتغال بالوارد عنها**)، إذا وصل إلى ما يقول من صفاء النفس فهل يستمر في العبادة أو يتوقف لأنه وصل للغاية؟ بعضهم يقول كذا، وبعضهم يقول: نحن بحاجة إلى الأوراد وإلى العبادة ولو وصلنا إلى هذه المرتبة.



*** ومنهم: من يوجب القيام بالأوراد وعدم الإخلال بها، وهما صنفان ـ أيضًا ـ:**

*** أحدهما: من يقول بوجوبها حفظًا للقانون، وضبطًا للناموس.**

*** والآخرون: يوجبونها حفظًا للوارد، وخوفًا من تدرّج النّفس بمفارقتها إلى حالتها الأولى من البهيميّة.**

*** فهذه نهاية أقدامهم في حكمة العبادة وما شرعت لأجله.**

*** ولا تكاد تجد في كتب المتكلمين على طريق السلوك غير طريق من هذه الطرق الثلاث، أو مجموعها.**

قوله: **(ومنهم: من يوجب القيام بالأوراد وعدم الإخلال بها)**؛ أي: يستمر على العبادة، ولا يتركها، وكذا الأوراد يستمر عليها ولكن على المنهج الذي سبق.

قوله: **(وخوفًا من تدرّج النّفس بمفارقتها إلى حالتها الأولى من البهيميّة)**، يقولون: لو تركنا العبادة نخشى أن نرجع إلى البهيمية والسبعية. فهم ملازمون العبادة لأجل أن لا تعود عليهم النفوس البهيمية والسبعية.

قوله: **(فهذه نهاية أقدامهم)**؛ أي: سيرهم؛ يعني: **(في حكمة العبادة وما شرعت لأجله)** هذا عند الصوفية والفلاسفة.

قوله: **(ولا تكاد تجد في كتب المتكلمين على طريق السلوك غير طريق من هذه الطرق الثلاث، أو مجموعها)**، فكتب الصوفية كلها مشحونة بهذا الكلام، وليس فيها شيء من كلام أهل العلم وأهل البصيرة.



*** والصنف الرّابع: هم القائلون بالجمع بين الخلق والأمر، والقدر والسبب، فعندهم أن سرّ العبادة وغايتها مبني على معرفة حقيقة الإلٰهيَّة، ومعنى كونه ـ سبحانه ـ إلٰهًا، وأن العبادة موجَب الإلٰهية وأثرها ومقتضاها، وارتباطها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسّمع، والإحسان بالرّحمة، والعطاء بالجود، فعندهم من قام بمعرفتها على النحو الذي فسرناها به لغةً وشرعًا، مصدرًا وموردًا استقام له معرفة حكمة العبادات وغايتها، وعلم أنها هي الغاية التي خُلقت لها العباد.**

قوله: (**الصنف الرابع**)، هذا الصنف الذي على الحق.

قوله: (**أن سرّ العبادة وغايتها مبني على معرفة حقيقة الإلٰهيَّة، ومعنى كونه ـ سبحانه ـ إلٰهًا**)، فهم يعبدون الله تألهًا لله ﷻ وتعبدًا ومحبة، وطاعة، هذا معنى الألوهية، العبادة معناها التأله والتعبد، والألوهية هي التعبد، والإلٰه هو المعبود.

قوله: (**وأن العبادة موجَب الإلٰهية وأثرها ومقتضاها**)، العبادة مقتضى الألوهية، أنك تعبد الله لأنه إلٰهك وربك وخالقك، وأنه أمرك، فهم يجمعون بين الخلق والأمر، فهو خلقك وأمرك بهذا.

قوله: (**وارتباطها كارتباط متعلق الصفات بالصفات**)، كتعلق آثار الصفات بالصفات، فالصفات لها آثار.

قوله: (**فعندهم: من قام بمعرفتها على النحو الذي فسرناها به لغةً وشرعًا مصدرًا وموردًا استقام له معرفة حكمة العبادات وغايتها**)، استقام له معرفة حكمة العبادات وغايتها المعرفة الصحيحة.

قوله: (**وعلم أنها هي الغاية التي خُلقت لها العباد**)، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

* ولها أُرسلت الرّسل، وأنزلت الكتب، وخلقت الجنّة والنّار. وقد صرّح ﷻ بذلك في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

* فالعبادة هي التي وجدت لأجلها الخلائق كلها، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: ٣٦]؛ أي: مهملًا.

* قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يؤمر ولا ينهى».

* وقال غيره: «لا يثاب ولا يعاقب».

قوله: (ولها أُرسلت الرّسل)، فالرسل أرسلت لبيان العبادة والأمر بها؛ لأن الناس لو تركوا لما عرفوا العبادة الصحيحة من العبادة الباطلة؛ فالعبادة لا بد أن تكون على مقتضى ما جاءت به الرسل، وليس على مقتضى استحسان النفوس والعادات والتقاليد، وإنما الله رسم لنا كيف نعبده بما أرسل من الرسل وأنزل من الكتب.

قوله: (التي خلقت لها العباد)، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

قوله: (ولها أُرسلت الرّسل)، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

قوله: (وأنزلت الكتب)، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]؛ فالعبادة أمر من الله ﷻ، وليست وفق الهوى.

قوله: (وخلقت الجنّة والنّار)؛ أي: الجزاء، فمن قام بالعبادة على ما أمره الله فله الجنة، ومن انحرف فله النار. هذا هو المعنى الصحيح والفهم الصحيح للعبادة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، فالحكمة من خلق الخلق هو العبادة؛ فاللام لام التعليل، ما خلقهم عبثًا، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ما

❊ وهما تفسيران صحيحان، فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنّهي، والأمر والنّهي هو الطلب للعبادة وإرادتها.

❊ وحقيقة العبادة: امتثالهما.

خلقهم عبثًا بل لعبادته، ليعبدوه، وهل نفع العبادة لهم أم لله؟ نفعها لهم، هذا من رحمته بهم، أنه أمرهم أن يعبدوه لأجل أن يرحمهم ويكرمهم، فالمصلحة عائدة لهم، والله أمرهم بها رحمة لهم، وإحسانًا إليهم، فبيَّن في هذه الآية أن الحكمة من خلق الخلق هو أن يعبدوه.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]؛ يعني: لا يؤمر ولا يُنهى، هذا حسبان باطل؛ بل يؤمر وينهى لمصلحته هو، فيؤمر بالخير وينهى عن الشر لمصلحته هو.

قوله: (وهما تفسيران صحيحان)، فهو يؤمر وينهى من أجل أن يُثاب ويُعاقب.

قوله: (فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنّهي)، فلا يكون ثواب وعقاب إلا على الأمر والنهي.

قوله: (وحقيقة العبادة: امتثالهما)؛ أي: امتثال الأمر والنهي، فيمتثل الأمر فيطيع، ويمتثل النهي فيجتنب المعاصي.



* ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١].

* وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

* وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ﴾ [آل عمران ١٩٠]؛ أي: دلالات، ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾؛ أي: لأصحاب العقول، فمحل الشاهد: ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾؛ يعني: عبثًا، فخلق السموات والأرض لحكمة، وهي عبادته وحده لا شريك له، [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]، فخلق السموات والأرض لحكمة عظيمة، أن يقوم العباد بعبادة ربهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ولا ينظرون إليها للتسلي، أو للنزهة، وإنما ينظرون إليها نظر اعتبار واتعاظ واستفادة، وتعظيم لله ﷻ، وإلا يكون كالذين قال الله فيهم: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]؛ أي: إلا لحكمة وليس عبثًا؛ بل بحكمة وهي أن يعبد وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]، فهذا ظن

*** فأخبر الله تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمّن أمره ونهيه وثوابه وعقابه. فإذا كانت السموات والأرض إنما خلقت لهذا وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا غاية له ولا حكمة مقصودة، أو إن ذلك لمجرّد استئجار العمّال حتى لا يتكدّر عليهم الثواب بالمنّة، ....**

الذين كفروا، ولكن ظن الذين آمنوا أن الله ما خلق السموات والأرض باطلًا، وإنما خلقهما لحكمة، ومنفعة ومصالح، وأعظم ما يُستفاد هو الاتعاظ والاعتبار؛ فإذا نظرت إلى هذا الخلق دلّك على أن له خالقًا حكيمًا، مدبرًا، قادرًا على كل شيء، وليس بعبث أو صدفة، أو طبيعة، لا، فهذا مخلوق لحكمة ولغاية ولمنفعة ولفائدة.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ يعني: ليس بالباطل والعبث، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢]، هذه الحكمة، أن الله يجزي كل نفس بما كسبت نتيجة لخلق السموات والأرض؛ فالمؤمن يجزى بالجنة، والكافر يجزى بالنار، بما كسب.

قوله: (فأخبر الله تعالى أنه خلق السمٰوات والأرض بالحق المتضمّن أمره ونهيه وثوابه وعقابه). هذا هو الحق، أن يأمر وينهى ويثيب ويعاقب.

قوله: (فإذا كانت السموات والأرض إنما خلقت لهذا وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا غاية له ولا حكمة مقصودة)، هذا رد على الطائفة الأولى، وهم الجبرية الذين يقولون: إن الله لا يأمر لحكمة، ولا ينهى لحكمة، وإنما يأمر وينهى لمجرد المشيئة والإرادة.

قوله: (أو إن ذلك لمجرّد استئجار العمّال حتى لا يتكدّر عليهم الثواب بالمنّة)، كما يقوله القدرية، لمجرد استئجار العمال من أجل أن يعطيهم أجرهم استحقاقًا لهم، وليس من فضل الله عليهم، وإنما هم استحقوه على الله ﷻ، فقد استحقوا على الله هذا الشيء كما يستحق الأجير الأجرة

أو لمجرّد استعداد النفوس للمعارف العقلية وارتياضًا لمخالفة العوائد؟!.

على المستأجر، ولا منة له في ذلك، لا منة للمؤجر على الأجير، فلا منة للخالق على الخلق إذا أثابهم، كذا يقولون قبحهم الله.

قوله: (أو لمجرّد استعداد النفوس للمعارف العقلية وارتياضًا لمخالفة العوائد؟!) هذا القول الثالث، فقد عرج المؤلف على الأقوال الثلاثة.



*** وإذا تأمّل اللبيب الفرق بين هذه الأقوال، وبين ما دلّ عليه صريح الوحي؛ علم أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبّته، مع الخضوع له والانقياد لأمره.**

*** فأصل العبادة: محبّة الله؛ بل إفراده تعالى بالمحبّة، ....**

قوله: (وإذا تأمّل اللبيب الفرق بين هذه الأقوال..) إذا تأملت هذا تبين لك الحق، وهو أن الله خلق الخلق لعبادته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، لا لمجرد المشيئة والإرادة، ولا لأن الناس لا يرتبطون بإرادة الله وقدرته، وإنما يفعلون العبادة لمجرد أنهم يريدون الأجر عليها، والثواب عليها كالأجير، والآن نخلص إلى ما هي العبادة؟ فالعبادة هي غاية الحب مع غاية الذل، غاية الحب لله، مع غاية الذل لله والخضوع له، فلا يكفي الحب من دون تذلل، ولا يكفي التذلل من دون محبة، فلا يكفي واحد دون الآخر، فأنت تحب الزوجة، وتحب المال، وتحب الصديق، وتحب الوالدين، ولكن لا تذل لهم، هذا ليس عبادة، هذه محبة طبيعية، ولا تذل من غير محبة، كما تذل الجبابرة والملوك والطغاة، هذه ليست عبادة، فهذا ذل من دون محبة فأنت تبغضهم، ولكن تخاف منهم فتذل لهم، فلا عبادة من دون هذين الأمرين غاية الحب، مع غاية الذل، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية:

وعبادة الرحمٰن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان

فهذه هي العبادة.

قوله: (مع الخضوع له والانقياد لأمره)، هذا هو الذل لله ﷻ.

قوله: (فأصل العبادة: محبّة الله؛ بل إفراده تعالى بالمحبّة)، فلا يجوز أن يشرك معه أحدًا في المحبة التي معها ذل وخضوع، لا يجوز هذا، أما

فلا يحبّ معه سواه، وإنما يحبّ ما يحبّه لأجله وفيه، ....

المحبة من دون ذل نعم يوجد هذا، أو ذل من دون محبة يوجد، ولكن لا يسمى عبادة.

قوله: (فلا يحبّ معه سواه)؛ أي: محبة العبودية؛ فمحبة العبودية لا تقبل الاشتراك، فلا تحب أحدًا كمحبة الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فهذا فيه بيان أن من أشرك مع الله في المحبة، محبة العبودية التي هي حب وذل، فإنه يكفر بذلك، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾؛ يعني: شركاء، ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾؛ فالمشركون يحبون أصنامهم، ما عبدوها إلا لأنهم يحبونها ويذلون لها، ويصرفون المحبة لها، ويشركونها مع الله ﷻ في ذلك، ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٥، ١٦٦]؛ أي: انقطعت المحبة التي عبدوهم من أجلها، وعادوهم، انقلبت عداوة، ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥]، ولا تبقى إلا محبة الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، هذه التي تبقى، حب الله وحب أولياء الله ﷻ، فمحبتهم لله وفي الله، هذا الذي يبقى.

قوله: (وإنما يحبّ ما يحبّه لأجله وفيه)، فهو يحب من يحب من المخلوقين من أجل الله، وفي الله، لا مع الله، وإنما في الله، ومن أجل الله، والمتحابون في الله يكونون على منابر من نور يوم القيامة، فالمتحابون في الله الذين لا يتحابون من أجل الدنيا ومن أجل القبلية والأنساب، وإنما يتحابون من أجل الله وفي الله، هذه المحبة المثمرة المفيدة.

كما يحبّ أنبياءه ورسله وملائكته؛ لأن محبّتهم من تمام محبّته، وليست كمحبّة من اتّخذ من دونه أندادًا يحبّهم كحبّه.

❊ وإذا كانت المحبّة له هي حقيقة عبوديّته وسرّها، فهي إنما تتحقق باتِّباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتِّباع الأمر والنّهي تتبيّن حقيقة العبوديّة والمحبّة.

قوله: **(كما يحبّ أنبياءه ورسله وملائكته)**، فمحبة الأنبياء والرسل والملائكة والصالحين، هي من أجل الله، ومحبة في الله ﷻ، ففرق بين المحبة مع الله، والمحبة في الله.

قوله: **(لأن محبّتهم من تمام محبّته)**، فهو ما أحبهم إلا لأن الله يحبهم، فهو يحب من يحبه الله، ويحب ما يحبه الله ﷻ من الأقوال والأعمال، هذه هي العبادة.

قوله: **(وليست كمحبّة من اتّخذ من دونه أندادًا يحبّهم كحبّه)**؛ أي: كالمشركين.

قوله: **(وإذا كانت المحبّة له هي حقيقة عبوديّته وسرّها، فهي إنما تتحقق باتِّباع أمره واجتناب نهيه)**، فلا يكفي مجرد المحبة؛ بل لا بد من اتباع أمره، إذا كانت محبة لله، ويحب الله فلا بد أن يتبع ما أمر الله به، ويترك ما نهى الله عنه، فلا يكفي أن يقول: أنا أحب الله ولا يضرني أني لا أصلي ولا أصوم وأفعل ما أريد! فهذا كذاب ولا يحب الله، الذي يحب الله يتبع ما أمر الله به، وما نهى عنه، ويتبع رسله، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢]؛ فمحبة الله ليست مجرد دعوة؛ بل هي حقيقة علامتها اتباع الرسول ﷺ، ثمرتها: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

قوله: **(فعند اتِّباع الامر والنّهي تتبيّن حقيقة العبوديّة والمحبّة)**؛ فالأمر والنهي هو الذي جاء به الرسول ﷺ.

* **ولهذا جعل ﷻ اتِّباع رسوله ﷺ عَلَمًا عليها وشاهدًا لها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل اتِّباع رسوله ﷺ مشروطًا بمحبّتهم لله تعالى، وشرطًا لمحبّة الله له، ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع، فعلم انتفاء المحبّة عند انتفاء المتابعة للرّسول.**

قوله: (عَلَمًا عليها وشاهدًا لها)؛ أي: على محبة الله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ هذه آية الامتحان، لما قال اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، ادعوا هذا، فامتحنهم الله بهذه الآية، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

قوله: (فجعل اتِّباع رسوله ﷺ مشروطًا بمحبّتهم لله تعالى، وشرطًا لمحبّة الله له)، هذه تأتي على الصوفية أيضًا الذين يقولون نحن نحب الله، لكن لا يتبعون الرسول، فهم كاذبون في هذا، فكل من ادعى محبة الله وهو لا يتبع الرسول فهو كاذب في دعوى المحبة، فليس هناك طريق إلا طريق الرسول ﷺ، هو الطريق إلى الله ﷻ.

قوله: (ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع)، هذا معروف، أن الشرط ما يلزم من عدمه العدم، فعدم الشرط يلزم منه عدم المشروط.

قوله: (فعلم انتفاء المحبّة عند انتفاء المتابعة للرّسول ﷺ)، علم من هذا انتفاء محبة الله التي يدعونها، وهم لا يتبعون الرسول ﷺ، وهذا عام لليهود والنصارى وغيرهم، فكل من يدعي أنه يحب الله ولكن لا يطيع الرسول، ولا يتبع الرسول فهذا كاذب في محبته لله.

ويتبع هذا أيضًا أن يحب من يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله، فهذا دليل على محبة الله:

أولًا: اتباع الرسول ﷺ، هذا هو الأصل.

....

ثانيًا: أن يحب كل ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله، وأن لا يقدم شيئًا على محبة الله، فإذا تعارض شيء من أطماع الدنيا مع محبة الله؛ فإن قدَّم محبة الله فهو صادق، وإن قدَّم ما تحبه نفسه على محبة الله، فهو كاذب، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾؛ أي: انتظروا العذاب، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]؛ فالذي يقدم أطماع الدنيا ورغبات الدنيا على ما يحبه الله، فهذا ينتظر العذاب من الله ﷻ، فعلامة محبة الله أن يقدم ما يحبه الله على ما تحبه نفسه، هذه علامة محبة الله ﷻ، والله يبتلي عباده، فليس كل من يدعي الإيمان يترك؛ بل يبتلى، ويمتحن حتى يظهر صدقه في دعواه.



*** ولا يكفي ذلك حتى يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، ومتى كان عنده شيءٌ أحبّ إليه منهما فهو الإشراك الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾** [التوبة: ٢٤].

*** وكل من قدّم قول غير الله على قول الله،** ....

قوله: **(فهو الإشراك الذي لا يغفره الله)**؛ أي: الإشراك في المحبة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾؛ فالله لم ينكر عليهم أنهم يحبون هذه الأشياء، هذه محبة طبيعية، ولكن أنكر عليهم أن تكون أحب إليهم من الله، ورسوله وجهاد في سبيله، فهنا مفترق الطرق، أما كونك تحب هذه الأشياء فلا تُلام على ذلك، هذه محبة طبيعية، ولكن مفترق الطرق، هل تقدم محبة الله عليها أو تقدم محبتها على ما يحبه الله؟ هذا هو مفترق الطرق، المهاجرون تركوا بلادهم وأموالهم وأولادهم، فهل لم يكونوا يحبونها؟ بل يحبونها حبًّا شديدًا، ولكن تركوها وهاجروا إلى الله ورسوله، هذه علامة الإيمان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨]، فليست المسألة سهلة، كلٌّ يقول: أنا أحب الله! لا بد من وجود علامات ودلائل وابتلاء وامتحان، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

قوله: **(وكل من قدّم قول غير الله على قول الله)**، هذا أيضًا علامة فارقة، فالذي يحب الله يقدم أمر الله وأمر رسوله على أمر فلان وعلان. فإن كان العكس كأن يقدم قول شيخه، أو إمامه، أو حزبه، أو جماعته على أمر الله فهذا كاذب في محبة الله ﷻ.

أو حكم به، أو حاكم إليه؛ فليس ممن أحبّه.

قوله: (أو حكم به)، ترك شرع الله وحكم بالقانون، فهل هذا يحب الله ﷻ؟ لا؛ بل هو كذاب.

قوله: (أو حاكم إليه)؛ أي: حاكم لغير شرع الله، فهذا كاذب في أنه يحب الله، وليس هذا خاص بالمنازعات في المحاكم كما يفهم بعض الناس؛ بل في كل نزاع، وفي كل خلاف يقدم قول الله وقول رسوله، ولا يقدَّم قول أحد في مسائل الاجتهاد، وفي مسائل العقائد، في كل مسألة فيها خلاف، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]؛ وليس هذا خاص بالمحاكم فقط؛ بل في كل اختلاف يكون بين الناس، يقدم طاعة الله وطاعة رسوله على قول فلان وعلان، والمذهب وغير ذلك.

قوله: (فليس ممن أحبّه)؛ أي: فليس ممن أحب الله، وإن كان يدعي أنه محب لله، نقول: كذاب، ما حققت ما تقول.



❊ لكن قد يشتبه الأمر على من يقدّم قول أحد، أو حكمه، أو طاعته، على قوله، ظنًّا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرّسول ﷺ فيطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقّى أقواله كذلك، فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك.

قوله: (على قوله)؛ أي: لا يقدم قول أحد على قول الرسول ﷺ.

قوله: (ظنًّا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قال الرّسول ﷺ فيطيعه، ويحاكم إليه)، فبعضهم يتبع إمامه، ويقول: إمامي ثقة لا يقول إلا ما قال الرسول، ولا يخالف الرسول. يحسن الظن به، فهذا خطأ وعلى خطر عظيم، فلا يحمله حسن الظن من دون أن يميز هل هو على حق أو على باطل، وهذه يقولونها الآن، إذا قلت له: يا أخي الصواب كذا وكذا، والدليل كذا وكذا. يقول: فلان قال كذا، وهو أعلم مني ومنك بالحق!. هم أعلم منا بها يقولون! يعني: أنت ليس لديك فهم ولا ذهن ولا عندك شيء؛ وهذا لا يجوز إلا للعاجز الذي لا يمكن أن يعرف الحق؛ فإنه يقلد من يثق بعلمه، إذا كان عاجزًا عن معرفة الحق وطلبه، فيختار من يثق بعلمه ودينه ويقلده لا بأس، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣]، ولكن الذي عنده مقدرة على أنه يبحث ويعرف الحق ويعرف دليل إمامه الذي يقلده؛ فيجب عليه ذلك ولا يكون إمعة، ولا يعتقد العصمة إلا للرسول ﷺ؛ فالإمام الجليل من أهل العلم والسلف قد يخطئ؛ لأنه بشر، فما دام عندك إمكانية فلا تعجز عن طلب الحق، ولا تقلد أحدًا، أما إذا كنت لا تقدر على هذا، وليس عندك إمكانية فقلد من تثق بعلمه ودينه، وهذا معنى قوله: **(فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك)**، انتبه **(إذا لم يقدر)** فهو معذور، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهذا لا يستطيع غير هذا.

❁ ❁ ❁

* وأمّا إذا قدر على الوصول إلى الرّسول ﷺ وعرف أن غير من اتَّبعه أولى به مطلقًا، أو في بعض الأمور؛ كمسألةٍ معيّنةٍ، ولم يلتفت إلى قول الرّسول ﷺ ولا إلى قول من هو أولى به؛ فهذا يخاف عليه.

* وكلّ ما يتعلل به من عدم العلم، أو عدم الفهم، أو عدم إعطاء آلة الفقه في الدّين، أو الاحتجاج بالأشباه والنظائر، أو بأن ذلك المتقدّم كان أعلم منّي بمراده ﷺ، فهي كلها تعلّلات لا تفيد.

* هذا مع الإقرار بجواز الخطأ على غير المعصوم ﷺ، إلا أن ينازع في هذه القاعدة فتسقط مكالمته، وهذا هو داخل تحت الوعيد، فإن استحلّ مع ذلك ثلب من خالفه، وقرض عرضه ودينه بلسانه، ....

قوله: **(فهذا يخاف عليه)**؛ أي: يخاف عليه من الضلال، فلا نعتقد العصمة لأحد إلا لرسول الله ﷺ، والأئمة يخطئون؛ لأنهم بشر، وهم نهونا أن نقلدهم، وأن نأخذ أقوالهم من دون تمحيص، نهونا عن ذلك، وحذّروا من هذا.

قوله: **(وكلّ ما يتعلل به من عدم العلم.. فهي كلها تعلّلات لا تفيد)**، ما دام أنه يقدر على الوصول إلى الحق بنفسه، وإلى الوصول إلى ما جاء به الرسول، ما دام يقدر وعنده إمكانيات فلا يجوز له أن يخلد إلى الأرض ويسلم للتقليد وهو يقدر على الوصول إلى الحق.

قوله: **(إلا أن ينازع في هذه القاعدة فتسقط مكالمته)**، إذا نازع في هذه القاعدة، وقال: لا بأس فهم ثقات، ولا يلزم أننا نبحث، فنحن مسلمون الأمر لهم!، فإذا نازع هذه القاعدة فهذا لا يكلم؛ بل يهجر ويترك؛ لأنه ترك الحق وهو يقدر على طلبه لأجل التقليد الأعمى.

قوله: **(فإن استحلّ مع ذلك ثلب من خالفه، وقرض عرضه ودينه بلسانه)**، فإذا قلد وأصر على التقليد وتناول المخالفين بالذم وقرض أعراضهم وذمهم بأنهم لا يفهمون؛ فهذه جريمة أخرى، أضاف إلى هجر الحق، وزهده

أو انتقل من هذا إلى عقوبته، أو السعي في أذاه، فهو من الظلمة المعتدين، ونوّاب المفسدين.

في طلب الحق، أضاف إليه أكل لحوم الناس، والتنقص ممن خالفه.

قوله: (**أو انتقل من هذا إلى عقوبته**)، إلى عقوبة من خالف، لا لشيء إلا لأنه خالف، فهذا أشد.

قوله: (**أو السعي في أذاه، فهو من الظلمة المعتدين، ونوّاب المفسدين**)، فلتتنبه لهذا، هذا كلام يُكتب بماء الذهب، فتنبه له.



* واعلم أن للعبادة أربع قواعد:

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(واعلم)**؛ أي: انتبه لهذه المسألة، **(أن للعبادة أربع قواعد)**؛ أي: أن للعبادة أربع قواعد لا بد أن تتحقق، فإن نقص شيء منها لم تتحقق العبادة:

الأولى: (التحقق بما يحبّ الله ورسوله ويرضاه)؛ أي: التحقق مما يرضاه الله ويحبه من الأعمال، أما ما لا يرضاه الله ولا يحبه فإنه كفر، وليس إيمانًا، فما يفعله كثير من الناس من أعمال أو أقوال أو اعتقادات لا يرضاها الله، ولا يحبها، وإنما ابتدعوها من عند أنفسهم أو ابتدعها لهم مشائخهم وأكابرهم، فإن هذا يتنافى مع الإيمان.

القاعدة الثانية، والثالثة والرابعة: أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، لا بد من هذه الأمور:

فليس الإيمان بالقول فقط من غير اعتقاد، كما تقوله الكرّامية.

وليس الإيمان هو الاعتقاد فقط، من غير قول وعمل كما تقوله الأشاعرة.

وليس الإيمان قول واعتقاد فقط من دون عمل كما تقوله مرجئة الفقهاء.

كل هذه الأقوال من أقوال المرجئة، لا يتحقق معها إيمان، أما قول أهل السُّنَّة والجماعة وهو القول المأخوذ من الكتاب والسُّنَّة، فهو أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، لا بد منها جميعًا، وهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهذا مأخوذ من الكتاب والسُّنَّة.

من الكتاب في آيات كثيرة:

منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [الأنفال: ٢، ٣]؛ فذكر أن الأعمال من الإيمان

....

كالصلاة والنفقة، وذكر أنه لا بد أن يكون ذلك في القلوب، ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

ومنها: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١٠]، فقد أفلح المؤمنون الذين اتصفوا بهذه الصفات، القولية، والعملية، والاعتقادية، هؤلاء هم المؤمنون الذين ينالون الفلاح، ويرثون الجنة، ويرثون الفردوس أعلى الجنة.

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات: ١٥]؛ فالجهاد يكون باللسان ويكون باليد، ويكون بالدعوة إلى الله، ويكون بالتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل هذا من الجهاد، فدلت الآيات على أن الأعمال من الإيمان.

ومن الأحاديث:

منها: قوله ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ـ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ ـ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ**»[1]، شعبة: أي: خصال وخلال من خصال الخير، قولية واعتقادية وفعلية، فأعلاها قول لا إله إلا الله، هذا قول، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق هذا فعل، والحياء شعبة من الإيمان، هذا بالقلب، فدلّ على أن

---

(١) أخرجه مسلم (٣٥).

*** وهي: التحقق بما يحبّ الله ورسوله ويرضاه، وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح.**

*** فالعبوديّة: اسم جامع لهذه المراتب الأربع.**

*** فأصحاب العبادة حقًّا هم أصحابها.**

الإيمان قول واعتقاد وعمل، إلى غير ذلك من الأدلة الواضحة على أن الإيمان يتكون من هذه الأشياء، ولا يسمى إيمانًا إلا بها مجتمعة، فإذا تفرقت فلا يكفي بعضها، ولا يكون إيمانًا في الشريعة، والكلام والإيمان في الشريعة وليس في اللغة، فقولهم: الإيمان هو التصديق بالقلب هذا في اللغة، لا في الشريعة؛ وهذه حقيقة شرعية أن الإيمان هو ما ذكر.

قوله: (التحقق بما يحبّ الله ورسوله)، فلا تعمل عملًا أو تقول قولًا أو تعتقد اعتقادًا لا يرضاه الله ورسوله.

قوله: (وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح)، الجوارح؛ يعني: الأعضاء.

قوله: (فالعبوديّة: اسم جامع لهذه المراتب الأربع) التي ذكرناها، وهي الإيمان، فالعبودية هي الإيمان بالله ﷻ على ما جاء في الكتاب والسُّنَّة، وهي تتكون من هذه القواعد الأربع، والشرط الأساس أن يكون ذلك مما يرضاه الله ورسوله، وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وكما يشير إليه قوله هنا.

قوله: (فأصحاب العبادة حقًّا هم أصحابها)، فأصحاب العبادة حقًّا وأصحاب الإيمان حقًّا هم أصحابها، فأما من اقتصر على بعضها ليس من أصحاب العبادة، وليس من أصحاب الإيمان.



❊ فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله عن نفسه، وأخبر رسوله عن ربّه من أسمائه وصفاته وأفعاله، وملائكته ولقائه، وما أشبه ذلك.

❊ وقول اللسان:

قوله: **(فقول القلب)**، هو اعتقاد القلب بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله ﷺ، هذا قول القلب، وعمل القلب، فهو يسمى قولًا ويسمى عملًا، وأول ذلك الإيمان بالله وبأسمائه، وصفاته، وأقداره، وأفعاله، هذا هو الأساس؛ فالذي يفرط في شيء من هذه الأمور ولم يعتقده بقلبه لا يكون مؤمنًا، فيثبت الصفات على الوجه الصحيح، ولا يثبتها على وجه التشبيه والتمثيل.

وكذلك الإيمان بأركان الإيمان الستة في الحديث: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1]، هذا يكون في القلب، فمن أنكر شيئًا من هذه الأمور لم يكن مؤمنًا، قال الله ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦]، هذا هو اعتقاد القلب، ويتبعه العمل؛ فاعتقاد القلب يتبعه العمل، وهي أركان الإسلام الخمسة، هذه عمل الجوارح.

قوله: **(وقول اللسان)** أما قول اللسان فيكون بقول: (لا إله إلا الله)، وبذكر الله، والتسبيح والتهليل، والأذكار المشروعة، ويكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكون بالدعوة إلى الله ﷻ، ويكون بالتعليم؛ كتعليم الأمور الدينية ونشرها بين الناس، هذا كله من قول اللسان.

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

*** الإخبار عنه بذلك، والدّعاء إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره ﷺ، وتبليغ أمره.**

قوله: (الإخبار عنه بذلك)؛ أي: الأخبار عن الله ﷻ، عن أسمائه وصفاته، وبيانها للناس؛ لأجل أن يعتقدوها ويعملوا بها.

قوله: (والدّعاء إليه)؛ يعني: الدعوة إلى الله.

قوله: (والذبُّ عنه)؛ أي: دفع الملحدين والكفرة، والمشككين، فهذا من الإيمان بالله، وهو من قول اللسان، لا يكفي أن تنكر بقلبك؛ بل لا بد أن تتكلم بلسانك وتبين.

قوله: (وتبيين بطلان البدع المخالفة له)، فهذا واجب أن لا نسكت عن البدع ونترك الناس كلٌ على هواه، كلٌ له عقيدته، وكلٌ له اتجاهه، كما يُدعى إليه الآن في الصحف وغيرها وعلى ألسنة الجهلة أو الملحدين يريدون أن لا ينكر المنكر، لا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، وأن يترك الناس على ما هم عليه، لئلا يفرّق بين الناس يقولون! فالذي ليس فيه خير نريد أن يفرق ولا نحب إلا ما فيه الخير، فما دام فيه شر فنحن نحب أنه يبعد عنا، ولا نريد أن نجتمع معه.

قوله: (والقيام بذكره ﷺ)، بالأعمال الصالحة، والنطق بالأذكار مع الاعتقاد بالقلب.



*** وعمل القلب: كالمحبّة له، والتّوكّل عليه، والإنابة، والخوف، والرجاء، والإخلاص، والصّبر على أوامره ونواهيه، وأقداره، والرّضا به، وله، وعنه، ....**

قوله: (وعمل القلب)، أعمال القلب كثيرة؛ كالخوف، والخشية، والرجاء، والمحبة، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والإنابة، كل هذا من عمل القلب.

قوله: (كالمحبّة له، والتّوكّل عليه، والإنابة، والخوف، والرجاء، والإخلاص)، كل هذه من أعمال القلب.

قوله: (والصّبر على أوامره ونواهيه)، الصبر على أوامره وما فيها من المشقة، الأوامر فيها مشقة، والنفوس تنفر منها لما فيها من المشقة، فلا بد من الصبر، وكذلك المحارم النفوس تشتهيها، فلا بد من كفها عنها والصبر على ذلك.

قوله: (وأقداره)؛ أي: الأقدار التي ليس للإنسان فيها تسبب، الأقدار الكونية التي ليس للإنسان فيها تسبب كالمصائب، والشدائد والأمراض، التي تصيب الناس يصبرون عليها، ولا يجزعون ولا يتسخطون، أما فعل الذنوب والمعاصي فهذا لا يجوز الصبر عليه؛ هذا أنت الذي أوجدته باختيارك وبفعلك وبمشيئتك، فواجبك الكف والصبر عنه، والابتعاد عنه، ولا تقل: هذا مقضي ومقدر عليّ! هذا لا يجوز، فلا يجوز الاحتجاج بالقدر على المعاصي، فإنما يحتج بالقدر على المصائب التي ليس لك فيها قدرة.

قوله: (والرّضا به، وله، وعنه)، الرضا بالله، وله: أي: ترضى بما يرضي الله ﷻ، وتسخط ما يسخطه الله، فتحب وتبغض لله، لا لهوى نفسك، ترضى ما يرضاه الله، تغضب وتسخط ما يكرهه الله، ويُغضب الله ﷻ، والرضا عنه سبحانه: الرضا عن الله بما يقضي ويقدر ولا تجزع.

والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والإخبات إليه، والطّمأنينة به، ونحو ذلك من أعمال القلوب التي فرضها آكد من فرض أعمال الجوارح، ....

قوله: **(والموالاة فيه، والمعاداة فيه)**، هذا أصعب شيء على المعاصرين اليوم، أو على كثير من المعاصرين، وهو: الولاء والبراء، فهم لا يريدونه أبدًا، لا يريدونك أن توالي أحدًا، أو أن تتبرأ من أحد؛ فالناس كلهم سواء عندهم، والإنسانية، والأخوة الإنسانية وحقوق الإنسان والمواطنة، وما أشبه ذلك، لا تكره أحدًا، ولا تبغض أحدًا ولا تسب دين أحد، ولا تنفّر من دينهم وبدعهم، ومحدثاتهم، لا يريدون شيئًا من هذا بموجب التعايش! هذا أمر لا يجوز، هم يريدون الآن دفن هذا الأصل، دفن الولاء والبراء، فلا فرق بين مسلم وكافر، ولا بين مؤمن ومنافق، ولا بين عاص ومطيع أبدًا، هذا الذي يحاولون الآن، وأشد شيء عليهم الآن الولاء والبراء، ويسمونه (الكراهية)، أنت فيك كراهية، أنت فيك كره تكره الآخر، وما أشبه ذلك من الألفاظ التي يروجونها الآن.

قوله: **(والإخبات إليه)**، وهو الخضوع، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: ٣٤]، من هم؟ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج: ٣٥]، هؤلاء هم المخبتون، الخاضعون لله ﷻ.

قوله: **(والطّمأنينة به)**، الطمأنينة بالله ﷻ، فلا يكون عند الإنسان تضجُّر أو التبرم أو التكرّه؛ بل يكون راضيًا بالله وعن الله وراضيًا بالله، الرضى به وعنه وله.

قوله: **(ونحو ذلك من أعمال القلوب)**، هذا كله في القلب، أعمال القلب واسعة.

قوله: **(التي فرضها آكد من فرض أعمال الجوارح)**؛ لأنها هي الأساس، فأعمال القلوب آكد من أعمال الجوارح؛ لأن أعمال الجوارح مبنية على ما في القلوب.

ومستحبّها أحبّ إلى الله تعالى من مستحب أعمال الجوارح.

قوله: (ومستحبّها أحبّ إلى الله تعالى من مستحب أعمال الجوارح)، الله يحب أعمال القلوب، ويحب أعمال الجوارح، ولكن محبته لأعمال القلوب أكثر؛ لأنها تُبنى على الإخلاص لله ﷻ.



* وأمّا أعمال الجوارح: فكالصلاة، والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ....

قوله: (وأمّا أعمال الجوارح: فكالصلاة)، الصلاة من أعمال الجوارح: الركوع والسجود، الصلاة يجتمع فيها من الأعمال القولية والعملية الشيء الكثير؛ ولذلك صارت هي أحب العبادات إلى الله ﷻ، يجتمع فيها أعمال القلب، ويجتمع فيها أعمال اللسان، ويجتمع فيها أعمال الجوارح، ولذلك عرَّفوها بأنها: أقوال وأفعال مبتدأة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

قوله: (والجهاد)، الجهاد في سبيل الله، سواء جهاد الكفار بالسلاح، أو جهاد المنافقين بالحجة واللسان والرد عليهم، قال تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٧٣]؛ فالكفار يجاهدون بالسلاح والحديد، ولو لم يجاهدوا لانتشر الكفر وانمحى الإسلام، فلا بد من الجهاد في سبيل الله مع إمام المسلمين، وجهاد المنافقين بالحجة واللسان؛ لأنهم يظهرون الإسلام ويصلون ويصومون ويحجون ويعتمرون، فهم مسلمون في الظاهر، فلا نجاهدهم بالسلاح، ولكن نجاهدهم بالحجة والبيان.

قوله: (ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات)، كذلك من أعمال الجوارح المشي في طاعة الله، الخطوات التي تخطوها إلى المساجد، إلى الجمع والجماعات، هذه خطوات عبادة ومكتوبة، يُرفع لك بكل خطوة حسنة، ويوضع بها عنك خطيئة، وترفع بها درجة، كل خطوة، قلّت الخطى أو كثرت، فخطواتك إلى المسجد مكتوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ [يس: ١٢]؛ أي: ممشاهم إلى المساجد، والنبي ﷺ يقول: «**بَشِّرْ الْمَشَّائِينَ في الظُّلَمِ إلى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يوم الْقِيَامَةِ**»[1]، وقد أخبر النبي ﷺ بأن الخطى إلى المساجد محسوبة ومكتوبة عند الله وعليها ثواب عظيم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٦١).

ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

*** فقول العبد في صلواته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] ....**

قوله: (ومساعدة العاجز)، بإعانته على ركوب دابته، وعلى تحميل سيارته، وعلى حمل ما يشق عليه، أو مساعدته بالمال، فمساعدته إما بالبدن وإما بالمال، بما يدفع حاجته، ومساعدة المعسر في دينه وتسدد عنه دينه، **«من نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ الله عنه كُرْبَةً من كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ... وَاللهُ في عَوْنِ الْعَبْدِ ما كان الْعَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ»**(١)، فتعين إخوانك، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، ومن إعانته: أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، هذا من أعظم الإعانة، هذا أعظم من أنك تعطيه الأموال، وتعطيه البيوت والقصور، الأمر بالمعروف؛ لأنك تنقذه من النار، فهذا من أعظم الإعانة له.

قوله: (والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك)، الإحسان إلى الخلق عمومًا، حتى البهائم، قال ﷺ: **«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ على كل شَيْءٍ»**(٢)، وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]، حتى الكافر الجائع تطعمه، وتنقذه من العطش فتسقيه، وكذا الكلاب تسقيها وتطعمها؛ فالإحسان على كل شيء.

قوله: (فقول العبد في صلواته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾) قول العبد في صلاته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، هذه آية عظيمة من سورة الفاتحة، تعاهد فيها ربك ألا تعبد إلا إياه، ولا تستعين إلا به، وقدم المعمول: ﴿إِيَّاكَ﴾ على العامل وهو: ﴿نَعْبُدُ﴾ لأجل إفادة الحصر، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أبلغ من قول: نعبدك؛ بل تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ أي: لا نعبد إلا إياك، لا نعبد أحدًا سواك، وهذا تعهد بالإخلاص، وترك الشرك، وتتعهد به، ولكن من يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثم يقول: يا علي يا حسين يا عبد القادر،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩). (٢) أخرجه مسلم (١٩٥٥).

التزام أحكام هذه الأربعة وإقرار بها. وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٦] **طلب الإعانة عليها والتوفيق لها. وقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ متضمّنٌ للأمرين على التفصيل وإلهام القيام بهما، ....**

ويستغيث بالأموات وهو يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فأين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؟ هذا يرددها في كل صلاة ولا يتفكر فيها، نسأل الله العافية، فإذا قلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فأنت قد عاهدت ربك أنك لا تعبد سواه، ثم تقول: يا فلان يا علان، هذه مشكلة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ لماذا أفرد الاستعانة مع أنها داخلة في العبادة، داخلة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؟ أفردها لأنه إذا لم يعنه الله على العبادة لم يستطع القيام بها، فأنت لما عاهدت ربك على إخلاص العبادة؛ سألته الإعانة على ذلك.

قوله: **(التزام أحكام هذه الأربعة وإقرار بها)**، فقد سبق أن العبادة تكون على أربعة أشياء، فإذا قلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؟ التزام للعبادة بهذه الأمور.

قوله: **(وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ طلب الإعانة عليها والتوفيق لها)**؛ لأنه إذا لم يعنك الله لم تستطع أن تعبده، وأيضًا لو عبدته قد لا تستمر، فأنت تسأل الله الإعانة على الالتزام بها، والاستمرار عليها والثبات عليها.

قوله: **(وقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ متضمّنٌ للأمرين على التفصيل وإلهام القيام بهما)**، الصراط هو الطريق، والمستقيم خلاف المعوج؛ لأن هناك صراطًا مستقيمًا معتدلًا، يوصل إلى الجنة، وهناك طرق وسبل كثيرة مختلفة ومتشعبة لا حد لها، فصراط الله واحد، والسبل متعددة لا حصر لها؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، فلم يحصر السبل، فهي كثيرة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣]، النبي ﷺ أخبر أن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا واحدة، قالوا: «وَمَنْ هِيَ

....

يا رَسُولَ اللهِ؟»، قال: «**ما أنا عليه وَأَصْحَابِي**»[(١)]، هذا الصراط المستقيم، ما عليه الرسول ﷺ وأصحابه، ولكن هذا يحتاج إلى أمرين:

أولًا: معرفة ما عليه الرسول وأصحابه، بتعلم العلم النافع.

ثانيًا: الصبر على الثبات عليه.

ولهذا تقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾، والهداية نوعان:

الأول: هداية الدلالة والإرشاد.

الثاني: هداية التوفيق والثبات.

فأنت تسأل الله الهدايتين: هداية الدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق والثبات على ذلك، وإلا فقد يهتدي الإنسان بمعنى أنه يعرف الشيء، يهتدي إليه، ولكن لا يوفق بسلوكه والثبات عليه، أنت بحاجة إلى هاتين الهدايتين، والصراط المستقيم: هو ما كان عليه من ذكرهم الله بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ۝٧٠﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠]، ولما ذكر الصراط المستقيم ذكر الطرق المنحرفة، وأعظمها طريق اليهود والنصارى:

طريق اليهود أنهم عرفوا الصراط المستقيم لأنهم علماء، عرفوا الصراط المستقيم ولكنهم لم يعملوا به ولم يسيروا عليه؛ بل خالفوه، فهم عندهم الهداية، هداية الدلالة فقط، وليس عندهم هداية التوفيق؛ حرموا منها.

والطريق الثاني: طريق النصارى، الذين لا يعرفون الصراط المستقيم فهم جهال، ويعبدون الله على غير شرعه، على غير طريق صحيح، على جهل وضلال، هؤلاء هم النصارى.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١).

وسلوك طريق السّالكين إلى الله تعالى.

*** والله سبحانه الموفّق بمنّه وكرمه، والحمد لله وحده، وصلّى الله على من لا نبيّ بعده، وآله وصحبه ووارثيه وحزبه. تمّ الكتاب بعون الله الملك الوهاب.**

فأهل الصراط المستقيم جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح، اليهود أخذوا العلم وتركوا العمل، النصارى أخذوا العمل وتركوا العلم، وليس هذا خاص باليهود والنصارى؛ بل كل من اتصف بذلك فحكمه حكم اليهود والنصارى، فالذي لا يعمل بعلمه هذا فيه صفة اليهود، والذي يعمل بغير علم هذا فيه صفة النصارى؛ ولهذا يقول بعض السلف: «من ضل من علمائنا ففيه شبه باليهود، ومن ضل من عبّادنا ففيه شبه من النصارى». الصوفية وكل من عبد الله على جهل وضلال فهو داخل في هذا النوع، وكل من عنده علم ولا يعمل به فهو داخل في نوع اليهود، والصراط المستقيم هو من أهل العلم والعمل، العلم النافع والعمل الصالح، كيف أن الله فرض علينا أن نقرأ هذه السورة في كل ركعة ولا نتدبرها، ولا نتأملها، ولا ندري ماذا فيها إلا كلام نردده بألسنتنا إلا من شاء الله، فيجب على المسلم أن يعرف القرآن، وهذه السورة بالذات؛ لأنها أم القرآن، سورة الفاتحة هي أم الكتاب، هي أم القرآن، وإليها يرجع القرآن كله، فهي مجملة، والقرآن يفصلها ويُبينها؛ ولذلك سميت هذه السورة العظيمة (بأم القرآن).

قوله: (وسلوك طريق السّالكين إلى الله تعالى)، وهم الذين أنعم الله عليهم، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فقد أضافه إليهم؛ لأنهم أهله، العاملون به، وأضافه إلى نفسه صراط الله؛ لأنه هو الذي شرعه، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] فأضافه إلى نفسه؛ لأنه هو الذي شرعه ﷻ.

قوله: (تمّ الكتاب بعون الله الملك الوهاب)، جزاه الله خيرًا عن الإسلام والمسلمين، على هذا الكتاب النفيس المختصر الذي تضمن عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، وهو كتاب عظيم، فجزاه الله خيرًا وأثابه ونفعنا بما فيه من العلم النافع.

فائدة[1]

❁ قد تقدم للمؤلف المقريزي كلام في حلق الرأس، وأجمل القول في ذلك، ولما كان الحكم في ذاته فيه تفصيل، أحببنا أن نذكر هنا ما أورده الحافظ العلامة شمس الدين ابن القيم ـ رحمة الله عليه ـ بكتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد»، قال في كتاب الطب من الجزء الثاني لعلاج القمل الذي في الرأس وإزالته:

❁ «وحلق الرأس ثلاثة أنواع:

❁ **أحدها**: نسك وقربة.

❁ **والثاني**: بدعة وشرك.

❁ **والثالث**: حاجة ودواء.

حلق الرأس: بالنسبة للرجل، وحلق الرأس ذُكر أنه على ثلاثة أنواع:

حلق عبادة وشعيرة كما يحلق المسلم رأسه في الحج والعمرة، وكما يحلق المشركون رؤوسهم عند الأصنام، هذا حلق عبادة، وهو واجب على المسلم.

وحلق محرّم: كحلق المشركين رؤوسهم تعظيمًا للأصنام.

وحلق مباح: وهو الحلق للحاجة، هذا مباح، فإن شئت تحلق، وإن شئت لا تحلق.

وقد ذكر المؤلف مسألة حلق الرأس في قوله: **(فالشرك به في الأفعال؛ كالسجود لغيره سبحانه، والطواف بغير بيته المحرّم، وحلق الرأس عبوديّةً وخضوعًا لغيره)**، الآن يأتي من كلام ابن القيم حول حلق الرأس؛ لأن المؤلف أجمل القول؛ أي: اختصر.

---

(١) فائدة في آخر إحدى الطبعات؛ رأى شيخنا ـ حفظه الله ـ التعليق عليها.

*** فالأول: الحلق في أحد النسكين: الحج أو العمرة.**

*** والثاني: حلق الرأس لغير الله سبحانه كما يحلقها المريدون لشيوخهم، فيقول أحدهم: أنا حلقت رأسي لفلان، وأنت حلقته لفلان، وهذا بمنزلة أن يقول: سجدت لفلان، فإن حلق الرأس خضوع وعبودية وذل؛ ولهذا كان من تمام الحج حتى إنه عند الشافعي ركن من أركانه، لا يتم إلا به، فإن وضع النواصي بين يدي ربها خضوعًا لعظمته وتذللًا لعزته، وهو من أبلغ أنواع العبودية؛ ولهذا كانت العرب إذا أرادت إذلال الأسير منهم وعتقه حلقوا رأسه وأطلقوه.**

قوله: (**الحلق في أحد النسكين**) هذا عبادة وهو واجب من واجبات الحج والعمرة.

قوله: (**والثاني: حلق الرأس لغير الله**)، وهذا محرم وشرك؛ لأنه عبادة لغير الله؛ لأنهم يفعلونها على وجه النسك، التعبد والذل لغير الله ﷻ.

قوله: (**كما يحلقها المريدون لشيوخهم**)، وهو عند الصوفية أيضًا، فهم يحلقون رؤوسهم لشيوخهم، شيوخ الطرق تعظيمًا وتواضعًا لهم، (**المريدون**) هم الطلاب.

قوله: (**فإن حلق الرأس خضوع وعبودية وذل**)، فهو مثل السجود، إذا فعل على وجه العبادة والتعظيم لأحد فهو عبادة مثل السجود.

قوله: (**حتى إنه عند الشافعي ركن من أركانه**)؛ أي: تمام الحلق من تمام الحج؛ لأنه نسك من مناسك الحج، على الخلاف هل هو واجب أم ركن؟ المعروف أنه واجب من واجبات الحج.

قوله: (**فإن وضع النواصي بين يدي ربها خضوعًا لعظمته وتذللًا لعزته**)؛ يعني: حلقك لراسك في الحج والعمرة خضوعًا لله، أن تضع ناصيتك بين يديه.

قوله: (**ولهذا كانت العرب إذا أرادت إذلال الأسير منهم وعتقه حلقوا رأسه وأطلقوه**)، إذلالًا له وتنكيلًا به.

*** فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية الذين أساس مشيختهم على الشرك والبدعة فأرادوا من مريديهم أن يتعبدوا لهم فزينوا لهم حلق رؤوسهم لهم، كما زينوا لهم السجود لهم وسموه بغير اسمه، وقالوا: هو وضع الرأس بين يدي الشيخ.**

*** ولعمر الله إن السجود لله هو وضع الرأس بين يديه ﷻ، وزينوا لهم أن ينذروا لهم، ويتوبوا لهم، ويحلفوا بأسمائهم وهذا هو اتخاذهم أربابًا من دون الله تعالى، قال تعالى:** ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

قوله: (**فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية**)، يريد الصوفية.

قوله: (**كما زينوا لهم السجود لهم وسموه بغير اسمه**)، فكذلك وضع الرأس عند المريدين فهو سجود لهم، كما أن وضعه لله سجود لله تعالى.

قوله: (**وزينوا لهم أن ينذروا لهم**)، النذر عبادة.

قوله: (**ويتوبوا لهم**)، التوبة إلى الله ﷻ، وليست التوبة للمخلوق.

قوله: (**ويحلفوا بأسمائهم**) الحلف تعظيم، والحلف بغير الله شرك.

قوله: (**وهذا هو اتخاذهم أربابًا وآلهة من دون الله**) بلا شك، فهذا أشد من تحليل الحرام، وتحريم الحلال، الذي هو عبادة الأحبار والرهبان، هذا أشد.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، هذا فيه الرد على النصارى، لما كانوا يعبدون المسيح رد الله عليهم بقوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: المسيح ﷺ، ما قاله

....

المسيح عليه الصلاة والسلام؛ بل قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢] هذا الذي قاله المسيح، لكنهم ابتدعوا وأحدثوا بعده أمورًا أعظمها الشرك، والعياذ بالله، واتخذوه ربًّا؛ فالله رد عليهم في هذه الآية، أنهم كاذبون على المسيح، ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن﴾؛ أي: الذي يأمر به الأنبياء: ﴿كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ هذا الذي يأمر به الأنبياء، ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾ الكتاب المنزل من الله ﷻ، ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝٨٠﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].



* وأشرف العبودية عبودية الصلاة، وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة، فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها وهو السجود، وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع، فإذا لقي بعضهم بعضًا ركع له، كما يركع المصلي لربه سواء، وأخذ الجبابرة منهم القيام فيقوم الأحرار والعبيد على رؤوسهم عبودية لهم وهم جلوس، وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل فتعاطيها مخالفة صريحة له، فنهى عن السجود لغير الله، وقال: «لَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ»، فأنكر على معاذ لما سجد له، وقال: «مه».

قوله: (فيقوم الأحرار والعبيد على رؤوسهم عبودية لهم وهم جلوس) من باب التعظيم، فإذا قاموا على رأسه من باب التعظيم فهذا عبودية ولا يجوز، وهذا أبغض الخلق إلى الله، وأما إذا قاموا على رأسه للحراسة فلا باس بذلك، هذا للحاجة، فوقوف الحرس لأجل الرصد ولأجل حماية ولي الأمر هذا لا بأس به، وإنما إذا كان هذا من باب التعظيم له، وكما جاء في الحديث: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْثُلَ له الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّارِ»(١)، وانظر: لقد أخذ هؤلاء الركوع والسجود والقيام.

قوله: (فأنكر على معاذ لما سجد له...) ولما أراد معاذ رضي الله عنه أن يسجد للرسول، فقد قدم من الشام ورآهم يسجدون لعلمائهم ورؤسائهم وملوكهم فأراد أن يسجد للرسول، فالرسول أولى أن يُسجد له، فمنعه الرسول ﷺ، قال: «لَوْ كُنْتُ آمِرُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»(٢).

قوله: (فأنكر على معاذ لما سجد له، وقال: مه)؛ يعني: كف عن هذا.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٣١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٩٤٠٣).

وتحريم هذا معلوم من دينه بالضرورة، وتجويز من جوزه لغير الله مراغمة لله ورسوله، وهو من أبلغ أنواع العبودية، فإذا جوَّز هذا المشرك هذا النوع اليسير فقد جوز العبودية لغير الله. وقد صح أنه قيل له: الرجل يلقى أخاه أينحني له؟ قال: لا، قيل: أيلتزمه ويقبله؟ قال: لا، قيل: أيصافحه؟ قال: نعم. وأيضًا فالانحناء عند التحية سجود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [البقرة: ٥٨]؛ أي: منحنين، وإلا فلا يمكن الدخول على الجباه. ....

قوله: **(وتجويز من جوزه لغير الله مراغمة لله ورسوله)**؛ أي: من أجاز السجود لغير الله فهذا مراغم لأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ ومناقض للتوحيد.

قوله: **(وقد صح أنه قيل له: الرجل يلقى أخاه أينحني له؟ قال: لا، قيل: أيلتزمه ويقبله؟ قال: لا، قيل: أيصافحه؟ قال: نعم)**، عند اللقاء المصافحة، إلا إذا كان قادمًا من سفر فلا بأس من معانقته وتقبيله إذا كان من الأقارب، لا بأس، فعل النبي ﷺ هذا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه[1]، فإذا كان قادمًا من سفر خصوصًا القريب فإنه يُقبّل، وأما إذا كان غير قادم من سفر فتكفي المصافحة.

قوله: **(وأيضًا فالانحناء عند التحية سجود)**، فلما حصل من اليهود ما حصل من الجرائم أمرهم الله أن يدخلوا الباب، باب بيت المقدس، قال تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾؛ أي: منحنين خاضعين لله تعظيمًا لله تعالى، فجلسوا يزحفون على آستاههم والعياذ بالله، وقيل لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾؛ يعني: حط عنا ذنوبنا، هذا استغفار فبدلوها وقالوا: حنطة، وهو من الأكل، وهذا استهزاء بآيات الله تعالى.

قوله: **(وإلا فلا يمكن الدخول على الجباه)**، ما قال لهم سجدًا؛ يعني:

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٤٥٢).

وصح عنه النهي عن القيام وهو جالس كما تعظم الأعاجم بعضها بعضًا، حتى منع من ذلك في الصلاة، وأمرهم إذا صلى جالسًا أن يصلوا جلوسًا وهم أصحاء لا عذر لهم؛ لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس، مع أن قيامهم لله، فكيف إذا كان القيام تعظيمًا وعبوديةً لغيره ﷻ؟!.

اسجدوا على الأرض، لا يمكن أن يدخلوا ساجدين على الأرض، فدل على أن المراد بذلك الانحناء، يحني رأسه تعظيمًا لله ﷻ وإجلالًا له.

قوله: (وصح عنه النهي عن القيام وهو جالس كما تعظم الأعاجم بعضها بعضًا)، لما صلى النبي ﷺ جالسًا لمرض أصابه وعاده أصحابه وصلوا معه، قاموا فأشار إليهم أن اجلسوا، فجلسوا، وصلوا خلفه جلوسًا، فلما سَلَّمَ قال: **«إن كِدْتُمْ آنِفًا لَتَفْعَلُونَ فِعْلَ فَارِسَ وَالرُّومِ يَقُومُونَ على مُلُوكِهِمْ وَهُمْ قُعُودٌ، فلا تَفْعَلُوا، ائْتَمُّوا بِأَئِمَّتِكُمْ، إن صلى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا، وَإِنْ صلى قَاعِدًا فَصَلُّوا قُعُودًا»**[1].

قوله: (لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس)؛ أي: لئلا يتشبهوا بملوك الأعاجم والطواغيت الذين يحبون القيام عليهم تعظيمًا، فإذا كان القيام تعظيمًا فلا يجوز، أما إذا كان للحاجة والحراسة فلا بأس.

قوله: (مع أن قيامهم لله)؛ مع أنهم في صلاة وقيامهم لله، ولكن كره لهم التشبه بالأعاجم، أن رسولهم جالس وهم قيام فوقه، فكره التشبه في الصورة فقط.



---

(١) أخرجه مسلم (٤١٣).

* والمقصود: أن النفوس الجاهلة الضالة أسقطت عبودية الله ﷻ وأشركت فيها من تعظمه من الخلق، فسجدت لغير الله، وركعت له، وقامت بين يديه قيام الصلاة، وحلفت بغيره، ونذرت لغيره، وحلفت لغيره، وذبحت لغيره، وطافت لغير بيته، وعظمته بالحب، والخوف، والرجاء، والطاعة، كما يعظم الخالق بل أشد، وسوّت من تعبده من المخلوقين برب العالمين، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل، وهم الذين بربهم يعدلون، وهم الذين يقولون وهم في النار مع آلهتهم يختصمون: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، وهم الذين قال فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وهذا كله من الشرك والله لا يغفر أن يشرك به.

قوله: (وسوّت من تعبده من المخلوقين برب العالمين)؛ أي: سوّت بين معبوداتهم وبين الله في الركوع والسجود والقيام، وغير ذلك من التعظيمات، وحلق الرؤوس لهم.

قوله: (وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل)، بلا شك هؤلاء مضادون لدعوة الرسل؛ لأن الرسل أمروا بإفراد الله ﷻ بالعبادة، ونهوا عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦].

قوله: (وهم الذين بربهم يعدلون)؛ يعني: يسوونه بغيره.

قوله: (وهم الذين يقولون وهم في النار مع آلهتهم يختصمون: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾)، هذه مقالتهم في النار إذا أدركوا خطأهم في النار؛ إذ سووا غير الله بالله في العبادة.

قوله: (وهم الذين قال فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾)، فهم يحبون أصنامهم كما يحبون الله، وهذا شرك أكبر.

❊ فهذا فصل معترض في هديه في حلق الرأس، ولعله أهم مما قُصِدَ الكلام فيه، والله تعالى أعلم.



قوله: (**فهذا فصل معترض في هديه في حلق الرأس..**) جزاه الله خيرًا ونفع الله بعلمه.

